سليمان كامل

خرائب الأزمنة

- رواية -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
1998

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

تصميم الغلاف للفنان :

الفصل الأول

الأزمنة السحيقة، امتدت تأثيراتها تحت رماد القرون، ووضعت بصماتها على المكان، انطفأت البراكين الأولى المتأججة، واتسعت فوهاتها، وتراكمت حممها بين منعرجات جبال الشعرا واستحالت مع توالي العصور الجيولوجية سهلاً بازلتياً، تحيطه رعوش جبلية، واحراج نضيرة. من الجهة الشرقية على مطل السهل الغربي، نهضت رابية عالية؛ تراكبت فوقها بيوت من الحجارة، اقتلعت من الصخور الصلدة الناتئة التي أبقتها البراكين الخامدة جوبات متناثرة سُميت الحارة الواطئة منها بحارة غويران الوطا والحارة العليا بحارة (غويران المزار) وفي قمة الرابية تبدت سنديانة هرمة، بأغصانها المقشرة، كأنها مخالب نسر كسرته الأيام ونتفت ريشه. وعلى جذعها الدهري، رُبط شابٌ في ريعان فتوته ربطاً محكماً، وعري الطرف الأعلى من جسده الهزيل المدمى بآثار قضبان من الرمان اللدن، تلك القضبان تركت خطوطاً زُرقاً في جانب وخطوطاً حمراً نازفة في جانب آخر، وكانت شمس أيلول القائظة المنذرة برحيل الصيف، تلقي ظلالها الغروبية فوق الجسد المُدمى الذي كان يهدر فوقه رجلٌ ذئبي السمات، يفتل شاربيه الطويلين كذنب جحش صغير كلما تعب من الضرب، أو تكسر قضيب الرمان، ليأتي بآخر أشد صلابة، ولم يكن أحد يتجرأ أن يتدخل لايقاف هذا الرجل، رشيد بك مبارك الآمر الناهي الذي يملك وأسرته الأراضي والدواب والبشر الذين يعملون مرابعين في حارة غويران الوطا، ولم يكن هذا الشاب المصلوب على جذع السنديانة إلا غيلان الجعفي الابن البكر لابراهيم الجعفي من أسرة الجرود المهاجرين، الذين تقاذفتهم الفلواتُ والاضطهاد العثماني، إذ قتل السلطان عبد الحميد الأخوة الثلاثة رمياً بالرصاص نتيجة دسيسة قام بها أحد عملاء الدولة ، روعت الحادثة إبراهيم الجعفي وظل يجترها في ذاكرته، ويتملاها في أسى مفجع كلما خلا لذاته، راحت عيناه الواجفتان تراقبان ابنه المصلوب على جذع السنديانة في تمزق غريب، وانداحت بحيرة الذكريات في قحف رأسه، وانتشرت في العراء المجنون جثث أخوته الثلاثة، وقد غربلها رصاص العثمانيين، وكانت الخطوط المدماة فوق جسد ابنه

تحفر في سراديب ذاكرته المفجوعة الخطوط ذاتها التي رسمها الطغاة، عبر القرون في جسم الإنسانية الحزينة، وكان التأوه المجروح الذي ينفثه ابنه بعد كل ضربة عنيفة، وتمزق في الخلايا، ينقله إلى قفار الخوف القديم، يوم جُرَّ أخوته وراء قرابيس الجنود القساة، وارتسم فوق وجوههم الرعب الذليل، يوم صلبوا عند المغيب، في هذا الوقت ذاته، الذي يُصلب فيه ابنه. أحس بدوار مقرف يكتسحه، ودموعه تتساقط من عينيه، دون أن يقدر على أن يبدي حراكاً، ولو تقدم خطوة واحدة، لناله أضعاف مايناله ابنه غيلان الجعفي من الضرب المبرح. حاول أن يصم أذنيه عن فرقعة الضرب، وصوت الجلد الذي ينهش اللحم. كان رشيد مبارك يكشر عن أنيابه فرحاً، كلما رأى الدموع تنهمر ثخينة فوق خد الأب المعروق الذي أهزله الزمن، ليتلذذ برؤية الضحيتين معاً، وكان المغيب يُلون جبهة غيلان الجعفي وتضاريس وجهه، بلوحات مغرقة بالحزن، والايحاء الناطق مما يرتسم في الأعماق، وينعكس فوق كوى الجسر، فتبرز المعالم أكثر شخوصاً، وتتجلى بوارق الحدس أشد تعبيراً، عينان واسعتان سوداوان كفحمة الليل، في الأغوار السحيقة، تسبح فيهما دموع متألقة، جبهة عريضة كأنها قُدَّت من صخور جبال الشعرا، تناثر فوقها شعر حالك طويلٌ، اختلط بالدمِ والتراب، وأنف أقنى يبرز في هذا الوجه كأنه رعش ناتئ، ينتهي بفم مطبق على إرادة مصممة على الوصول إلى غايتها، غير أن التعذيب الوحشي، أحدث شرخاً في تصميمها، وترك ندوباً دموية فوق الشفتين المتيبستين. اقترب رشيد مبارك من الفتى المدمى وصرخ به صائحاً:

– تحاول أن تقفز فوق طبقتك وابنتي خضراء مبارك لن تسقط في وهادكم ووحولكم النتنة مثلكم، آويناكم أيها الجرود المارقون، أسكناكم بيوتاً تضمكم بعد أن كنتم سارحين في الفلا والبراري مثل الوحوش. أطعمناكم من قمح أرضنا وغلالها، بعد أن أكلكم الجوع والعري والمهانة، الدم الذي يجري في عروقنا، نحن آل مبارك يختلف عن دمكم المجبول بالذل. ابنتي خضراء الغالية سأزوجها إلى أغنى وأرفع شخصية في هذه الديرة أو إلى أحد أولاد عمها اللائقين بها، ولن أكتفي بجلدك وحدك المرة القادمة بل سأجلد أباك، وأحبس أهلك في زرائب الدواب..

جثم رشيد مبارك فوق كرسي من القش، وقد نال منه التعب من هول الضرب المبرح لضحيته، درج سيكارة تبغ من علبة فاخرة مفضضة الجوانب راح يمجها في دناءة وحش شبع من فريسته وامتصاص دمها. فتح غيلان الجعفي عينيه المقروحتين وأجالهما في الآفاق، تراءت له الظلال الطولانية التي يخطُّها الغروب بين جوبات جبال الشعرا، والغبشة المتكدسة في الأغوار الشديدة العمق، والجمع الغفير الذين يحدقون به من كل جانب، وخضراء الغاوية بلباسها الطويل وزنارها

الأرجواني، وأبوه في وقفته المتضرعة المسحوقة، كأنها جميعها أساطير تحدث في طقوس الإنسانية الأولى وأنه بروميثيوس المنشور في الحكايات الميثولوجية العتيقة، الذي أخبره عنه معلمه نبيل السواحلي في إحدى الأمسيات على بيادر غويران الوطا. شخصت في ذهنه فكرة التمرد والتضحية في أعلى امثولاتها، أغمض عينيه ثانية حتى لا يغوص في حمأ العالم الخارجي، والعلق البشري الذي يدب على جسده المراهق ليمتص منه تفتحه البدئي، أوغل في المسالك الخفية، شعر بأنه ينزل إلى عالم سحيق، الغاب القديم في الخليقة الأولى، غرائز الامتلاك المتوحشة تدفع قابيل ليقتل أخاه هابيل، ويمتلك المرأة المتوقدة في عروقه حنيناً إلى الالتصاق ببرزخ الجسد الآخر، وتجديفاً على القربان الذي لم تقبله الآلهة، أفزعته القيعان المظلمة في البحيرة الداخلية، أفزعه صقيع الخواء في حقيقة العلاقات البشرية، والميل إلى الذئبية والتحكم في مسار الخليقة، أنات المسحوقين، نسيس الجلود المحروقة فوق المجامر، ضراعات وجوه مطموسة الملامح تولول في صحارى القسوة والهمجية. عصف به إحساس مقرف بأن القيم العليا المصلوبة فوق آفاق هذا العالم هي حلم موهوم، وأن الحياة التي عاشتها الإنسانية في ظل العذاب والعبودية هي كذبة عريضة. وطفا من جديد بإحساسه الخارجي إلى عتبة البارحة، يوم رأوه مع خضراء في غابة المزار، يحوش لها ثمرات الزعرور البري، ويجمع لها باقة من زهيرات خريفية، لم تجفف روح الصيف من نداوة براعمها، وتقاذفته تساؤلات في تلافيف دماغه. وماذا لو أحب خضراء وأحبته؟ هل يعرف الحب طبقات وفوارق؟ أليس القلب البشري يخفق للحب والجمال واحتضان الجنس الآخر أينما وجد؟! ألم تكن خضراء زميلته في المدرسة، خمس سنين، قبل أن تتفتح أنوثتها، ماذا جنت يداه عندما لمحها مصادفة في الغابة؟ وهو يلتهم حروف كتاب أعاره المعلم له، ألم يحفظ عن ظهر قلب حديث الحكمة القديمة (إن الناس سواسية كأسنان المشط وليس لعربي فضل على أعجمي إلاّ بالتقوى). التمع هذا الحديث في ذاكرته كبريق ليلة داجية، وغاص في تأملاته مسائلاً: أية سواسية هذه التي نفذتها شرائع الإنسان؟! رشيد مبارك يصلي كما يزعم كل الأوقات، ويصوم ويبتهل، ولكن بفعله يغاير روح الشريعة، الهوة عميقة جداً بين النظرية والسلوك .كل شرائع الوجدان لن تدخل العزاء إلى قلبي، إلا إذا تجسدت في سلوك أصحابها، قذف تلك العبارات الأخيرة في الخواء الداخلي، ارتعش وجدانه الديني من هذا الحوار. لمس شرخاً شاقولياً في عفوية مُعتقده الذي حاول أن يبنيه أبوه ابراهيم الجعفي على صخرة هشة، من التسليم وإيمان العجائز، صعد من جديد من رعوش نفسه وشعاب الأعماق، وفتح عينيه، والتقط العالم الخارجي، فتلامح المعلم

نبيل السواحلي يحدق إليه في ألم أخرس، وتتشربه نظرات حزينة من الجموع المحتشدة حوله، إنه فريسة آل مبارك، يتوخون أكله، وقضم كل عروق الحياة في جسده، عصف به إحساس غاضب، أن يرى المعلم صامتاً أمامه، لا يبدي حراكاً أمام هذه المهزلة، فأطبق جفنيه، يسحق الصور المنزوفة في الداخل، أمه وطفا تشعل سراجاً تتكياً في مغارة قريبة من غويران الوطا يوم تدلف البيوت الطينية من هول الشتاء ويتسرب البلل إلى الفرش والمؤونة الشتوية، ويهرب الجرود إلى رحمة المغارة، ويمكثون ليلات طويلة، والريح تزمجر، تقرع طبولاً أسطورية، والمطر يتساقط في وحشية، فيغمر السهول والبيوت المنخفضة، وتنام العائلات في أرضية المغارة، ويلهث السراج التتكي بزبالته، فيحفر أشباحاً غريبة التشكل في قعر الصخرة وتجاويفها العنكبوتية، وتصدى الأساطير المبثوثة في عقول الأطفال، برجع صيحات الأغوال، واستطالات القوة الخفية وراء الأزمنة العتيقة. أقشعر جسد المصلوب أمام هزات عنيفة في شعره الذي أمسك به رشيد مبارك وغدا يشده ليملصه من جذوره. هذا الشعر الفاحم الطويل الذي كان يتباهى به غيلان الجعفي أمام صبايا القرية وبنات هلوك الفارعات، وصرخ به مهدداً ومنذراً:

سأكشف سوءتك أمام هؤلاء النسوة ليبصقن عليها، وأدعك عارياً كما جلبتك أمك يتفرج عليك كل من في الحارتين، إذا لم تقسم باليمين المعظم على مزار جدي الشيخ اسماعيل بأنك لن تقترب من خضراء بعد اليوم، ولن تحاكيها ولو بهمسة، وإذا سمعت غير ذلك، فسأقتلك رمياً برصاص مسدسي هذا وأريح القرية من حشرة قذرة، ولدت في مزابل غويران الوطا. أصاب الرعبُ غيلان الجعفي حينما شعر بأنه سيتعرى أمام النسوة والجمع المتزاحم، ويبصقون على سوءته في عري قبيح، ويبقى معارة القرية إلى نهاية عمره، وقد نال منه هذا التهديد أكثر من سياط الجلاد. أحس بخجل كريه عصف به غثيان مهووس، تشخص أمامه العالم فئراناً جائعة تقرض بأنيابها مابين فخذيه لتقتل رجولته إلى الأبد، وسحقه أكثر من ذلك أن خضراء تجبر على ماتفعل النسوة والآخرون، أحس بيد رحمة تمسح الدم المتخثر عن فمه وجلده المشروخ في بعض جوانبه فأبصر والده بقمبازه الممزق وطربوشه المتسخ ذي الشرشوبة المقطوعة، يهمس في أذنه:

– لا تتردد. أقسم له يا ابني على ذلك، نحن معترون لا حول لنا ولا طول أمام أسرة رشيد بك مبارك. لا تيبس راسك، الفضيحة قادمة والنسوة يحضرن بصاقهن ليصمنك بعار يبقى طويلاً يرددنه على التنانير ويحكينه بجانب المواقد الشتوية.

انفجرت دموع ثخينة من مآقي غيلان الجعفي كانت متأبية على الانفجار، رغم الضربات المبرحة، وأدمته أكثر من قضبان الرمان، مظاهر الذل والمسكنة المهينة التي يتردى بها الجرود، والخوف الذي يعشش في عروقهم وتصوراتهم أومأ بالموافقة والقبول، وتقدم رشيد مبارك في زهو طاووس وقد ارتسمت على ملامحه علامات الفوز والانتصار، وفك عقدة الحبل، وأطلق يدي غيلان الجعفي من عقالهما، وزعق معتزاً بفوزه:

– قبل يدي ورجلي وبوس الأرض أمامي، فأنتم الجرود الذين تربيتم على فتات موائدي، ونتاج أرضي، لا تأتون إلا بالجلد والسوط والمهانة.

طغت خاطرة متمردة في ذهن غيلان الجعفي وحاول أن يرفض تقبيل رجليّ رشيد مبارك ولكن والده المسكين أمسك برأسه وشده إلى أسفل حتى لامست شفتاه الداميّان الجزمة العونية اللامعة وتركت خطاً أحمر باهتاً على أطرافها، وانهض غيلان الجعفي وهولا يقوى على الوقوف وأمسك به والده ابراهيم الجعفي وأيوب السارح من ذراعيه وقاداه إلى مزار الشيخ اسماعيل مبارك وهو يكاد لا يتوكأ على رجليه من شدة الإعياء والضرب الوحشي، وخلفهم حشد من الأهالي في مقدمتهم أحمد النقي شيخ القرية ومقيم الطقوس الدينية، وزلمة رشيد مبارك وكاسر رشيد مبارك الولد البكر، وحميد مبارك أخو رشيد وابنه يوسف المتباهي بقوته وعنفوانه والخاضع لتأثيرات عمه والموعود بالزواج من خضراء وهلوك الغاوية ذات السمعة الرديئة وابنها نادر الأعرج وسرحان الخليط وجماعة من الفلاحين من حارة غويران الوطا. كان الحشد يمشي متباطئاً وكأنه في جنازة، ليشهد قسم اليمين. وكانت شمس الغروب تلملم آخر شعاعاتها الصفراء عن رؤوس الجبال المغرقة في صمت الأعالي وتكفن هذا الجمع المعزِّج على المزار الثاوي فوق سرحة مرتفعة، بغلائل الغبشة، كأنها أبت أن تكون شاهداً على مهزلة بشرية، تتشكل في جانب شديد التخلف من هذه الأرض الملوَّعة، التي مازالت علاقة إنسانها، تهبط في مهاوي الوحشية الأولى، ومستقنع العبودية، وإذلال الإنسان لأخيه الإنسان بلا رحمة، في علاقة ذئبية تتآكل فيها القيم والنواميس العليا، وتسود شريعة الغاب، ويلغ القوي بدم الضعيف، كأن كل الرسالات السماوية، وصيحات المصلحين الإنسانيين، ذهبت أباديد، كصوت يموت في مغاور الزمن الغريب وفي جب الغرائز الأولى.

❐❐❐

الفصل الثاني

انكفأ غيلان الجعفي بعد هذه الحادثة إلى سراديب الصمت والإغراق، وراح يحفر في أعماقه أو جاراً من التأمل والقراءة المتواصلة في الكتب التي كان يمدُّه بها نبيل السواحلي والذي كان يسكن غرفة من غرف المدرسة المؤلفة من غرفتين إحداهما للسكن والأخرى للتعليم. كان موقع المدرسة بجانب الغابة الصغيرة التي تجثم فيها قبة الشيخ اسماعيل مبارك الجد الأول لأسرة مبارك، وعلى مقربة من القبة، أقيمت تكيُّه منعزلة يركن إليها محمود مبارك الصوفي النزعة الذي آخى بينه وبين الجن، واعتزل عالم الزوال، بعد أن ساح في البراري، وخالط كما تزعم الروايات الفلاحية الأشباح النورانية والأصوات الخفية، التي يسترق منها السمع والمناجاة المشبوحة في الليالي العاتمة، تحت ظلال الصنوبر، وقد حكى عنه الفلاحون في جوبات الشعرا أنه كان يستحم في العتمة عارياً عند نبع الصفا وينادي أشياء غير مرئية، ويربض مثل صخرة، فوق مطلات الأودية وتعتريه نوبات الصرع، وتزبد شفتاه ويُلوِّح بيديه في فراغ مجنون، ثم يعود إلى حاله الطبيعية، كأن شيئاً لم يحدث. كان غيلان الجعفي يراقب الشيخ محمود مبارك في هدأته، وتطغى عليه تساؤلات عما يدور في رأس هذا الشيخ الغريب الأطوار الذي عاف مملكة الدنيا، وترك لأخيه المتسلط رشيد مبارك الأملاك الواسعة والأراضي الممتدة، ولم يبق له إلا حاكورة المزار، وغرفة صغيرة لها باب شمالي وتكية على شكل جامع مربع دون مئذنة، تسكن الغرفة امرأته العاقر زليخا المهلوسة مثله، التي لا يعلم عنها أي شيء قبل مجيئها منذ عشرين عاماً، من احدى القرى البعيدة، وتوطنها في غويران الوطا، وتصرفاتها المريبة التي لقيت انسجاماً مع عقلية صاحب التكية وتقلباته المفزعة، وكان رشيد مبارك يؤمن لأخيه الشيخ مؤونته ولباسه مقابل تنازله عن الأملاك وكانت للشيخ محمود مبارك حالات خاصة، يصعب فهمها، يبزغ فيها الصفاء وحسن المعاملة للتلاميذ الفقراء الآتين من القرى البعيدة إلى المدرسة، إذ كان يلاطفهم ويجلب لهم الخبز المغموس بالزيت، وفي الحالات المعتكرة يتلبسه شيطان، ويُظهر أقسى ضروب العنت

والقسوة، ولا يُفهم مايجري من تقلبات هوج في قحف ذلك الرأس الكبير الذي يعتمر طربوشاً أرجوانياً، فوقه شاش يبدو ناصعاً أحياناً وشديد الاتساخ أحايين أخر. وتروي حكايات القرى، أن الشيخ محمود مبارك كان يتميز في غابرات أيامه بعقل راجح وثقافة دينية واسعة، ولكنه وقع من رعش جبلي على رأسه، عندما كان يطوف في الجبال لاصطياد الغزلان والحجل، فحدثت له رجّة في دماغه، وضعت بصماتها على سلوكه، وغدا يذهب في غيبوبة الصرع، فيهربُ منه الأطفال، وصار يحُسُّ بقدوم هذه الأوقات الخاصة، فيلجأ إلى تكية لا يخرج منها إلا بعد أيام، أو يُسرع إلى المغارة الكائنة وراء الجبل، يتحنث فيها أيام الصيف والخريف ويشربُ من اليبنوع ويلتقط "ثمر" البلوطة الهرمة ويأكل منه ويصحب معه زوّادة تكفيه زمناً، وقد تألم لما جرى لغيلان الجعفي، لأنّ رابطة خفية تشده إليه، ترجع إلى سنين قديمة، حينما كانت وطفا أم غيلان الجعفي في ريعان فتوتها صبية مغرية، ينظرها الشيخ محمود مبارك أثناء احتطابها من الغابة، ويساعدُها في جمع الحطب، ويغمره عُريها ذو الرائحة الغريبة التي كان يتندر بها في حالات سكره، ويتمتم أسفاً على ماضي حياة، ذهب ولن يعود، ولم يدر غيلان الجعفي سرَ هذا العطف الذي يكنُّه له هذا الشيخ، وخاصة أن حادثة الصلب والتشهير به، تركت في أعماق الفتى ندوباً وكراهية ينزان حقداً على عائلة آل مبارك، يبقى كل فصل الخريف يتجنب التكلم مع خضراء التي كانت معه في غرفة المدرسة، غير أنه كان يهيم في مروج عينيها الخضراوين وتبهره سمرتها المتألقة، التي تنضحُ فيها روح الصحراء اللاهبة، وبخدها الأسيل الذي تسبح فيه شامات ثلاث، تقودك إلى لهفة العناق وحنين اللمس المدله، وخصرها الأهيف المتكسر في مشيتها، كأنها نخلة متأودة في بداية عمرها. كان كلما أبحر في رؤية عينيها، ساقته أحلام المراهقة إلى جزيرة منسية في المحيطات الدافئة، واكتسحه شعور غامر بأنه لن ينال منها إلى بالحلم، فطاسة حارة تدفئه وطاسة باردة تجعله مقروراً في الخواء، وينسرب إلى وجاره الخائب كخلد يحفر سرادبه، يجتر في صمت الخيبة كلَّ أوهامه. كانت المراقبة شديدة، والتُّرصد إزاء أي حركة منه، فيَغَض الطرف حينما يرى أحداً ينظر إليه، حتى الطرف ممنوع عليه، البراكين تغلي في داخله، وبنات الشوق يحنن ظامئات إلى لحظات من اللقاء المنفرد.

لم يبق أمامه، إلا أن يبرز في الدراسة ، ويتفوق على أقرانه. وهبته الطبيعة عينين جميلتين فاحمتين نجلاوين، يلمع فيهما سراب شاعري، وحاجبين مقوسين كثيفين كأدغال الجبال المنيعة على الاحتطاب، وجبهة عالية ترود فيها قابلية إمكانات ذهنية، ويغطيها شعر أسود، كانت كل ملامحه تنم على فرادة، وجهه

الحنطي الذي تشوبه حمرة خفيفة. شفتاه الذابلتان الرقيقتان، أنفه الأقنى ذو القسّمات اليونانية، الذي ورثه عن أمه، حتى أنه بمجمله، كان صورة عن عمه يونس الجعفي الذي قتله الأتراك رمياً بالرصاص مع أخوته، وقذفوا بجثثهم في ديسة شائكة خلف هذه الجبال، بعد حرقها تحولت أجسادهم رماداً ثم قبوراً، وصفائح مصقولة، وشواهد من الرخام الأبيض، تبرز من بعيد، وكأنها مناراتٌ توحي بأن ليلاً من الظلام والطغيان خيم على مسالك قرون من الهمجية. ورغم أن جسد غيلان الجعفي كان يميل إلى الهُزال والنحافة فإنه كان متين الأعصاب قوي العضلات، زاده التحدي انشداداً وتحفزاً، كان يقضي معظم النهارات مع معلمه نبيل السواحلي، يشعل له النار، ويشقف له الحطب اليابس، ليصطلي به في الوجاق الريفي، ويؤمن له مؤونته من غويران الوطا، ويجيء إليه بالبيض البلدي والسمن والحليب، ويلتقط له ثمرات البلوط كستناء الفقراء، وكان شتاء غريبٌ لم يمر مثله منذ خمسين عاماً كما تقول عجائز القرية. مَسَحَ الآفاق بالزمهرير العاصف، استحالت فيه الأرض صقيعاً يابساً، وغدا التراب جامداً كصفحة بللورية شديدة الانزلاق وانقطعت الدروب ولم يعد غيلان الجعفي قادراً على الرجوع إلى بيته، إذ داهمه الزمهرير وحاصرته عناصر الطبيعة الهائجة بعيد الغروب فطلب منه معلمه أن يمضي ليلته في غرفته وبجانب التكية، كانت البرودة تقضقّض العظام وتنخرُ في الأوردة، والليل زهرةٌ سوداء، ترتجف في العراء الجبلي، والريح طبولٌ رجوجيةٌ تولول في العالم الخارجي، والقنديل ذو الزجاجة المكسورة في الأعلى، ترتجف ذبالته أمام لهاث الريح حينما ابتدر المعلم نبيل السواحلي قائلاً:

– هل لي أن أبثك حقيقة كنت أخفيها عنك، أثأر لك من آل مبارك؟

جحظت عينا غيلان الجعفي، التمع فيهما وميض راسب، بانت على ملامحه آيات التعجب والاستغراب، وهو الذي رأى بأم عينيه أن معلمه لم يُبد حراكاً أثناء ربطه إلى السنديانة وجلده، وأردف:

– إن الغريق يتمسك بقشة. حقدي على طاغية آل مبارك يغلي مثل البركان الذي أخبرتني عنه بأنه كان مشتعلاً في الأدوار الجيولوجية الأوّلى وانطفأ تاركاً حممه، أما أنا فمازالت حممي مشتعلة في قلبي..

درج المعلم نبيل السواحلي سيجارة من علبة صدئة، وأشعلها من ذبالة السراج، وتكوّم حول الوجاق على بساط حائل، وأمر تلميذه أن يجلس بقربه،ويشعل النار بالحطب اليابس، ونفث عدة نفثات من سيجارته، وتعالت أبخرة نارنجية لها مذاق الدخان الجبلي الذي تنتجه حواكير القرية، وعبير الصنوبر الذي يُعلق

بأغصانه الدخانُ الأخضر، ليجفف بوقدة الصيف ويمتص رائحة الغابات الغافية في جوبات الشعرا، سافر بعينيه وراء فحمة الليل الزمهريري، غاص بمخبآت الآتي النضالي والمعوقات الشرسة التي تنتصب في دروب الحياة المقبلة قبل الوصول إلى تحقيق الأهداف السامية التي ربط بها نفسه برباط مميت لا تنفصم عراه حتى آخر عمره، وهمس قائلاً: في ذروة الشدة، وبؤرة العاصفة، ولد حزب ثوري السمات عربي النزوع، حمل على كاهله رسالة العودة الى التاريخ، وحرق جسور التخلف وإزالة رواسب عصور الانحطاط وتحطيم نير الفقر والظلم والجوع عن المسحوقين ونسف التخوم الإقليمية وقد ارتبطت بمبادئه رباط الجنين برحم أمه. سرح غيلان الجعفي في وقدة النار الملتهبة،في الأثفية."الوجاق" غاص في جمرات حمر كانت ترمي شرارات لا معة مع عواء الريح، وترسم استطالات شبحية متراقصة فوق الجدار، تنقل الرائي إلى مغاور الأساطير العتيقة. وغمغم قائلاً:

– معنى هذا سنغرس البذور في تربة الفقراء والمرابعين، وتتوالد الأجنة الجديدة في أذهان المعترين في حارة غويران الوطا والقرى المسحوقة وربما لا تثمر في جيلنا هذا، وسنجازف بالحاضر من أجل المستقبل.

ارتجفت شفتا المعلم نبيل السواحلي والسيجارة في فمه ارتجافاً قلبياً، وأوغل بناظريه في الجمرات المزغردات في الأثفية، وران صمت متأمل،وراح غيلان الجعفي يتأمل معلمه كأنه يراه أول مرة، تزحمه ملامحه المعبرة، عينان عسليتان ثاقبتان، شعر خرنوبي ابتدأ الصلع في مقدمته، ينحسر عن جبهة عريضة سمراء فوقها ظلال أفكار وتوجسات بعيدة، أنف ضخم تبرز من كوتيه شعيرات دغلية، ينتهي بفم حزين، ارتسمت فوقه انقباضات إرادة، برزت الوجنتان كأنهما صخرتان محفورتان بجبل عظمي. اشاح بنظرته عن تقري ملامح معلمه وسمرها بالحوّار المتآكل الذي تشقق عن الجدار، فظهر كأنه تضاريس خارطة قديمة العهد، انطفأ السراج من هول ندب الريح في الوجاق الصاعد إلى السطح وتفننت النيران الهاربة في رسم تلاوين بدائية، وشخصت في ذاكرته صور السنين الماضية، يوم كان المطر يطوف على سطوح البيوت الطينية، فينسرب إلى سيباط المنازل، ويبلل المؤونة من البرغل والطحين، "وسدونات" التين اليابس، وتسبح المواعين والفرش في سيلات الوكف، وتعمُّ الظلمة زواريب الحارة المنخفضة، ويدب الرعب الكوني، خوفاً من مستقبل جوع قادم وخشية على الصبيان الصغار الذين كانوا يرتجفون من البرد والصقيع والوكف مثل قطيع من الماعز، دهمته العاصفة الثلجية فوق منحدرات جبال الشعرا وجعلته لا يدري إلى أي اتجاه يسلك. مزق حجب الخواطر الداخلية صوت المعلم نبيل السواحلي وهو يقول:

– حقاً سنجازف بالحاضر من أجل بزوغ فجر جديد، وقد لا يطلع هذا الفجر في زمننا بل بعد موتنا، وربما سيقطف أحفادنا ثمار عطائنا الصامت. الليل طويلٌ، وركاماتُ عصور الانحدار مازالت تغلفنا بمفهوماتها الصمّ، القدر المُصلت على رقابنا وأرواحنا ينثر خوفاً غيبياً على مصائرنا، غايتنا أن نثقب كوىً للنور والتقدم، وقد نتحطم ولكن لن نهزم أبداً... وأشعل سيجارته من جديد، بعد أن أطفأها رذاذ بلل خارجي انسرب من الوجاق الطيني، وشرع يفرقع بين الأغصان المحترقة، قُرع الباب الخشبي قرعاتٍ متشنجة أذهلتهما. نهض ، نبيل السواحلي، أزال المصراع الحديدي من خلف الباب وفتحه. شخص شبح الشيخ محمود مبارك من وراء العتمة، ونادى كأنه في العراء الجبلي:

–لا أطيق زمجرة هذا الليل القطبي وحيداً، نامت امرأتي المهبولة، لا يطيب شرب كأس العرق إلا مع صوت أنسي، كرهت مصاحبة الجنيات المشرورات في قحف رأسي، إذا لم تأتيا إليَّ سأكسر هذا الباب وأترك الزمهرير يعضكما بأنيابه البيض.

وانكفأ راجعاً الى تكيته، وأشار المعلم إلى غيلان الجعفي موضحاً:

هذه أوقات الصحو الشديدة التي تعبقها نوبات الصرع. أصبحت أعرف سلوكه في كل دقائقه، العالم الإنساني يتلبسه في تلك الأوقات، يعانق كل شيء، تنهمر أمطار التعاطف من بحيرة لا شعوره، قبل أن تصطخب شطآنها بجنون الصرع وطفو الزبد، هلمَّ قبل أن يعود ثانية ويكسر الباب.

يتبدى العالم الخارجي في أقصى عريه الغاضب، ظلالاً غريبة ينثرها القمر الشتوي فوق سفوح الشعرا. وغابات كريستالية تلمع تحت بصيص نوره الشاحب كأنها منافذ كهوف مسحورة يضرمُ بها الجنُ مواقدهم وقرابينهم، فتخرج لمعات منها إلى المسالك والشعاب الليلية، والريح تُعْوِل، كأرغونات اسطورية في بحار الشمال، رغم أن السحاب الكثيف نام على أكتاف الجبل، وعادت السماء القديمة إلى صفائها، وانقطع وابل المطر، وتشكلت لوحات الأساطير الأولى بين الفجوات والحنايا الصقيعية، وكان "غيلان الجعفي" مبهوراً بهذه اللوحات التي ترسمها الطبيعة الجبلية، مختزناً بمخيلته المتفتحة روائع التلوينات الطبيعية. كان باب التكية مفتوحاً، وفي الزاوية الشرقية، التمعت نار مشبوبة في "وجاق" ريفي، طين برسوم بدائية، وانطباعات أصابع معروقة، غاب أصحابها وغادروها، بقايا من القش الأصفر والطين. لم يتجرأ غيلان الجعفي منذ عشر سنوات أن يدخل هذه التكية. كان ذلك في رفقة أمه "وطفا"، يوم كان صغيراً، تشرَّبت عيناه كلَّ

مرتسمات التكية لما دخلها تحت جنح هذا الليل، المكتبة الخشبية التي تبرز في الزاوية الغربية وقد اشرأبت منها الكتب الصفر والمخطوطات القديمة، السرير الحديدي ذو العرائش وقد اعتراه الصدأ، الطاولة الواطئة، "السكملة" التي يرتاح الشيخ بالأكل عليها قريباً من الأرض، الكراسي القشية من نبات "السعدي" وخشب التوت الورسي الصفرة. وكان الشيخ قد قسم التكية الواسعة إلى غرفتين الأولى كجامع صغير لا يؤمه أحد ليصلي به إلا في الأعياد، والثانية خاصة به يلبث فيها، وينفصل عن امرأته "زليخا"، التي تنام في الغرفة الشمالية وحدها. فحياته المتقلبة، ومسارُ سلوكه الغامض، وسرحاته في الشعاب، جعل امرأته تخاف أن تنام معه في غرفة واحدة، فتضرعت إليه أن يقسم التكية إلى قسمين بجدار من الحجارة السميكة، وأن يعيش لياليه مايحلو له، ولولا خوفها من "أخيه رشيد مبارك" لهجَّت منه إلى القرى البعيدة، لأن النداءات التي تسمعها أحياناً، والمخاطبات المجهولة التي يسوقها زوجها في صمت الدياجي وحيداً، خلقت فيها رعباً كافياً، ماخلا أيام الصحو المُتَسِمَة بالرضى والإنسانية واحتضان كل شيء. استقبلهما الشيخ محمود "مبارك" استقبالاً حافلاً بالمودة والتقدير، حتى أمسك بيد غيلان الجعفي، وأجلسه بجانب نار الوجاق ووسّع مكاناً دافئاً للمعلم نبيل السواحلي، وأتى بقرمة ريحان يابس وأطعمها للنار، وتعالت زغرداتُ الاشتعال، وانتشل من تحت السرير ألفية من العرق المقطر من عنب الأودية الغافية تحت أقدام جبل الشعرا حيث تكثر الأعناب، وتقطرُ خفيةً في الأماكن المهجورة، ويضاف إليها اليانسون وتسّحَبْ مرات عدة، وكلما سُحِبَت بواسطة "الكلكي" طاب طعمها وزاد ثقلها في الحلق، وتفشت نشوتها في العروق، صبَّ كأسين من العرق المسُلَّس، وطفت حبيباتُ فضيةٌ فوق السطح، وتوهجت بانعكاسات نار الأثفية، وانتشرت روح الكروم،ومزجها بصبات من الماء البارد من كوز فخاري، وانتفض ضبابٌ جبلي، وفار في قلب الكأس المزبدة.

أحس غيلان الجعفي بأنَّ ضبابة تجتاح مخيلته، وتقوده إلى تراجيع طفولته، يوم كان صغيراً، يحتطب مع والده في الغابة، ويجمع القُرَم لليالي كوانين دهمهما الضباب مرة وغاب عنه والده، وغدت المشخصات أغوالاً مشبوحة، وانتابه هلع غريبٌ، وصرخ مستغيثاً كأنه في دوامة نهر هائج، أسرع والده إليه، احتضنه وافرخ من رَوْعه، وظل الضباب بعد هذه الحادثة، يزحف إلى مخيلته، وينشر جناح طير الرَّخ في حكايا (ألف ليلة وليلة). أخرجه من نَزْفِ خواطره، نداء الشيخ محمود مبارك وهو يترع الكأس حتى الثمالة:

–روح الكروم تنفذ إلى كياني، تخلق فيَّ دوافع صوفية لاحتضان العالم.

يطيب لي الشرب وأنا عارٍ في غابة الشعرا بجانب جدول ماء رقراق، في صبحيات نيسان الغرير، أتشمس وأترع الكأس حتى أُغَيَّب، وقتئذ تسكنني فرحةٌ شبيهة باختلائي بامرأة غريبة، وسط تلك الجوبات المنعزلة، كم يصيب الخوف المارين هناك، وخاصة النسوة اللواتي يحتطبن من الغابة عندما يريننني أمارس طقوسي العارية، وأشرب الكأس وأستحم بروح الكروم في سكرة الإحساس الخاص.

درج من علبته سيجارة وأعطاها للمعلم، ولف ثانية ودسّها في فمه، أشعلها من طرف المحراك المتوقد، وأمرهما أن يسكبا الكأس حتى الثمالة في جو فيهما؛ لأن ذلك بداية الطقس التصوفي حسب تعبيره، واعتراهما الخوف من هذا الطلب، لكن نظراته اللاهبة قتلت إحجامهما، وانسكبت الكأسان في الجوفين. شعر غيلان الجعفي الذي لم يتعود على تلك الحالات الخاصة بنار خفيفة تسري في داخله، تلاها دفءُ انشراح، انكشف عنه خجله، غدا يبرق ذهنُه، وامتلأت الكأس ثانية، ارتشف الممعلم نبيل السواحلي رشفات مسموعة وهمس قائلاً في موارية:

– أتمارس هذا الطقس الصوفي كما تقول، منذ زمن بعيد يا شيخ محمود! أليس هذا منكراً، وقاتلاً لصحتك وتوازنك؟! وخاصة أنت من أعيان آل مبارك وشيوخها المعدودين.

قهقه الشيخ قهقهات هستيرية، واستلقعلى قفاه من الضحك، والتمعت في عينيه الزرقاوين سحابةُ برق وارتجفت شفتاه بشكل ضارع، وتقلصت أصابع يديه بهيكل مخلب قط يريد أن ينقضَّ، خشي المعلم أن تكون تلك المظاهر بداية الصرع المأزوم، استرد الشيخ هدأته، غابت عاصفة ملامحه الغائرة ، تراجع كحمل وديع إلى طبيعته، شد لحيته الطويلة التي غزاها الشيب، كشف رأسه عن طربوشه المحاط بشاش أبيض دلالة المشيخة، انحسرت جلدة رأسه المحلوقة على الصفر، اتكأ على مخدة وسخة بجانب الطاولة الواطئة، ومصّ حوافي الكأس، كأنما يداعب شفاهاً خمرية،وسرح في البعيد، ليتذكر خيطاً من الذكريات المحفورة في تربة الماضي وهتف بصوتٍ متحسر:

– كان ذلك منذ ثلاثين عاماً، الشباب تنور جبلي يفور، الجنس يتنزى مني كثيرانٍ في موسم التلاقح، جسدي، جذع شجرة الشربين يهزأ بالصخور من متانته. نسوة القرى يلاحقنني ليتوحمنَّ عليَّ، لعلهن ينجبن شبيهاً بي وطلباً لمراودتي. كان الصيد حلمي، شهوتيّ إلى اقتناص أي شيء، نسوة، غزلان وطيور، تسري جمراً في عروقي، العالم ملك يدي، جاه وغنى وشباب، كانت بنت العنقود محرمة عليَّ، كما تعلمت من الحكمة القديمة (الخمرة رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه).،

أوغلت مَرَّة في دغل كثيف، نفرت غزالة لم أشاهد في حياتي أجمل منها، بيضاء مشرَّبة بخطوط رمادية، لها طلعة آنسة في بداية تفتحها، تبعتها، كانت أرشقَ مني بين الصخور، زاحمتها في مكان لايبين ماخلفه، أسرعتُ في قفزي، الصخور حريرية الملمس، نعناع بري أفعمني، انزلقت قدمي، هويتُ من أعلى رعش صخري، سقطت في السفح المنحدر، كسرت رجلي، وقعت على رأسي، لم أدرِكم بقيت مغميًّاً، عُثِرَ عليَّ مطروحاً، رأسي ينزف دماً من الخارج، رجلي جُبرت، ولكن مابداخل رأسي لم يجبر. أشعر منذ ذلك الوقت أن شخصين يتعاركان في تلافيف دماغي؛ أحدهما شديد الصحو، يقودني إلى المألوف وحياة النمل، والآخر يحب الطفر في اللامكان، إني مسلوب الإرادة إزاءهما أتفرج عليهما في غرابة، وأخفف من حدة صراعهما، بترع الكؤوس وسريان روح الكروم، واقتفاء آثار المتصوفين المسحورين في هباتهم وسرحاتهم الخاصة. أغلق كلٌ مغارتَه، خيمت سكينة متأملة، خفت صوت الريح في الغابة الكريستالية، غرق الشيخ محمود مبارك في أوجاره النفسية، راح يترصد فوّارات الذكرى في أعماقه؛ صورته في ريعان شبابه، يطارد نسوة القرى اللواتي يحتطبن من الغابة الكائنة وراء سفوح الجبال، ينشرن رائحة ذات مذاق مثير، يشمها الشيخ محمود عن كثب، وينقلها الربيع إليه نزوعاً إلى التأرجح فوقهن على مرجات االعشب النامي وراء المنعطفات والخلوات العجيبة، وتقري تلك البرازخ الجسدية في ذروة الاشتهاء، وإغماضة اللذة، وهبت كوثر من بينهن جميعاً فوق رماد ماضيه، فتاةٌ في السادسة عشرة من عمرها ترعى عنزاتها؛ النهدان مكوزان في بداية تفتحهما، زغبها الحريري، طعم جسدها الفائر، داهمها في الوادي، حمامةً بيضاء، كل تنانين الاغتصاب التهبت في أقاصي عروقه، الحمامة كوثر ابنة أحد الفلاحين، اختلت بجسمها، تركت عنزاتها على هواها، غدت تتأمل عريها الغاوي في غبطة، تحت وقدات شمس أيار الدافئة، وتُقَلي قميصها من البراغيث السود التي كانت تتكاثر في الصيران وبين روث القطعان. اختبأ وراء صخرة دهرية، أوغل في رصد عريها، تقرى كل حنايا جسدها في نشوه الاختلاء، غابة ملتفة الأشجار، صمت الأعالي، لا تقطعه إلا زمزمات نحلات برية، قرقرير معدني يتصاعد من الهوات السحيقة، حركة النماء تهسهس في داخل الأشياء، اعتراه شعور غابي، فار التنور، انقض على الحمامة المراهقة، افترسها في عنوة، سحق براعمها البكر، انتشر قرمزها القاني فوق المرجة، سحرته إغماضتها المصلوبة مابين ذروة النشوة وذروة الخوف، واعدها أن يتزوجها، اعتاد جسدها على الاختلاء، أثمر جنيناً، راح ينمو في رحمها، وأخلف وعده بالزواج منها، لم تطق صبراً على الفضيحة، رمت بجسدها (الخائن) من أعلى الرعش

الصخري، وابتلعتها الغيران والصخور المدببة، تناقلت القرى أسباب انتحارها، ورأى بعينيه أعضاءها المهشمة ولحمها الممزق. لوّح بيديه في زاوية الغرفة، ليبعد عنه الأشباح الحزينة، وهرع إلى الألفية، وحاول أن يدلقها في جوفه، ليغيِّبَ كائنات تتعارك في داخله.

وأقعى كذئب مجروح قرب الوجاق ووضع كفيه فوق عينيه، غاص في التأمل، مقلباً صفحات من تلك الأطلال والذكريات القديمة. موصداً باب كهفه من جديد. تناغم المعلم نبيل السواحلي، مع مناخ التأمل، أبحر في موجات الماضي ومساراته، تراءت له في المخيلة انطاكية وبساتينها، نهر العاصي ينساب خيوطاً فضية بين الخضرة الغامقة، وأفعمته رائحة الليمون وعبق الأزاهير، انتفضت أمه من رماد السنين، بمنديلها القزي المطرز بنمنومات زاهية الألوان، الوجه المغضن الذي جرده الزمن من نضارته، قسوة اليتم الذي عاناه بعد وفاة والده. أمه قارعت الخطوب مثل فلاح عنيد، سنبلت في حقول القمح، سقت الأرض بعرقها، ركشت تحت وقدة الصيف الحارق، اعتصرت التراب ثماراً، ونباتات فصلية كانت تبيعها في سوق انطاكية لتُؤّمن له أن يتعلم في مدارسها. طغت حكاية اللوائي الذي صرخ قبل أن يلفظ أنفاسه سجلوني عربياً، وانساب شريط مأساوي في مخيلته، المدُّ المغولي الجديد استوطن دار الأسلاف العرب، وامتد إلى الجذور التاريخية محاولاً اقتلاعها. المعلم التركي دخل الصف أول مرة، هدد كل تلميذ يتكلم العربية، بالطرد والعقاب. الجدران الصفر ذات العيون الخزرية حاصرته، فراغ بلون الظلام تأكله، قيمه الموروثة عن مروءة الصحارى، راحت تتأقزم، لم يقدر على التكيف والتعلب كرقم أصم، غادر المرابع الأولى، ومطلات انطاكية ومروج الزيرة وبساتينها، قذفه القدر معلماً مع لفيف من أترابه، واستقر في قريّة غويران المزار بالقرب من منحدرات الشعرا. توقف في تلك السرحات، عند جسد يحتضر، لم يدر لماذا تسلقته صورة أمه. رآها في أرضية بيته خلف الحدود طريحةً، تتضرع إليه، بعد أن رفضت ترك الأرض التي ترعرت فوقها، ثقبه من الداخل وجهها المكفن بصفرة الموت، نداءٌ بلون الهاوية يتناهى إليه: (أين أنت يابني لتساعدني في احتضاري؟ عزرائيل يمدُّ يده إلى رقبتي ليقبض روحي، أنا وحيدة، آه آه يانبيل!). انتفض المعلم نبيل السواحلي كالمقرور. لسعه صقيع الأعالي، أرعبته النداءات المبهمة، أحس إحساساً غريباً أن أمه تحتضر وحيدة تحت سقف البيت البعيد، أمسك محراك النار، وراح يشق الرماد، يحدث خطوطاً متوهجة، انعكست على وجهه ضراوة حزن غير مجرب، وتقطرت ملامحه أسى واعتصاراً فوق كلاليب الطاحونة الوثنية، والتقط غيلان الجعفي معنى ذلك الاعتصار، وهمس قائلاً:

صورة مأساة، انعكست على وجه، حملتني إلى خوف غولي، يوم كنت ولداً أرعى عنزاتنا في الجوبات الغائرة، ويصيبني النعاس فأنام تحت أفياء البلوطة الهرمة، وتغيب الشمس، وراء الجبال الغربية، وتحل العتمة قبل أوانها، فأستفيق وكأني في عالم مسكون بالأشباح والغرابة، فتصيبني رعدة من خوف غامض، ذكرتني ملامحك به...

شعر المعلم نبيل السواحلي بكابوس فوق صدره، ودلق الكأس في جوفه حتى الثمالة،وأردف قائلاً:

– لم أفهم لماذا تداعت إليَّ صورة أمي تحتضر، تتخبط ضارعة إليَّ من الأبعاد، لأعينها في غروب حياتها، سبع سنين مرت، ولم أسمع أيَّ نبأ عنها، انقطعت حبال الوصل منذ هجرتي من اللواء السليب، نأت الدار وذكرياتها وتمخضت عن رؤى أمي تموت في القفر التاريخي.

سرَّح الشيخ محمود مبارك نظراته في الفقاقيع الطافية فوق كأسه، قشر بذور الكوسا المجففة، رمى بقشراتها في النار وابتلع لبها، وارتشف رشفات مسموعة وصرخ في انفعال:

– إيماني بالحاسة السادسة لا يتطرق إليه الشك، قلوبنا تحدثنا عن مصائب مترصدة بنا، وتقع حتماً، قرأت في كتب التصوف أن من تشف روحه يعانق الوجود، ويذوب فيه، يرتفع عن النظرة الدودية المحسوسة ويصبح مثل الباشق يحلق في الجو، ويرى أدق الأشياء تتحرك تحته. وتروي الحكايات الشعبية أن الشيخ صالح الشعراني الذي اتخذ ريحانة نبع الصفا سكناً له، كان يتنبأ بمخبآت المستقبل، ويتبصر من يأتيه ليتبرك به عن بعدمسافة ثلاثة أيام، ويناجي شخوصاً لا يراها غيره، وتحكى عنه المعجزات الخارقة، ومازال حوشه ماثلاً هناك، لا تطفئ أقوى الرياح ذبالة سراجه التنكي الذي يملؤه أهل القرى بالزيت، تبركاً وخوفاً من عقابه، والموت حق مكروه، وأمك وراء الحدود، وكل شيء مصيره للزوال.

نهض إلى الدمجانة الموضوعة في نافذة من الجدار السميك، وفتح سدادتها الخشبية، وفاحت رائحة العرق المتخمر، وملأ الألفية منها، وأترع الكؤوس ورفع نخب مسامريه. وكان الصحو الذي يسبق العاصفة يرين على سماته، عيناه الزرقاوان مثل قاع المحيط، يتألق فيهما بصبوص غريب، شفتاه الغليظتان تتزوان بالشهوة الكلبية، تذكران بالفتحات الداخلية لامرأة لا ترتوي، أنفه المقوس إلى الأمام، كمخلب نسر يتهيأ للانقضاض على أفعى ترصدها في الهواء. سرى خدر لذيذ في شروش غيلان الجعفي الذي لم يتعود على تلك السهرات الطويلة. تدفقت

أحلام من كواه النفسية. خضراء مبارك بجانبه يبوح لها بحبه الأول في ظل الصخرة التي سماها صخرة الحب الخائب، تشرقه رنواتها الخضر، وتجعله يرتطم بالقاع، من بحيرته الخفية، تجلده بمرآتها، اللعس العنابي في شفتيها المحرمتين عليه يلمع كفلقتين حمراوين "لطاب" تين شديد النضوج، الشعر الليلي المنسرح فوق خد أسيل، السمرة الصحرواية العجيبة التي تنقلك إلى واحات الجاهلية الأولى كل هذه الأشياء البازغة، مع استحالة الزواج منها أو الانفراد بها، تشربَه شخص سيزيف المكتوب عليه العناء الضاري بحمل الصخرة الأسطورية من قمة الحلم إلى قاع الواقع المرعب. عقدة خوف من الخوف تكونت في تلافيف دماغه، صوار باب حديدي صدئ ينّق في مسامعه، دوائر الأفاعي الرقطاء تراقبه. وشاية واحدة كافية لأن تقتله مجلوداً بالسياط، وتهجر عائلته من القرية، وترمي بالمؤونة إلى طرف الزواريب. أخرجه من كوابيسه الحلمية ذات الايقاعات الهمجية، نداء الشيخ محمود مبارك يزعق صارخاً:

–قوموا نرقص الدبكة، حلَّ وقت الحركة، هات شبابتك ياغيلان وأطرد الروح الثقيل، واجعلنا نشفَّ مثل البلور النقي، العالم كله في قبضة يدي. ليت وطفا أمك هنا، رغوة جسدها القديم، تلاحقني ببياضها، كل صبايا الماضي يمرحن في شراييني.

نهض مثل شاب في فتوة عمره، كمش بيده المعلم نبيل السواحلي راح يُوقع خطواته على لحن الشبابة، يترنح في دبكته يمنة ويسرةً. غيلان الجعفي أبرع من ينفخ في القصب، غدا يبدع بتنويعات الايقاعات ويتلوى مثل درب جبلي بين الأحراش، ويلهب ثقوب الناي كل أشواقه وخيبته، ويقطع الألحان بمواويل منها ذوب الحنين والرعشة إلى حلم مهيض وأمل خائب لا رجاء في تحقيقه:

يالقاعدي بالقمر وغيم السما لحافك
والنجم صارلك كَمَرْ تيضم أعطافك
طلتِ وطال الهجر ولا حد عدا شافك
يارب نسمة هوا ترجِّع حبيبي ليا

ظلت المواويل الشعبية، وبحة الشبَّابة الحزينة، ورائحة المجمرة البخورية، التي أراق فيها الشيخ محمود مبارك كل مالديه من مدخرات المزار، وعبق الألفية من العرق المسفوح، كلها تصدى في قلب ذلك الليل الصقيعي، حتى طفا الزبد فوق فم الشيخ، وحلَّت نوبة الصرع، وارتمى الجسد، يتخبط بالأرض، وقد تلبسته غولة غريبة من القرون السحيقة، ورفت وطاويط غير مرئية، وخبت جذوة النار في

الوجاق الريفي، ولاذ المسامران بالفرار، حتى لاتحفر في ذاكرتيهما تلك التخبطات نهاية الضعف الإنساني، والتّردي إلى أسفل السافلين من المسكنة والمذلة، وحتى لا تذبل كل التماعات تلك الليلة المعهودة، ارتمى كل منهما في فراشه، محاولاً أن يفتح كوى مشرقة على مستقبل أكثر إغراقاً بالحدوس المتفائلة، والأحلام الوضيئة التي تحوكها المخيلة لتُقلت من شراك الواقع، ونظرته السكونية الراسبة في مستنقع الجمود، وتحجر القيم، وصنمية التقاليد والأعراف، وخنق المعنى الحقيقي للإنسان المعاصر.

❐❐❐

الفصل الثالث

الشتاء الشيخ مشى بعكازته البيضاء، نشر ثلجاً كثيفاً فوق بيوت الدفش في حارة غويران الوطا، الرياح الذئبية حملت طوفاناً من المطر، الذي لم يعهده من قبل سكان هذه النواحي. "سرحان الخليط" الذي نيَّف على السبعين من العمر لم يشهد شتاء مرعباً كهذا الشتاء، مجاري المياه، استحالت سواقي طافحة، جرفت معها الزروع، وبيوت الفلاحين انسلخت عنها طبقتها الطينية، وانسكب الوكف من البيوت البلانية، وجرى فوق المداميك السود، فأرضية البيوت صارت حفراً من الطين الذائب والوحل، والمؤونة التي ادخرها أصحابها منذ الصيف، أصابهاالتلف، "سدونات" البرغل والطحين طمَّها الماء، عنابر التين الراكنة في الزوايا، انسرب إليها المطر وجعلها مثل وحل معجون. حتى قطعان الماعز وبقرات الحارة ألمَّ بها الجوع. صار الجميع يزحفون إلى غابة السنديان ليمرشوا أوراق الشجر ويطعموها لحيواناتهم، أو يملؤوا بطونهم أحياناً، عمَّت النكبة كل شيء، الليالي استطالت كالأبد القطبي. حظيرة أيوب السارح طبَّقت على قطيعه من الماعز والبقر، واختفت تحت ركام الطين والخشب، تزاحم أهالي غويران الوطا في عمق مغارة "التمر"، وانحشروا مع مواعينهم وفرشهم وبقايا مؤنهم التي أمكن إنقاذها وأصبح هذا التجويف الصخري المستطيل ملجأهم الأمين طوال الليالي الشتائية لا يخرجون إلى بيوتهم إلا ليتفقدوها في النهارات المريضة التي تتكشف فيها الشمس سويعات قليلة، وكان الحصار عميقاً، والأحاديث طويلة، فأسرة آل الجعفي، مؤلفة من الأب ابراهيم وامرأته وطفا وابنه غيلان، ومن ابنتيه رباب الشقراء التي تشابه أمها وسحاب السمراء التي صورة مماثلة عن أخيها، وقد ركنت تلك الأسرة في الزاوية الشمالية من المغارة الواسعة، وأيوب السارح الشخصية الغامضة قد انضم إلى أسرة الجعفي بعد أن طبَّقت حظيرته، على قطيعه الهالك، وتروي القصص عنه أنه تزوج نساء كثيرات خارج الحدود، أما هلوك الغاوية الأرملة مع بناتها الثلاث اشتهاء، ونجلاء، ولمياء، وولدها الأعرج نادر فقد استقروا في وسط المغارة، وانحاز إليهم أحمد التقي شيخ الحارة وامرأته مريوما وولده الوحيد درويش. وفي

مدخل المغارة خيَّم سرحان الخليط العميل المخلص لآل مبارك مع امرأته نظيرة وابنتيها بلقيس ونعامة وأولاده الثلاثة جابر وجبير وقرعوش ذي الاندفاعات الجنسية الغريبة، والجنون بأشياء النساء وملابسهن الداخلية والتباهي بالقدرة على إروائهن، وكانت الأم العجوز، بريبهان تشق العتمة بسعالها الجاف وأنينها الدائم واحتضارها الطويل، وكانت النار دائمة الاشتعال، والدخان المتصاعد من الحطوبات المبللة، يرسم أبخرة كثيفة، ويعكس أشكالاً مرتعشة فوق الجدران الصخرية، كأنها أشباح الماموت المرسومة في كهوف الإنسان الأول. وكانت تراجيع المطر كوقع المطارق فوق سطح المغارة، وأنين الأعاصير التي تتسرب من خلال الشقوق السرية، تنفث في النار نفثات شيطانية، وتلوّح بفزاعات متراقصة بين تجاويف الدهاليز البازلتية التي حفرتها أدوار جيولوجية متعاقبة، حتى بدت الشخوص العائلية وهي تحيط بدائرة النيران كمثل الجماعات الطوطمية في بدء الخليقة، وكانت أباريق البابونج الصدئة تغلي على الأثافي الحجرية، وتسمع بقبقات النقيع المغلي إلى خارج الدائرة النارية، ويُترع أيوب السارح ويصبُّ كأسين من النقيع الحار، إحداهما له والأخرى لابراهيم الجعفي وينفخ في البخار الصاعد، ويحملق في جوف المغارة ويهمس قائلاً:

لم أشهد مثل هذه الشتوية منذ أيام "سفر برلك" يوم كنت شاباً في أول عمري مع عصابة، "الشتا"، نهجم على البيوت المنفردة، وننقب سطوحها، وندخل على أصحابها نُرَوّعهم، ونأخذ مؤونتهم من العنابر، ونذبح دجاجهم، ونسوق قطعانهم، وننطلق في براري الدنيا الواسعة، ونقطع الطرقات حتى وصلت بجسدي هذا الذي تراه، إلى اليمن مقبرة الأناضول، ولقد اقتادني جنود الأتراك من قريتي، الساحلية، إلى ماوراء الصحارى العربية، وجُبْتُ السراب اللامع وبحيراته الموهومة، وحوصرنا في شعاب اليمن الوعرة، وهربت مع لفيف من أصدقائي، وشكلنا فيما بعد عصابة ضد الأتراك، ورمينا بأنفسنا في وحول سفر برلك ومجاعته القاتلة، واشتريت شرشاً من فدان مذبوح بخمسة "مجيدي" وداومت على العلك فيه، لأخفف من وطأة الجوع وبعته بعد ذلك بسبعة مجيدي، الله لا يعيدك يا أيام "سفر برلك"!

انطوى أيوب السارح على ذاته، يلسعها بشريط من الذكريات الأسية، ودرج إبراهيم الجعفي من علبته الصدئة سيجارتين من تبغ جبلي، أنتجته حواكير غويران الوطا، وتَسَّمد ببعران الماعز، وعلق بأشجار الصنوبر، ولوّحته شمس الجبال، وتضرج لون التبغ بحمرة الأصائل الغاربة، وصار طعم السيجارة ثقيلاً، ينسرح في الحلق، وينشر عبق الصيف. ناول أيوب السارح إحداهما ودسَّ الأخرى في فمه، فأشعلهما من بصة نار في الأثفية، راحا ينفثان في متعة بائنة، سحائب من

الدخان النارنجي، تدوِّمها بقايا الرياح في المغارة. اشتمت هلوك الغاوية الأرملة، الملقبة بقبارة الرجال كما يقال عنها، مذاق الدخان المسكر الذي اشتهرت به حواكير ابراهيم الجعفي وعنايته القصوى، بشكه وتنقيته، وسقايته لنبتاته في شهر آب المحرق، تناهت إلى مسمعها مقاطع من حديث أيوب السارح، وكانت تشغف بالقصص والحكايات الممزوجة بالخيال، والمليئة بالشبق والشهوانية، حتى أن حكاية الحمّال والبنات في ألف ليلة وليلة كانت تسكرها، وتتمثل أزواجها الثلاثة الذين قبرتهم، وتراكيبهم الجنسية، وكيف كانوا يتخبطون بين فخديها، كأن جنوناً أصابهم، وكانت في أويقات خاصة، تتحدث عن حركات كل واحد منهم، واندفاعاته البركانية، وجؤاره الوحشي، وكانت من النوع النسائي الذي لا يشبع من الجنس حتى أضحت لها معرفة عميقة بطبائع الرجال، ومواطن إثارتهم ونقط ضعفهم، رغم أنها لم تكن جميلة ومتناسقة الأعضاء، لكنها تميزت عن الآخريات بنظرتها النهمة التي تنبثق من عينيها الفاحمتين اللامعتين، وشفتيها الممتلئتين وعجيزتها المترجرجة التي تشدها بحزام ضيق، فتبرز كثبان رمل ناعم من خلال فساتينها المشدودة. رحل زوجها الأخير عنها في العام الماضي مسلولاً وترك لها بناته الثلاث وابنه الأعرج القمئ الجسم، اقتربت من أثفية ابراهيم الجعفي ووسعت لجسمها مكاناً بأن زحزحت أيوب السارح عن تربيعته، فأبعدت غيلان الجعفي عن الدائرة النارية والجمرات المزغردة، وصرخت بصوت آمر:

– ماهيك قال الله في كتابو، بتتسلوا وحدكم، بتشربوا أفخر الدخان، وبتملّوا كؤوسكم بنقيع البابونج والبنفسج، ماضيكم أيها الرجال، بيسكن بين نهودنا، ورائحة آباطنا، نحن بنات حوا، وتبقى أحلامكم معششة بين طيات لحومنا، وهدهدات بوساتنا، أنا بفهمكم جيداً، جربت منكم الكثير، هات ادرج لي سيجارة وأشعلها. شهوة التدخين والحكايا وطعم البابونج كلها بتأكلني في هذي المغارة..

خشي ابراهيم الجعفي من كلماتها القارصة، وهو يعرف طبيعتها ووقاحتها غير المحدودة، وعريها المفضوح الذي ضجت به زواريب غويران الوطا والقرى المجاورة، حتى النُسيات كن يخفن من العلقة معها، ويتحاشين العراك معها ولم تكن واحدة تقوى على منازلتها في شد الشعر، مهما كانت المرأة قوية، فإنها تسقط تحت قدميها مصروعة، ومنتوفة. أخرج ابراهيم الجعفي علبة التبغ من تحت اللباد الصوفي، وقدمها إليها فتحتها، تشممتها، فاح عبق التبغ الجبلي في خياشيمها، أغمضت عينيها في متعة لتستعيد حلماً مقبوراً في ذاكرتها، درجت سيجارة كبيرة وقضمت نهاية الورق بأسنانها الصفر، بللتها بريقها، وأشعلتها بمحراك متقد في طرفه، أخذت سحبة طويلة من الدخان الذي غرق في أسناخ رئتيها، وضربت ركبة

أيوب السارح بكف ملامس وقالت في لهجة متأثرة:

– هات، خبرني عن مغامراتك التي شحنت بها الأرض، ركعت النسوة بين رجليك هائمات، الليل طويل جداً، والنوم في هالمغارة، مابييجي إلا عند وجه الصبح. سدون التين الخضيري، ياحسرتي عليه، خربو الوكف، مضيت طوال الصيف، وأنا أجمع الكعيبات وأسطحها حتى تجف، ضاع تعبي، عنبر الطحين المسنبل من أراضي آل مبارك، راح مع سيال المطر، هيك نحن الفقراء بتهبط بيوتنا الطينية، وبيت مبارك بينعموا بالراحة والتخمة، قول لي من وزع الأرزاق حتى جعلنا نحن المعترين صايمين كل الدهر عن كل ملذات الحياة، ماعدا الشهوة الجنسية، نتساوى فيها مع الكلاب والحيوانات.

تهدج صوت هلوك الغاوية، وبانت على ملامحها ارتسامات حزن دفين وقهر تاريخي، لم يعهدهما أيوب السارح على وجهها، وأومضت في عينيها السوداوين بوارق دموع لم تنسكب، وسمَّرت ناظريها في غيلان الجعفي وسافرت في خاطرها بعيداً، تذكرت صباها الأول، جدائل شعرها الطويل المزينة بشريط أصفر من القز، فستانها الطويل المزركش، خصرها الأهيف الذي يحيطه زنار وردي، منتيانها القصير فوق صدرها، حيث يبرز نهداها المكوزان في بداية تفتحهما، الحريق الجنسي يتغلغل إلى جسدها الأسمر الفائر كحيوانات برية في ذروة تلاقحها، ترامت إليها الصور كأنها تحدث في الساعة الحاضرة."ضرغام" شاب مراهق من أترابها اختلى بها وراء الصخرة المختبئة في قلب الغابة، كانا يرعيان معاً قطيع الماعز، دهمهما وابل المطر، أصدت الغابة بالرطوبة، والنغمات الربيعية الحلوة، اعتصما إلى ظل الصخرة خوفاً من البلل، تسرب إليهما دفء مسحور، أحسا بارتعاشات غريبة، وشوق ملح إلى إطفاء حريق المراهقة، انسجما في إيقاع مجنون، جثما عاريين مثل آدم وحواء في بدء الخليقة الأولى، تداخلا مثل حيوانين فتيين، أسكرتها الفطرية الضاجة في عروقها، همد الاحساس بالزمن، انسحقت بكارتها، اعتصر نهداها مثل عنقود العنب، لم تدرِ لماذا حفرت هذه التجربة أعمق الأثر في ذاكرتها؟! الأنها الأولى في بداية مراهقتها أم لأن صاحبها ضرغام المسكين الذي امتلكها وكسر عينها بقواه الجنسية، قد لبطه حصان سيده الآغا وأودى بقواه وأفقده رجولته التي كان يتباهى بها على بنات القرية، وهرب لا يلوي على شيء تاركاً خلفه مرابع طفولته وذكرياته، محت الأيام كل مرتسماته في لوحة الحياة، ومات منسياً في مفاوز هذا العالم الفسيح، أغمضت هلوك الغاوية عينيها لحظة، وقابلت صورتي الشابين، ضرغام في المد الأول، وغيلان الجعفي في المد الثاني، ولم تفهم لماذا ينتصبان أمامها في انسجام واحد؛ وكانت كلما أوغلت في

تقري ملامح غيلان الجعفي، اشرأبت صورة مالكها الأول بعريها الكامل، وتشهَّت نفسها أن تعيد الكرة مع شاب آخر، اشتدت الريح عواء في العالم الخارجي، غمغمات مخنوقة تأتي من الشقوق، نواح ليلي بعيد تصدى به الأودية والجوبات الغائرة، روح الصقيع تسربت إلى زوايا المغارة، ولم تقدر مواقد النار المشتعلة أن توقف زحف هذه الروح الكانونية. راح الجميع يطعمون النار الحطوبات الجافة التي جمعوها مكادس من الحطب، حتى تقيهم غوائل البرد الشديد، بحر من العتمة يموج في الخارج، تنعكس عليه أضواء النيران المنبعثة من المغارة، فتشكل فراغات من القرون الغابرة، ومخالب أبالسة وذيولها الطويلة، من رواسب اللاشعور انطلقت جنيات بألوان متباينة، كل يراها حسب مخزونه من التخيلات والأوهام، كائنات غريبة نصفها الأعلى بشكل رأس إنسان، والنصف الأسفل بجسم نمر مفترس، ارتفع صوت ابراهيم الجعفي ينادي أحمد التقي بأن يأتي ليتسامر معهم في حلقتهم، الرعب القديم من غضب الطبيعة لف الجميع، جعلهم ينسون حزازاتهم وخلافاتهم السابقة، المنافع كلها تذوب والعداوات تختفي كأنهم يُبحرون في سفينة تشرف على الغرق، وتحوطها أمواج عاتية كالجبال الرواسي تتذرهم بالموت، الرعد يجلجل في عمق المغارة، يحدث رجات في أرضيتها وسقفها كأنها نداءات الهاوية. انفتحت البوابات الخفية، وانقذفت رواسب من طقوس عتيقة، وعادت فيها عبادة قوى الطبيعة إلى سابق عهدها، متخطية أبعاد القرون الموغلة في القدم، حاول أيوب السارح أن يبدد من ضرواة هذا الاحساس الزاحف من مدافن الماضي، وممارسات الإنسان الأول، وعباداته للمغاليق التي لا يقدر أن يسيطر عليها، فتناول بطحة العرق المختبئة بين طيات ثيابه وارتشف منها رشفات متلاحقة وهمس قائلاً:

– ياه، ياه! كم أتمنى أن تعيدوا لنا شريحة من تاريخنا المأساوي فنكء الجروح يغبطني أثناء محاصرة الطبيعة لنا، ويرميني في جب المأساة، فالعزف الحزين بعد أن طُبِّقت الصيرة الطينية على قطيعي، هو المناخ المناسب لمزاجي اليوم.

حك الشيخ أحمد التقي أرنبة أنفه، سافرت عيناه في العتمة الراسبة عبر زوايا المغارة، واندلقت لوحات درامية من خرائب الماضي البعيد، سكن فيها العجز والكبت وأحلام اليقظة المريضة، والانبعاج الروحي السقيم، تنحنح الشيخ الملطوم بالماضي ليجتر الأحداث، ويزيد عليها من نسج خياله كل مرة، رقعة كبيرة، ومشهداً مثيراً، يتوقد البكاء والتحسر، وقال في تألم مسحوق:

– كان ياماكان في سالف الأيام ملة معترة، تسكن الديرة الشرقية، عربية الأصل والانتماء، تمتد جذورها إلى بقايا الحمدانيين الذين دافعوا عن شرف الأمة العربية في تلك العهود القديمة، وضج التاريخ بمآثرهم القتالية ضد الروم، ومازالت الكتب الماضية تنطق ببطولاتهم مع سيف الدولة الحمداني حتى صدق بهم المثل (الصخر سقيناه دماً) وجاءهم الجراد العثماني، لا يبقي ولا يذر، وحصد السلاطين الأتراك بخوازيقهم وهمجيتهم بقايا فروعهم، وتراكمت تلول من الرؤوس المقطوعة، وهرب أسلافنا أمام الجراد الأصفر يختبئون نهاراً ويسيرون ليلاً في المتاهات. سكنوا الكهوف والغابات عهوداً مجنونة، كادوا يهلكون في مخاضات نهر العاصي والتواءات جبل الشعرا، وتناثرت عن أجدادنا خوارق التكيف مع أقصى البيئات، قاوموا العري والحفا، والجوع، حتى صارت أجسامهم رماحاً مسنونة، لا تعبأ بالفواجع، المطارق المتلاحقة صقلتهم، رغم كل المحن والمخاوف، رسّخوا أقدامهم في شعاب هذه الجبال وأغوار الأودية، وفي الأماكن التي يصعب الوصول إليها، وغويران الوطا جزء من هذه المأساة التاريخية التي مازلنا نعيشها.

ساد صمت وراء هذه الكلمات التي ساقها الشيخ أحمد التقي، جالت دموع ملتهبة في العيون، أحس غيلان الجعفي بمخيلته الفتية بأن خفافيش ليلية من أوجار القرون تلطمه بعماء التعصب، وترتسم أشباحها السود على شاشة التاريخ كغولة في الحكايات العتيقة، تقتل البراءة، وتخيف الأطفال، وانبرى والده ابراهيم الجعفي، يغرق في تأملات ملطومة بالحزن، وتتسلقه خواطر كئيبة من الماضي، أجداده الذين قتلهم الجراد الأصفر، دمهم المهدور مازال ماثلاً في جذور الريحانة، تمتص بقايا عظامهم ورميم أجسادهم، نفث من سيجارته نفثات طويلة، خرجت من أنفه، وتأوه قائلاً:

لا تذكروني بالماضي، و تصلبوني على رمال القفر الهمجي، نزيف بلون الجمر المحترق ينزُّ من جروحي، الثلاثة من أجدادي قتلوا في هذا القفر، اخترق الرصاص قلوبهم وأحرقوا في "ديْسَة" السفح، صارت جثثهم رماداً، وزرعنا ريحانة على بقاياهم. وشبت الريحانة، وامتلأت الأودية برائحتها الطيبة، وخضرتها المغرقة، هناك الناس يتبركون بها، يقطعون أغصانها الغضة، ليغسلوا بأوراقها موتاهم، ويزرعوا قسماً منها على قبور أحبائهم لعلها تورق، ولم يكتف الجراد الأصفر بما نكبنا به في سالفات أيامنا، بل شنق الأحرار والمناضلين العرب في بدايه هذا العصر يوم السادس من أيار، وعلقت أراجيح الأبطال، وشنفت أسماع التاريخ أناشيدهم قبيل الموت، ومازالت ظلالهم محفورة في الذاكرة العربية.

تهدج صوته، تدحرجت دمعتان من عينيه فوق لحيته التي تسرب إليها الشيب، أخرج أيوب السارح قنينة العرق من سترته الداخلية، فتح سدتها الفلينية بفمه، ارتشف رشفات مسموعة، كفنت محياه كآبة حائرة وجال بعينيه في سقف المغارة التي تترشح منها قطرات من الوكف، وتلتمع تحت ضوء النار اللاهبة، وأردف كمن ينادي في غيابة الجب:

– لا أفهم ماالذي حلَّ بنا نحن العرب، لا نكاد نخرج من نير إلا ويتلقانا نير آخر في رقابنا. كوابيس سلاطين عثمان، جعلتنا مسوخاً، نتردى في مستنقع الجهل والعجز والظلام، وكوابيس الاستعمار الغربي، زحفت إلينا بكل آليتها، وخنقت كل صوت للحرية ومزَّقتنا عشائر وطوائف، وداست سنابك فرنسا على مآثر تاريخنا. إن من يطلع على مسلسل نكباتنا، يشعر بأن لعنة نزلت بنا. انظروا إلى هذه "الجورة" في كتفي، وهذه الندبة في ظهري، إنهما من آثار تلك المعارك التي لا تنتهي، شفَّ لحمي، واشتويت على تنور التجارب، ولكن مازالت إرادة القتال وحب المغامرة، يتمشيان في عروقي، فأحلم بلعلعة الرصاص وطبول الحرب.

قهقهت هلوك الغاوية، قهقهات عريضة، وظهرت أقاصي أسنانها التي تحافظ على بياضها بفركها بأوراق الشجر التي تمنحها نصاعة كما تدعي، وحكت عجيزتها، وتنحنحت ساخرة:

– راحت قوتك، يا أيوب السارح، بين مناطحة النسوان بمنقارك، وبين مناجزة الفرسان برصاصك، أكلتك الفلوات، وتضخيم الحكايات، وفي كل عرس لك قرص.

وأغرق الجميع في ضحكات عالية، تلتها سكينة مطبقة، شقها الشيخ أحمد التقي بقوله:

– في بحر هذا الأسبوع، يصادف عيد رأس السنة الشرقية، هل نسيتم هذا الطقس اللحمي، عندما كنا نسمن الخرفان والعجول لنذبحها ونشعل النيران ونقيم الفرح والدبكة، ويتصالح الأعداء، ونتبارك بمزار الشيخ اسماعيل ونعيِّد رشيد بك مبارك ونقدم له الأكباش، هل نسيتم ماعليكم من الواجبات، أم محنة هذه االسنة ضربت عليكم العماء، وقد نسيتم حتى الحليب الأمومي الذي رضعتموه.

أغلق كل منهم بوابته الخارجية، وسافر في دنيا الذكريات، واكتسحت هلوك الغاوية ذكرى مومضة قفزت من رعوش السنين، يوم عيِّدت رشيد بك مبارك منذ عشرين عاماً، وكان دبيب الصحة والعافية ينفر في عروقها، وينبض في قلبها سيل كاسح إلى الرجال الأغراب، إنها تحب الغرابة، وتملُّ الرؤية الواحدة والتشنجات الجنسية الرتيبة، كانت وقتئذ ترتدي فستانها البرتقالي المثير، وتحيط

خصرها الأهيف بزنار أحمر، وترخي جدائلها الثلاث بشكل ذيل حصان، وتفرك وجهها بالصابون المطيب الذي أهداه لها رشيد بك مع زجاجة من العطر، لأنه يريدها قبل أن يضاجعها أن تكون ذات رائحة طيبة، تثير القابلية. تمثلته وهو يتخبط بين رجليها، ويتأوه من متعته الراعشة، ولكن الصورة التي انطبعت في ذاكرتها أكثر، هي صورة الضابط الفرنسي الأشقر الشعر ذي العينين الزرقاوين مثل أعماق المحيط، طلب الاختلاء من رشيد بك مبارك فقدمها إليه، أصابها الارتباك، لم تكن تعرف لغته ولا طريقة الأجانب في الملامسة، قادها إلى العلية المنفردة، شعرت بيديه الناعمتين تمسح مواطن الإثارة فيها، واشتعلت نار الوجاق، كانت النوافذ ذات المقابض البرونزية مغلقة، عيد الميلاد تشرق فيه شمس شتوية عجيبة في هذا الفصل. مطلات ثلجية تبرق وراء العلية، إنها المرة ألأولى التي تدخلها، لأن رشيد بك إذا اشتهاها كان يتواعد معها في الفصول الدافئة، باللقاء بها وراء الغابة وبين سرحات الجوبات المعشوشبة، ولذته تتضاعف حينما يؤرجحها بين الحشائش، وحواسه مفتوحة للريح، والشمس وخرير المياه، ولاستحمام الطيور في المنابع البعيدة، وقتئذ كان يفلي برازخ جسدها ونعومة رملتها الفطرية، وقلما كان يشتهيها في الشتاء والفصول الباردة، إذ كان يفضل إمضاء الشتوية في بيته المدني، ابتسمت هلوك الغاوية من تصوراتها واسترجاع ذكرياتها، ومدت يدها إلى بطحة العرق التي برزت عنقها من سترّة أيوب السارح وكبّت في جوفها سكبات منها، وغاصت من جديد في طيات الماضي. الضابط الفرنسي الأشقر أمرها أن تتعرى كما ولدتها أمها. لم تفهم ماعناه بكلماته الأجنبية، هاجمها في عنف، مزَّق "منتيانها" الأحمر عرّاها في عز الشتاء، أجلسها على أريكة وثيرة. نار الوجاق تلقي ظلالها الدافئة على المكان، لم يقترب منها في البداية، بل جلس قبالتها، وغدا يشرب الكأس ويشير إليها، وينقر على حلمتي نهديها النافرين، نقرات موقعة، ويغمس فمه في دائرتهما محاولاً أن يمتصهما، كأنه طفل يلوب ظمأ إلى ثدي أمه، أجج فيها مالم يؤججه غيره، لم يحاول أن يضاجعها، بل اكتفى بالتفرج على عري جزيرتها، أشارت إليه أن ينغمس في رملة جزيرتها اللاهبة، ولكنه رفض في نفور، وأبقاها ساعة على هذه الحال، تحترق بنزوها الداخلي، وأخيراً أجبرها على أن تنبطح على صدرها وراح يمرر بكفيه الناعمتين على عجيزتها، حاول أن يمتطيها من الخلف، لم تتعود على هذا النمط من قبل، فامتنعت، ولبست ثيابها، وخرجت لا تلوي على شيء. استفاقت من سرحات التذكر، وأدارت عينيها، صوب أيوب السارح وهمست في أذنه ببعض العبارات، فاستلقى على قفاه ضاحكاً، وتمادى في الضحكات حتى ظن الحاضرون أن مساً من الجنون قد أصابه، ولم

يدروا ما النجوى التي حدثت بينهما، غير أن أيوب السارح قرصها من فخذيها في شدة وقال:

– يبدو أن هؤلاء الأغراب يحبون التلوين في ركوبنا، التركي كما قرأت في بعض الكتب، كان يمتطي ظهر العربي في الأستانة ويقول له: "امشِ يا أخانا في الدين" والفرنسي يكتسح عاداتنا، ويريد أن يمتطينا بطريقة أخرى، يا حسرتي على أيام زمان، يوم كنا سادة الدنيا، ومدوخي الأباطرة، أحقاً أننا من نسل أولئك الذين رسموا وهج المروءات والفتوح؟ ونقشوا في ذاكرة التاريخ (المنية ولا الدنية!) لقد فتحوا خزائن نفوسهم الأبية، ففتحوا العالم...

تهدج صوته، غصّ بصور مأساوية، راح يجتر حسراته، لم يطق صبراً، استلقى على فراشه الذي نشف عنه البلل، وغطى رأسه، تسرب النعاس إلى الجميع ماخلا بريبهان العجوز أم سرحان الخليط التي كانت تئن من أوجاعها، وتزحم المغارة بتأوهاتها، وتتحشرج أنفاسها في صدرها، كأنها صوت مخنوق في العراء في حين كان قرعوش حفيدها، ذو الاندفاعات الجنسية المهووسة، يراقب شبح هلوك الغاوية وهي تخرج من باب المغارة بحجة قضاء حاجة، واندفع وراءها خارجاً، وفي ظل صخرة مجوفة، تعريشت عليها شجرة غار قديمة، انحشر الاثنان، وتداخلا، في بعضهما بعضاً، كأنمها كلب وكلبة، منعقدان في ذروة شبقهما، راحا؛ يلهثان في متعة مجنونة، في الوقت الذي كانت الجدة تلفظ أنفاسها الأخيرة ويسمع صوت خبطها في أرضية المغارة، وقبل أن تودع هذا العالم الغريب، في مهزلة بشرية، يموت في نهايتها بعضهم، ويندفع في وسطها بعضهم الآخر، ليقتنص حزمة من رعشات فطرية، يتعارك فيها الموت والحياة، وتظل الغرائز سائدة، تسطع منها قابلية الحياة رغم كل ضروب البؤس والجوع وضنك العيش، وتشمخ فيها إرادة الحياة، رغم كل فجائع هذا العالم المشحون بالنقائض والمفارقات واعتصارات الطاحونة الوثنية.

❐❐❐

الفصل الرابع

عيد الرابع من نيسان الشرقي

هبت الطبيعة من مرقدها الشتوي واشتعلت أضواء الشمس مع الأنسام البيض، واستحالت ثلوج الشعرا أغنيات في السفوح، وحلقّت أسراب السنونو في فضاء لازوردي الرؤى منذ عودة الربيع، وتفتحت أزاهير البنفسح عن براعمها، وعبقت الغابات بعبير مسكر، وظهرت الدروب التي كانت مختبئة خلف ركام الثلوج، وراحت تومئ إلى سالكيها، أن يمشوا فوقها ليحتطبوا من الأحراج ماكسرته رياح الشتاء الماضي، الذي تميز بضرواة لياليه، وهول أمطاره وثلوجه، وسقوط سواميك بعض البيوت من تتابع الوكف وقصف الرعود، أزهرت شجيرات اللوز في بساتين آل مبارك وأرهفت القلوب، بغمغمات النماء في قلب الأشياء، وتوجه جميع سكان القرى المجاورة إلى مقام الخضر، ليحتفلوا كعادتهم في كل عام، بعيد الرابع من نيسان الشرقي، ذلك العيد النيروزي الذي تتوهج المخيلة عن حكاياته القديمة، وعن لقاء الأحبة بين مرابعه، وكان المقام يبعد سبعة كيلو مترات عن غويران الوطا صوب الجبل العالي المطل على آفاق شاسعة، وعلى الجبل فسحة تتسع لسباق الخيول، واحتضان آلاف من البشر، وبجانب المقام غابة من السنديان والصنوبر وأجمات من الريحان والبلان البري يتفيأ القادمون ظلالها، ويتفجر من نهاية فسحة المقام الجنوبية، نبع ماء دافق، يفيض بين الغابة، وينساب بشكل شلال صغير بين أحراش السفح وشعابه. كان سكان القرى، يرتدون الثياب الملونة، ويهيؤون الأطعمة اللذيذة لذلك اليوم المشهود، يقيمون مراسح الدبكة على صوت المزامير القصبية، وقرع الطبول الغجرية، يغنون ويسكرون، وتندلع مواويل الحب المولّه، وولائم المواعيد والأحلام واللقاءات الخفية، توقدت خيالات غيلان الجعفي بعودة الرابع من نيسان، وتفتح شوقاً ضارياً إلى لقاء خضراء مبارك في هذا الموسم الملائم، وراح يحوك الأحلام، وينمنم الخيالات، وكان الصدع العميق الذي حفرته حادثة صلبه على الشجرة، قد تضاءلت هواته وخفتت انفعالات الأعماق. اقترب من أمه وطفا واحتضنها بشكل رحماني لم تعهده منه بعد

الحادثة، وغمر يدي والده بقبلاته، وشدَّ جدائل أخته رباب الشقراء الصبية الناهضة التي كانت في السادسة عشرة من عمرها، يفهم المتقصي لملامح جمالها أن بذور الشيخ محمود مبارك الشرسة، تلوح من خلف سماتها، خضرة عينيها المغرقة في الصفاء، أهدابها الوطف تحاكي أهدابه، أنفه المقوس الدقيق، شفتاها الغليظتان المشوبتان بحمرة لاغسة، تنقلك إلى نمطية شفاه آل مبارك، ورغم ذلك التشابه لم يكن غيلان الجعفي، يرتاب بطهارة أمه وطفا، وترسب به شعور أن الاشتهاء أثناء الوحام، كما تتناقله النسوة، يفعل فعل السحر في الوليد الجديد، غير أن ولعه بأخته سحاب كان أشد عمقاً، ألعلها نسخة شبيهة به و بأبيها، أم لا ستشفاف ذكاء لماح في عينيها السوداوين اللتين تبرقان مثل بصبوص ليلي، تناهت دقات الطبل الرجوج من مقام الخضر، منذ بزوغ الشمس، وأصدت الأودية بتراجيع الربيع، وانثال القرويون في الدروب والشعاب، الشباب بقنابيزهم الحريرية المخططة، وعقالاتهم السود، وشملاتهم البيض الهفهافة التي تحركها أنسام ندية، الصبايا اللواتي ارتدين الفساتين النارية التي تحاكي قوس قزح بألوانه، وسراويلهن الحمر الطويلة، وزنانيرهن المزركشة التي تضم الخصور الهيف، حتى يظن الرائي أن بنات السويد وأوروبا الشمالية، تركن آثارهن مطبوعة فوق هذه الخصور منذ الحروب الصليبية، وكانت نمنمومات المناديل وخرزاتها تبرق في المدى الربيعي، وتعكس ورد الخدود، كأنها تكتب مقولة (احذروا الحب في الربيع فإنه جارف كالموت) ارتدت هلوك الغاوية فستانها القديم الذي كانت تختزنه في صندوقها الجوزي، لتلك الأيام المعهودة بالفرحات، وألبست بناتها الفساتين التي أهداها إليهن رشيد بك مبارك. كانت اشتهاء اكبرهن في الثامنة عشرة شديدة السمرة، ذات وجه مدور مثل لعب الأطفال، وفم صغير خاتمي تغطيه شفتان حمروان كعناب بري داني القطوف، وعينين شهلاوين بهما أهداب طويلة، وقامة فارعة مثل حورة يافعة تتمايل خلفها عجيزة أكثر بروزاً وغواية من مفاتنها الأخرى. أما نجلاء فكانت حنطاوية اللون، تزهو بجدائل شعرها الليلي، وضمور خصرها، متوسطة القامة، لا تنفرد إلا باتساع عينيها الفاحمتين كعيني أمها، وكانت لا تتجاوز السادسة عشرة في بداية تفتحها، أما لمياء فكانت صورة مصغرة عن رشيد بك الذي ناطح أمها كثيراً في الخلوات ، ذات عينين زيتونيتين، يشوبهما التماع أخضر، وقامة بادية أكثر من عمرها، وشفتين ممتلئتين يخالطهما لعس أسمر، تنقلك إلى سمرة خضراء مبارك حتى أن غيلان الجعفي كان يدقق في ملامح لمياء وتستهويه شفتاها المكتنزتان، وتحملانه إلى خضرائه الفاتنة، وكانت في الثانية عشرة تعد بمشروع صبية متناسقة الأعضاء. كانت أسراب القرى المجاورة، تنصبُّ في الطريق

المرصوف بالحجارة المار بجانب مقام الخضر، اهدودرت سيارة رشيد مبارك السوداء ذات الماركة القديمة التي أهداها إليه المستشار الفرنسي لخدماته السرية وصداقته المتينة مع فرنسا، وراحت تقرقع فوق الطريق المرصوفة، التي أمر بشقها المستشار الصديق، حتى الطريق العام، بغية نقل الأخبار والسرعة في مداهمة الوطنيين الذين يرغبون في التحرر من ربقة الاستعمار الفرنسي، وتدعيم الانفصاليين الذين يحلمون ببقائه. غير أن دماء الضحايا التي أريقت على مذبح الحرية، طوال ربع قرن، أزهرت نجوماً حمراً ثلاثاً، يوم الجلاء الأغر، رغم كل ذلك، بقي آل مبارك يتمتعون بالسلطة والنفوذ في الحكم المسمى وطنياً. إذ انتقل رشيد مبارك في سرعة البهلوان، من خانة العملاء والضالعين مع فرنسا، إلى خانة الحزب الوطني الذي ترأس الحكم، وصادف أن كان يوم عيد الجلاء موافقاً لعيد الرابع من نيسان حسب التقويم الشرقي، كأن هذا اليوم الربيعي حمل في رحمه ولادتين معاً؛ ولادة الطبيعة في ذروة نمائها، وولادة فجر الحرية لشعب رفض الخنوع، وسلاسل العبودية، وكان كاسر رشيد مبارك، يسوق سيارة ذات رفارف عريضة، يتباهى بها، وبجانبه امرأته الباريسية التي التقطها كما تقول الروايات من أحد الملاهي الرخيصة، يوم كان طالباً، يدرس الحقوق في بعثة خارجية ولكنه أخفق في دراسته وعاد بهذه المرأة التي كانت ترتدي فستاناً شفيفاً وتترك شعرها الأحمر على كتفها النحيل، وتبدو إشراقة جسدها البض والتماع عينيها المغرقتين بالزرقة. وكان يجلس بجانب المرأة الأجنبية "ماريا" الأخ الأصغر زاهر مبارك الذي كان في مقتبل العمر، يتباهى بشبابه، لا يرى العالم إلا من وراء خد أنثوي، وبروز نهدين فائرين، ولم يكن يتورع عن اقتراف أي من المحرمات، وكان مأخوذاً ببياض جسد ماريا، والرغوة الصابونية الناعمة التي تبرق من جلدها، أما المقعد الخلفي فقد ضم من اليمين خضراء رشيد مبارك، التي كانت تلبس فستاناً بنفسجياً، يوحي بألوان الغروب، وتضع على رأسها منديلاً شفقياً منمنماً بخرزات متعددة الأشكال تبرق في الضحى، كأنها ومضات نار جبلية، في عتمة داجية، يليها في الوسط أخوها طاهر رشيد مبارك، الذي اتسم وجهه بالطيبة، والبعد عن بهارج الدنيا، لأن اهتمامه كان منصباً على الكتب، والاطلاع على التراث القديم، وفي الطرف الأيسر كان يجلس ابن عمه يوسف ابراهيم مبارك المغرور بقوته وجاذبيته، إذ كان مضرب المثل بقوة عضلاته، رأس كبير يكسوه شعر خرونبي كثيف، تبرز في تجويفه عينان كبيرتان شهلاوان وأنف طويل، تبرز من منخريه شعيرات كأدغال محروقة، وتتدلق من حوافي فمه شفتان وحشيتان مشوبتان بسمرة محمرة، تتمان على شهوانية كاسحة. كانت السيارة تسير في بطء، وسط أسراب

الجموع الريفية الذاهبة إلى مقام الخضر لتشارك بالفرحة، وتقضي سحابة نهارها في مسارح الدبكة والرقص والاستمتاع بلحظات من عمرها، تمسح فيها عباب الشقاء الطويل، وتتفيأ بظلال واحة، فترة قصيرة، بعد قطعها صحارى العمر البائس الذي يتنزى منه الفقر، والوكف والحزن المأساوي، وكان المعلم نبيل السواحلي يمشي مع مجموعة أيوب السارح وغيلان الجعفي، مأخوذاً بتلك التألقات الصباحية التي يرسمها أبناء الريف وبناته فوق صفحة الوجود، شاعراً بأن الطبيعة مهما قست، والظروف الاجتماعية مهما استشرت، فلن تميت في الأعماق كل ذلك النزوع الإنساني إلى الفرح والمتعة، فالانصهار في القطيع يؤجج شعوراً بالأمن إزاء الذئاب المترصدة والكوارث المحيقة المنذرة، ولوّح بيديه في الفراغ الحلو، قائلاً:

– كم هو رائع! أن يخرج معذّبو الأرض من قواقعهم المليئة بالهموم، وبيوتهم الطينية المسكونة بروائح الدوّاب والعتمة، إلى العالم ليتشرّبوا إشراقات متفائلة، تطرد الروح الثقيل من صفحة أيامهم الرتيبة، الأزاهير وحركة النماء والخضرة اليانعة انبثقت من رحم شتاء ضار، وترمد بطيء. بيوتكم في عز كوانين المثلجة أضحت غربالاً لا يقي الوكف، وجوعات بلون الحرمان، امتصت كل نضارتكم، خرجتم بكل ما في حوافز الحياة، لترقصوا اليوم أناشيد الربيع، في عرس الطبيعة، وبجلاء المستعمر عن الأرض، وولادة إنساننا الجديد مع صباح الحرية، الذي أطلع ثلاث نجوم حمر في رايتنا الوطنية.

تطلع أيوب السارح في الآفاق الزرق، وانسياب الضياء الشمسي من خلف جبال الشعرا، فتداعت له أطلال الماضي، ومآسيه المحرقة التي تضطرم خيبة في داخله، وهتف كمن يناجي في البراري القديمة.

– قاتلت كل ضروب الاضطهاد، حملت السلاح ضد الأتراك بعد السادس من أيار، هزتني الحماسة بعد شنق الأحرار، وأهدر دمي، لولا هذه الجبال المنيعات لتغربل جسدي بالرصاص، وحاصرنا الجراد الأصفر في أماكن عدة كنا نتخلص مثل الخلد الذي يحفر سراديبه في الأرض، وذهب استعمار قديم ليحل محله استعمار جديد، واشتعلت الثورة في هذه الجبال، ورميت نفسي في تنورها وما زالت آثار بشراغي والقدموس مطبوعة في ذاكرتي، وانجلى الاستعمار الفرنسي عن أرض الوطن، وبقي أعوانه، وظل رشيد مبارك يمتص جهودنا، ويترفه نسله على حساب شقائنا، لا أدري إن كنا نحن المعترين، قارطين بخور الزيارات وواقعين في الخطيئة.

زمرت سيارة آل مبارك تزميرات مجفلّة، دوّى صداها في السفوح وفي آذان

العابرين الذاهبين إلى مقام الاحتفال. كان كاسر مبارك يجري هذه الألاعيب، لينبه المارين على الدرب، إلى أنه يركب سيارة وهم يمشون وأنه من طبقة في الأعلى، وطبقتهم في الأسفل، وأن دالة أسرته على الحكم، مافتئت قائمة، وإن رحل المستعمر. كانت السيارة تزحم الجموع، وترغمهم على الانحصار في زوايا الطريق، وإرغامهم على الخروج أحياناً منها، واللجوء إلى الصخور المدببة، وأجمات الشربين والبلان، تسمرت نظرات غيلان الجعفي بملامح خضراء مبارك، بشعرها الذي يتراقص على كتفها، حينما تهب نسيمات الجبال وتحركه سرعة السيارة، ارتعد حنقاً، تنزت كل شرايينه بؤساً، حين تلامح إصبع، يوسف إبراهيم مبارك، تنغرز في خصلات شعرها المتطاير، أحس أن وجه العالم يستحيل بثوراً كامدة، والربيع الذي كان تفتحاً في الأعماق، ينزو برائحة عدمية، أحلامه التي كان يحوكها في مخيلته عن روعة الاحتفال، غدت تتأقزم عن كوابيس من الغيرة القاتلة، الروابي المزهرة، والغابات العبقة بأريج أخضر، والريف الضحيان بامتدادات الشمس، ونشيج الشبابات الرعوية بين المنعطفات، كلها ارتسمت صوراً راحلة، أغلق بوابته على طوف من المشاعر المبهمة، لم يفهم كنهها ولا ينبوعها الغوري، حاول أن يحاصر هذا الطوف، بتطلعاته إلى أرداف اشتهاء ابنة هلوك الغاوية التي كانت تصعد مع بناتها تلة منعرجة، تختصر الطريق، ارتد إلى داخله، راح ينغل مثل حيوان ضرير في سراديب نفسه هامساً: (ما الفرق بين تكوز "اشتهاء" وبرازخها، وبين مفاتن خضراء، اللحم البشري واحد، الدم الذي يجري في العروق كله أحمر، هل يمكن أن يكون دم الطبقات العليا دماً من نوعية خاصة، صبغياته زرقاء؟ الزغب الشعري المتصاعد من ينبوع جسديهما، وانحناءات الإبطين، والفخذين، هل هو واحد، ربما كانت شفتا خضراء أحلى مقبلاً. لقد لثمهما مرة في عمره، يوم اختلى بها قبل صلبه وتمرغ بلعسهما الشهدي البارد، لم يزل طعمه في خلايا ذاكرته، لم تتل كل أحزان العالم، وضربات قضيب الرمان الموجعة، من باكورية تلك القبلة الأولى، التفت يسرة ويمنة، حتى يتأكد أن أحداً لم يسمع تساؤلاته، وسافر في تلك المطلات المعشوشبة، والتهم نصاعة أزهار العرموط البري في الشعاب، وأغرق نظراته في تكوز نهدي اشتهاء، وبروزهما من خلال منتيانها، الضيق، لعله يبعد تلك الحرقات الداخلية، لكن عبثاً، ارتطم بتلك الربوات الخضر، وتخبط في شراك نصبته خضراء مبارك له، راح يهتز كنبتة "سلبين" أيبستها حرارة آب اللهاب. لاحظ أيوب السارح المرتسمات المجبولة بالقلق الحزين الذي ينحفر في وجه غيلان الجعفي وهو يراقب بنات هلوك الفائرات مثل أمهن وتعجب من هذه المفارقة، الغريبة في سلوكه، والعالم يضج بفرحتي الطبيعة

والإنسان، وتنحى به صوب صخرة دهرية، تعربش عليها النعناع البري وأردف قائلاً:

– لماذا هذه المرتسمات الشديدة الحزن والقلق، تنبثق من وجهك في هذا الزمن الربيعي، التهم مفاتن بنات هلوك حاول أن تكنس ضباب الحزن، برؤية اشتهاء وردفيها اللذين تلطم بهما ديباجاً بديباج، حسب قول الشاعر، ونجلاء ذات الخصر الأهيف، كأنها بقية من لقاح بنات السويد في رحم شرقنا منذ الحروب الصليبية، ولمياء السوسنة التي لم تتفتح كل براعمها، لماذا كل هذا الرعب الحزين في نظراتك؟ لماكنت مثلك في سنك، كانت تسكنني تنانير من اللهفة، والأحلام، كنت أقتبسها من الرنوات ورعشاتها الواعدة، ومن الشفاه وتلويحات الوعد بالتقبيل، ومن استدارة أرداف تعج بجنون الغرائز، ومن رائحة أنثوية، مازالت، تدفعني رغم كهولتي إلـ التحليق، وقطع السبعة بحور من أجل ضمة تحملك إلى رفيف الجنة الموهومة.

بان حنو غريب فوق وجه أيوب السارح وقطف باقة صغيرة من نعناع بري وغمر خياشيمه بها، وسطع مذاق غريب في رئتيه، فأعطاها لغيلان الجعفي ليعُب من نسغها، ويوصد صدوعه الحزينة، ولكن ماحدث كان عكس ذلك، تداعت صور اللقاء في مخيلته؛ الغابة الخريفية تئن بمعزوفة الرحيل بنبع الصنوبر الغافي بين الجوبات، يوسوس تحت عرائش الديس الوحشية، أنغام خفية تتصاعد من رعوش الأرض وهوّاتها، طيوف أرواح غير مرئية، خفيفة ترف في العمق القديم، شبابته المعهودة تشنف أذن الصباح الضبابي ببحاتها الشفيفة، التي تتقلك إلى خرائب المدائن المنسية، قطيع الماعز، يضيع بين الجوبات، وتُسْمعُ قضماته للأوراق، لم يَدْرِ كيف حضرت خضراء ألعلها روح الخريف أججت فيها التوقان المفجع إلى اكتناه الطبيعة في عريها، أم ترصدته من علية والدها في غويران المزار حينما قاد قطيعه في نهار جمعة، لأن راعي القرية كان مريضاً، واضطر الأهالي إلى توزيع أيام الرعي وكتب عليه المقدر أن يرعى في ذلك اليوم. كان حضور خضراء مبارك كاسحاً في فستانها البنفسجي، ومنديلها الحريري المطرز، عيناها الخضروان سكبتا على خرائب الخريف معنى متألقاً، شفتّاها الممتلئتان أنضجتا العناب البري قبل أوانه، شعرها الليلي رسم دوائر حلوة في الغابة العارية، تأوهت الطبيعة عن نفثات الحنين، إلى اقتناص شيء، في القلب الإنساني، كاد غيلان الجعفي يحلق في آفاق منيعة، ينوس فيها قنديل الحلم، وصلابة الواقع، اختليا في مغارة لنبع الصنوبر، تحت عريشة برية كانت استجابتها رحمانية، بثها كل أشواقه، أنطق الشبابة القصبية كل رعشاته، احتضن كفيها الحمامتين، قالت

له: الحب الكبير يقاس بمقدار مايضحى من أجله.

لم يفهم سر هذا التناغم المباغت، كانت نظراته تلتقي مع نظراتها، أثناء دخول الصف.. وأثناء الانصراف، وكان حبه يترعرع من جانب واحد كما كان يظن. غير أن هذه اللقيا كشفت له عن أن المرأة مازالت لغزاً مبهماً يصعب ادراكه، توّج هذا اللقيا بقبلة متفردة، اجتمع فيها اليأس والأمل، والواقع والمحال. أخرجته من أحلام اليقظة، يد نبيل السواحلي وهو يربت على كتفه ويهمس قائلاً في أذنه:

– ليس ببعيد موعد خروج الانكليز من فلسطين. سيصادف ذلك منتصف أيار القادم. هل سيوجه العرب قواهم لنصرة أبناء جلدتهم، أم يتقاعسون عن المهمة القومية، أفكر بالانتماء إلى المقاومة وخوض معركة الشرف، أليس من الذل التاريخي أن تستوطن حفنة من شذاذ الآفاق، بعثرتهم الدروب أرضاً انقطعوا عنها آلاف السنين، وأن يبثوا أساطيرهم الدينية في عقلية الغرب بأن فلسطين ملك تاريخي لهم، وأنها أرض الميعاد، كيف يحدث هذا ونحن مائة مليون عربي، أشعر بإحساس غريب أن خيانة تتكون، وأن ماحدث في دويلات الأندلس، سيتكرر في المشرق فالذاتية العربية المتضخمة التي لا تنصهر في بوتقة الوحدة، سر من أسرار فجائعنا المتلاحقة.

درج أيوب السارح سيجارة من علبته الصدئة الممهورة بنقوش أثرية، بلل طرفها بريقه، قضم أطرافها بأسنانه، أشعلها بقداحته الصوفانية ذات الفتيل الأصفر، وردَّ في سخرية بائنة:

– دعنا من هذه الكوابيس، في هذه الأوقات الخاصة، اليوم خمر وغداً أمر، سننظف الزنجار عن أيامنا، ونمحو الكوانين السود من ذاكرتنا، قرأت كثيراً من الكتب الصفر، ومارست الحياة بكل ضراوتها، وصلت إلى حدود اليمن أخذني الأتراك عنوة، ولم ينبت الشعر على وجهي، اقتادوني إلى الصحارى والفيافي رأيت السراب، ورمالاً بلون العطش، وتفسخ جلدي عني، وعايشت القردة، وامتصصت القات، وهربت مع ستة من جنود هذه المناطق، الكتب لا تمنحك إلا الصور الباهتة عن الحياة، فرعشة من الممارسة تساوي عندي قراءة عشرات من الكتب، انظر إلى تلك الأرداف المتموجة، والنهود ذات المناقير الحمر، والخدود المصقولة كمرايا لم تغبشها الأنفاس المسعورة، إنها اليوم أجدى من كل هذه الهموم والكوابيس، المستقبل كشاف، تمتع بالساعة التي أنت فيها.

أسرع بخطواته صوب هلوك الغاوية حتى حازاها، وأخذ مكاناً بينها وبين

ابنتها اشتهاء، التي كانت على غير عادتها تنظر ساهمة في المدى، ترتسم في عينيها خاطرة مغامرة مشوبة بالقلق، تمسح بادراف هلوك وقال في لهجة متهكمة:

– ياه ياه! مازالت لدونة جسدك غضة، رغم كل الهموم والضيق، ورحيل الأزواج عنك، لم يتجعد جلدك الناعم، ورغم ما تخبط فوق برازخك من رجال، مازالت خلاياك متفتحة للملامسة والطعان...

قهقه قهقهات عريضة، أصدت لها التلة الصاعدة إلى المقام، فهمت هلوك الغاوية، كنه هذه القهقهات، واجتذبته خارج الطريق الضيق الذي لا يتسع لأكثر من اثنين، وعضته في أذنه، حتى كاد الدم يحتقن بها، وهمست في تحد:

– وحق ها المقام، لو اختليتُ بك وراء تلك الصخرة الكبيرة، لما تجرأت على رفع صوتك، اعترف يابن السارح بأن رجولتك همدت. وصرت كالتيس اللي يمعمع، ولا طاقة لك على الضراب، أما أنا فالشباب يسير في عروقي مثل جمرة نار، وصوت الشبابة والعتابا والميجانا، وفروقات على دلعونا، وليالينا، ومواويل العشق (بتهيجني) مثل القطط في شهر شباط. اشتهاء بنتي محيرتني اليوم، هي على غير الخميرة، رغم زينتها وتفتح جسدها، الله يستر، قلبي عما يحدثني بشي مابفهمو، وابني نادر الأعرج صار ينقد تصرفاتي، والأيام مثل مخلب ذئب يريد أن يفرم لحمي واحسرتي على أيام الجهل والغوى، ومناطحة الرجال.

سار الجميع إلى المقام. تناهت إليهم رجات الطبول، ونشيج الربابات، وبحات النايات، وضجيج الغجر، وقد حطوا خيمهم الممزقة بجانب الغابة، ليبيعوا غرابيلهم ومصنوعاتهم الجلدية، وأساورهم الملونة، ويلقون ودعاتهم التي تنبئك عما يضمر لك القدر من مخبآت. غصت ساحة المقام بالجموع القادمة، كأنها السواقي تغيب في الأنهار الكبيرة، وتنفرش على الضفاف، وظهرت قبته المطلية بحوّار جديد، كأنها عمامة شيخ مهيب، كان قطيع من العجائز يتبركون، بالعتبة، ويلثمونها بشفاههم المقشرة الحائلة اللون، ويتناولون الخلعة الخضراء من يد خادم المقام ويقبلون يده، ويغدقون ماتيسر من القروش المقدوحة زكاة على المقام. وكان بعضهم يقدم قرابين من الخرفان، يذبحها الشيخ الخادم وينال نصيبه الأوفر منها، الغبار من الطرف الشرقي، يتصاعد من حوافر الخيول المتسابقة، وجريد النخيل يهتز في الهواء، يوسف ابراهيم مبارك يعتلي صهوة جواده "غبيان" كأنه فارس في صحارى الجاهلية، ويتباهى بقوة جسده أمام خضراء ابنة عمه، وزاهر بن رشيد مبارك، يركب فرساً مثل حمامة محجلة قوائمها بالسواد، ويصطف بجانب ابن عمه، وعشرات المتسابقين على خط واحد ينتظرون بدء السباق، وجموع الناس

اتخذت مرتسم صفين متقابلين متباعدين عن بعضهما، لتفسح المجال للمتسابقين أن يلعبوا الجريد كما يشاؤون. كان غيلان الجعفي والمعلم نبيل السواحلي وأيوب السارح وأهالي غويران الوطا يقفون على الصف الآخر الموازي، ليتفرجوا على السباق، كانت خضراء في فستانها البنفسجي الرائع التلوينات، تظهر وكأنها أميرة من أميرات العرب، وعلى وجهها سيماء الكبرياء والعزة، انطلقت الخيول مثل الريح، وزاد الغبار تطايراً، غيبَّ المشخصات وراءه، لم تبنْ منها إلا ظلال شبحية تلمع في الضحى. حاول غيلان الجعفي أن يشعر خضراء بوجوده، ولكنها تعامت عنه، تجاهلته، فتسرب إليه إحساس حنظلي، وهبط إلى داخله، وراح يلسع نفسه سائلاً ومجيباً: "لماذا يا إلهي خلقتني من عائلة شديدة الفقر والمسكنة؟! لماذا حكم عليَّ أن أحمل صليبي منذ ولادتي؟! قذفت في براري بؤسي خضراء مبارك ذات الغنى والنسب المتعالي، والفتنة الكاسحة. لماذا يَعْلُق قلبي بالمستحيل" وتنزت دموعه من عينيه، أحس بأن شخصاً مجنوناً يقهقه بالفراغ من خلفه، انجلى الغبار في عودة المتسابقين عن "عبيان" حصان يوسف ابراهيم مبارك، يشرُّ الخيول ويبزغ في المقدمة، وراكبُه يتلاعب بالجريدة كأنها رمح سمهري، وتتلقاه خضراء وتقدم له باقة حمراء من زنابق برية، وتمسك بعنان فرسه حتى ينزل عن السرج ويتمسح بشعرها الليلي المسترسل، صحارى من المرارة والخيبة، لا حدود لها، انتصبت أمامه، خنجر بدائي يطعن جسده. استحال العالم الخارجي ظلالاً باهتة، ألوان الفساتين، ورائحة الصبايا، ورجات الطبول وبحات المواويل، ونصاعة الربيع، كلها أشياء راحلة لا معنى لها، انتبذ مكاناً قصياً عن الضجة، هبط إلى نبع الحورة، في أسفل السفح، وانزوى في قلب رعش دهري، بكى في صمت مقرف، انسلت صور الماضي في مخيلته بكل دقائقها؛ مدرسة غويران المزار في أول نشوئها، رشيد مبارك مع صديقه الكولونيل الفرنسي، يقصان الشريط الحريري لتأسيس أول مدرسة في هذه المنطقة الجبلية، أهالي المنطقة اصطفوا على الطريق المفتوح جديداً المؤدي إلى ساحة المدرسة. كان في صحبة والده ابراهيم الجعفي يتفرج على هذا الاحتفال الرسمي، كم صفق الجميع لرشيد آغا مبارك، وهتفوا باسم الضابط الفرنسي صديقه، حيث أقيمت المراسح، ورجت الطبول، واهتزت غابة الشيخ اسماعيل بمواويل العتابا والميجانا وترنحات أبو الزلف، وفي ضوء قمرة تشرين الشفافة تلاقى بخضراء التي كانت طفلة آنئذٍ، شديدة الحركة، تنتقل من مرسح إلى آخر، وتراقب العالم بعينين تغمرهما دهشة بريئة لم يكنه سر تلك المشاعر التي عصفت به، وهو يترصد عينيها المرجيتين اللتين كان شعاع من البدر التشريني يخبُّ في أنسهما، ويتراقص فوق شعرها الليلي المسترخي على كتفها الناحل،

بشكل جدائل ثلاث، لم يدر عمق تلك الرعشات التي جذبته إليها، رغم أنه لم يكن قد أدرك الحلم، كان يسمع بآل مبارك وتعاليهم وغناهم، ويرى محمود مبارك يزورهم، ويسهر ليلاً عندهم، ولاسيما في الليالي التي تسري فيها روح الصيف، وتغني الصبايا وجدهن وأشواقهن في عمق الكروم وتغمغم الطبيعة بأغنيات الجنادب وخرير المياه في الجوبات المنخفضة.

كان يرميه في جب الحيرة، السبب المبهم الذي يدفع بالشيخ محمود إلى تمضية السهرة في بيتهم الطيني الوضيع، وفوق مصطبتهم المسقوفة بأوراق القصب البري، وأغصان الصنوبر المقطوع من الغابة، ويزيده تساؤلاً، حينما يلمح أمه وطفا تتأمله في حزن، ويسمر ناظريه في ضاحي وجهها، وينغرز بهما في مؤخرتها المترجرجة، كأنه يريد أن يعريها بنظراته الساهمة، ويسترسل غيلان الجعفي، زوايا هذا الماضي، يقلّب صفحاته. المدرسة تفتح، يلتقي مع خضراء في صف واحد. الحب يترعرع في صمت الرنوات، المعلم نقولا أول من علّم في المدرسة، كان طاعناً في السن، مذعناً لكل أوامر آل مبارك، ودمية في أيديهم، يأكل من فتات أطعمتهم، ومعازمهم، كان يجيد الفرنسية، ولكن معرفته بالعربية، ضعيفة، يتغنى بعظمة أمجاد فرنسا وتاريخها، ويمزج اللغتين في لكنة غريبة، يقال عنه: أنه تربى في مدارس الجزويت في لبنان، واختاره المستشار الفرنسي بطلب من آل مبارك، ووساطة الكولونيل الصديق. كان أكره ماعنده أن يتحدث عن مآثر العرب وتاريخهم، ويصفهم بأنهم برابرة وبدو غير قابلين للتحضر، وهذا مادفع غيلان الجعفي إلى المغالاة في حب التاريخ العربي، والإغراق في ترتيل القرآن وحفظ سوره، وإجادة اللغة العربية في قواعدها البسيطة، من خلال دراسة الشرتوني بأجزائه الأربعة، حتى أنه كان ينزل مع والده إلى قرية التلاَّت التي قبر بها أعمامه الثلاثة الذين قتلهم الأتراك في زمن همجي، ويمضي أياماً عند خاله الشيخ عمران الذي اشتهر بعلمه وزهده وتقواه، وكانت مكتبته تضم تراثاً تاريخياً خصباً، ومخطوطات دينية وفلسفية، وقد وجد فيه خاله، مواهب كامنة، وذاكرة لاقطة ومشروعاً إنسانياً يُبشر بعطاء واعد، بينما كان غيلان الجعفي غارقاً في ماضيه يستمطر منه الصور، ويُنزف منه التداعيات، إذ به يسمع حركة عند نبع الحورة وكركرة ضحكات أنثوية، فخرج من مكانه، فلمح اشتهاء ابنة هلوك تسترخي فوق صدر رجل غريب، يلبس الزي العسكري الرمادي وقد نفرت شعراته الغابية من خلال قميصه المفتوح، وبانت حيوانية في حركاته، وهدهداته لنهديها وتمرغه بجسدها وشفتيها، ومداعبته لها. فانتفضت على صوت الحركة، وأنهضت رأسها بسرعة وغطت ماعري من جسدها. التفتت خلفها كظبي أجفله صياد مباغت،

حملقت مذعورة، ارتبكت في موقفها، تعرفت على غيلان الجعفي. أبعدت الرجل الغريب، ونطقت في مذلة:

– سأشرد مع هذا العسكري اللي عرفته من عيد الزهورية الماضية وتواعدنا على الزواج، والسكن بالمدينة، والله ضجرت من الحياة مع البراغيث والوكف والفقر. أمي لا تطاق.. آل مبارك أنهكونا بطلبات مقرفة والنيل من أجسادنا، لي عندك طلب أبوس يديك فيه، لا تخبر ماشفت، قبل غروب الشمس، سلامي إلى غويران الوطا، وجيران البؤس، وقول لأمي أن تسامحني.

نهضت من مكانها واتجهت غرباً لحق بها الرجل المزهو بصيده، غدا ظلهما يختفي وراء الروابي، ويهبط في السهول المفتوحة على زرقة البحر، أحس غيلان الجعفي بحسرة طافية على فراق جارته، وميل كاسح إليها لم يفهم له تعليلاً، لماذا يأسف على اشتهاء ولم يجد في حياته أي ميل نحوها، بل كان يمقت تلك السمرة الغامقة التي تمسح وجهها، وذلك الوجه المدَّور كلعب الأطفال الذي لا تعبير فيه.

عرَّج من جديد على المقام، كانت الظهيرة تشتعل، والعرق يتصبب من أجسام الراقصين، والقادمون إلى العيد من القرى البعيدة، انكفأوا إلى أفياء الغابة، فتش عن أختيه، فوجدهما تفيئان إلى جذع السنديانة العتيقة تتفرجان على قرد صغير مدرب، يقلد بحركاته المرأة الصبية، التي تعجن الطحين والمرأة العجوز بحركاتها الضعيفة، كان صاحبه يرقصه على صوت الدف ويشير إليه ليقوم بتلك التقليعات، وكان نبيل السواحلي وأيوب السارح مأخذوين بتلك الرشاقة القردية، وقد بهتا لما رأيّا غيلان الجعفي قادماً وعلى وجهه تساؤلات وأسى مبهمان. نهره أيوب السارح كعادته، وتصاعدت من فمه رائحة العرق، ترنح رأسه قليلاً، سحب قنينته المعهودة، فكَّ سدادتها الفلينية، ارتشف منها رشفات مسموعة، مسحها بكمه ومدها إليه قائلاً:

– هذا حليب السباع، ينشر قابلية صوفية إلى الامتداد والفرح، يزيل صدأ الهموم، يخترع تلاوين من الأحاسيس، لا شيء ينسيك رعب الواقع إلا دبيبه في عروقك، إذا لم ندمر بعض حواسنا لن نصل إلى الصحو المسحور..

افتر ثغره عن ابتسامة ساخرة، قبض على يد غيلان الجعفي، سحبه إلى جذع السنديانة، أسند ظهره عليها، وضع قنينة العرق أمامه وصرة من البذورات وخبزات فيها حلاوة نفيشه، كان أيوب السارح يمزمز بها، ويتعجب الناس بميله إلى هذا النوع من الطعام مع العرق الحليبي، سرعان ما افترش شملته، مهدَّ الأرض، نزع عقاله عن رأسه، التمع شعره الأشيب الذي تشوبه شعيرات سود كأنها بقية

أحلام فضية ترتعش في غبشة الكهولة، عصفت بغيلان الجعفي قابلية قاتلة إلى تغييب ذاته، والتطويح بتلك الكوابيس الجاثمة على صدره، كأنها مخالب وحش أسطوري، أمسك بالقنينة وصبَّ نصفها في جوفه الظامئ إلى التخدير، غرغرت عيناه بدموع خانقة، تعجب المعلم نبيل السواحلي من هذا التصرف المهلوس، وهزه قائلاً:

هكذا يشرب الذين يريدون أن يغلقوا كل نوافذ حسهم بالعالم. ماعهدتك تتوخى أن تدمر حواسك. ماالذي أودى بك إلى هذه الهاوية، أمِن أجل امرأة من أسرة مبارك، يلفك الضياع، وتهرب حتى من أهلك، فهذا التصرف نقيض لدرب الرسالة التي نود أن نحققها.

أنْشَدَهَ أيوب السارح من كلمات المعلم في هذه الأوقات الخاصة، وألوى شفتيه انقباضاً، وأفرغ مافي القنينة بكرعة واحدة، ونهض بسرعة مجنونة صوب الدمجانة المملوءة عرقاً، وطلب من البائع أن يملأ له قنينته كانت الدمجانه مطروحة إلى جذع خرنوبة برية وارفة الظل جثم حولها لفيف من السكارى، تناهى إليه صوت أليف لديه، لم يميزه في البدء، حتى تقرى صاحبه الذي نهض مرحباً، واحتضنه في حرارة لقاء مباغت بعد فراق طويل، وهتف قائلاً:

– منذ زمن بعيد لم أشاهد حضرتك يا أيوب، هل نسيت أيام سفر برلك. عصابات "الشتا" والمجاعة الكبيرة، يوم كنا كالكلاب المسعورة، نفتش عن "القريصة والهبولة"، ونحاصر البيوت المنعزلة من الأغراب، وننقبها من سطوحها الطينية، وننزل من الوجاق بالحبال المتينة، أوف يازمان! تتذكر يوم حوصرنا في الحرشة وأمر الشاويش التركي بحرقها عندما أعيته الحيلة باصطيادنا؟ كيف شبت النار في الأشجار الصنوبرية، وشعرنا بأننا وقعنا في شراك الموت حرقاً، والله لولا المُغر العميق في قلب الأرض، وياللي سهل علينا الهرب، لكنَّا في عداد الموتى، ولطلع العث على قبورنا.

ارتعشت ذكريات الماضي من مراقدها، اهتزت بحيرة الأعماق الكامنة، شعر أيوب السارح بأن طوف الماضي يذهب به بعيداً، ومغاليق المخيلة تفتح مصاريعها عن زمان متخمر بالفجائع والممارسات الخاصة، فهفا قلبه إلى أعشاب ذلك الزمان العتيق؛ وَرَبَت على كتف صاحبه، "دوّاس الليالي" الذي كان نموذجاً حياً للمغامر البالغ الجرأة، لا يعتريه خوف من خلوات الليالي المعتمات، ولا ظلمة كوانين السود في الأحراج المقفرة والمقابر المنعزلة، ولهذا أطلق عليها دواس الليالي الذي كان يهاجم الضبع في وجره، ويقنص الأفاعي في أدغالها، وبقي سنين عدة مُطرَّداً،

بعد أن أهدر الأتراك دمه، وأُعْفِي عنه بعد خروجهم من البلد، وعمل كشوباصي في مزارع الأغوات، يخيف من يتجرأ على النيل من أرزاقهم وأشجارهم، ورغم مظهره القاسي فقد كان يضم قلباً رحيماً بالفقراء والمستضعفين، ويساعد اليتامى والمعوزين، كفه سخية فلا يبخل بشيء، وكان أقصى متعه المنحرفة، أن يتنصب إلى تأوهات النساء وهو يضاجعهن، ويسكر برعشاتهن وانشدادهن إليه في جنون شبقهن، إذ كان يعيد تلك الصور ويفليها في غطبة، لم يقتنع أن يرتبط بواحدة منهن، لأنه كان يؤمن أن الإنجاب عملية تافهة، والحياة لا تستحق أن نجني على من بعدنا، ولما كبر في السن لجأ إلى العرق المسلس ذي اليانسون الوفير، والمستقطر من العنب الجيد، وصار يجمع الآخرين من الشباب ينادمهم ويحكي لهم عن مغامراته في اقتناص النساء، والطرائد والمخاطر. استغرق الصديقان في نبش الماضي، ونشر نشارته وجزئياته في لذة غامرة، وكانا كلما انتهيا إلى وصلة حزينة، شربا خلفها كرعة من القنينة، وشاركا غيلان الجعفي في سكرتهما الموحية، حتى نفذت السكرة إلى صميمه، ولم يكن معتاداً على هذا النمط، فأحس بأن الدنيا تدور وأن العالم الأصم الذي كان يحاصره بشخص خضراء قد أخذ يتنوع في تعذيبه، وتنبثق منه العينان المفترستان، وتستحيلان شبحاً مفزعاً، ومخلب قط بري، يتهيأ للانقضاض، لوّح بيديه في القفر النفسي كأنه يتوخى أن يبعد هذا الشبح، لاحظ أيوب السارح الرعب المبثوث في ملامحه، والانتحارات الصغيرة التي تطغى عليه، فهزه من كتفه وقال مؤنباً:

– أي لون من الرعب ألمحه في وجهك؟! أي غول تلبَّسك واستقر في محجري عينيك؟! ظننته ملك الموت ينقضَّ إلى حنجرتك لينتزع روحك من جسدك. عبَّ جوفك من هذا الترياق وأبعد هذا الغول عنك.

تقدم بالقنينة بعد أن خضَّهاَ، وزاد عليها من الألفية حتى تكون أشد فاعلية، وأعطاها لغيلان الجعفي الذي صبَّ قسماً منها في جوفه فاستراح قليلاً على جذع الخرنوبة وهمس في ضراعة:

– إنها هي التي تعرفها، زحفت بعينيها إليَّ من خرائب الخريف، تقمصت شبحاً يريد أن يلاشيني، ويضغط على صدري، إنه العالم الذي تجسد فيها بكل صنوف عذاباته، وغواياته، ماكنت أتخيل أنها قادرة برنوات حالمة تقدمها إلى مخيلتي، أن تسحقني، تصيرني نبتة "سلبين" يابسة يخشخش فيها فراغ الموت والجنون، نحن نجهل سحر الأشياء وفعاليتها مادامت حاضرة لدينا، وحينما نشعر بإمكان بعدها عنا، تقفز في غيابها وتصبح أكثر حضوراً.

استشاط أيوب السارح غضباً، اكتسحه عاصف من الأسى، بصق على الأرض، أومضت في عينيه بارقة حنان دفين. نهره بصوت مسموع، ونادى كأنه في العراء البعيد:

– أتسقط من أول هزة؟! مثلك مثل التينة المخوَّرة تقع عند أول رعشة من الشجرة، سوف تحتاج إلى كل مطارق التاريخ حتى تجعل جسدك رمحاً قوياً، مازالت حكاية أحد رفاقي محفورة في قحف رأسي. يوم هربنا من عسكر تركيا، وكنا في اليمن وقتئذ كنا نقاتل رغماً عنا، بلا معنى فتلقفتنا الصحارى، والقفار المترامية، وتشققت جلودنا من هول الظمأ والجوع، وفي أحد الكهوف في جبال السراة نقرت أفعى هائلة مرقطة، إصبع أحدنا، فوضعها على صخرة بازلتية، وشهر سكينه الياطقان، وانقض على إصبعه، فانفصلت عن كفه، والدم يتفجر من يده اليسرى، وربطها بكم قميصه الممزق، وعاد إلينا كأن شيئاً لم يحدث ونطق بكلمات مازلت أذكرها: الرجولة الحقة تجعل أجسادنا حراباً مسنونة، وتصير أيدينا نصول سيوف قاطعة...

كشر دوّاس الليالي تكشيرة صفراء، وانكشفت أسنانه المنخورة، وتطلع إلى صفحة البحر الغربي، فطالعته غيوم سود، راحت تنتشر في الفضاء، وشعر بحدسه الطويل ومعايشته لتقلبات الفصول، بأن هذه الغيوم الربيعية تحمل في طياتها أناشيد مطرية، تسكبها الطبيعة كل عام في عيد الرابع من نيسان أو بعده بأيام، كأنها تريد أن تشارك الإنسان في طقس الفرح، لوّح بيديه وانغرزت عيناه في الآفاق البحرية، وصرخ كمن يستوقد الذكريات الخالية.

– الطبيعة اللي عما تنذر بالمطر، حملتني إلى براري سفر برلك، جزمتي تمزق نعلها مابقي منها إلا الإطار الخارجي، لحمة قدمي تشققت، وماتت. صرت أدوس أشواك البرصين، والديس البري، دون إحساس بها، في إحدى المرات نزل علينا المطر بشدّة، ركضنا فوق أرض مليئة بالشوك والبلان فوجئت بأن قدمي اليمنى عما تعرقلني في المشي، فوقفت فإذا أفعى مغبرشة، علقت أنيابها في لحمة قدمي الميتة، فأسرعت بهرس رأسها بمشط قدمي، وكشطت أنيابها من اللحمة الميتة، بسكيني الحادة حتى لا يتسرب السم إلى العروق الحية. وكان معنا، في تلك الغارة "فراس الغوري" مضرب المثل بالشجاعة والجسارة اللي– غربله الرصاص، واحزني عليه، من عصابات الشتا المناوئين لنا، وبقي في هاالجفنة، حتى تفسخت جثته، ماقدرنا على دفنها وأكلتها النسور والضباع، من يومها وذكراه تهيج البكاء في عيني وترميني في جب الحزن.. والأسف على شاب في بداية

تفتحه، انقصف ومات.

خبط برجله الأرض، بدت تشنجات مهلوسة، في ملامح وجهه، غطّى عينيه بيديه، راح ينشج باكياً، تعجب أيوب السارح مما أصاب ربيب صباه وهو يعرف أن كل أهوال الحياة ومصائبها لا تبكيه، وأمسكه من كتفه وحنا عليه في أخوة مقتولة بالرحمة وقال:

– أواه أواه! أتبكي يا دواس الليالي يا أبا الأهوال والرعب والجسارة، عرفتك فيما مضى، صلباً كعروق الشربين، قوياً كصخور الشعرا ورعوشها. ماذا حلَّ بك؟! عرفتك لا تهزم ولو تحطمت....

نهنه دوّاس الليالي من دموعه، ومسحها بكم قنبازه وأجاب:

– أوف أوف إنه الزمن، يأكل أحلامنا، واعتزازنا بقوتنا.

– واحسرتاه مات أكثر اللي عايشتهم، وطلع العشب على قبورهم، زنوبة ذات الردفين، والرعشات الجنسية الخاصة، استحال جسمها دودة في قلب الأرض، خزامى ذات القد الأهيف مثل حورة الينابيع والجدائل الشقراء كنت تقول عنها إنها بقية أميرات الشمال في جبالنا الشرقية، انسحق قدها، وأصيبت بالشلل من جرّاء وقوعها من رعش صخري، وهي الآن عجوز يبكيك منظرها وفراس الغوري سيد الجسارة وفارس الليل والغزوات، كان يحلم بجمع برطيل ابنة عمو من المغامرة والسطو، تغربل جسدو، وتفسخت جثتو، وانقبر حلمو، وكان قد خبرّني بأنو بدو يتوب، ويرجع إلى صوابو لأن البرطيل كاد يكتمل.

اعتصر إحساس دفلي كيان غيلان الجعفي، أن عمره في هذه الجلسة زاد عشرات السنين، وأن محنته ليست إلا هباء أمام محن الآخرين، فغشيه خجل كريه، وأمسك عوداً يابساً، وراح ينكأ التراب، ويتملى هياكل الأوراق التي تساقطت في الخريف الماضي، ويفتتها في عبثية ممجوجة، انتزع أيوب السارح قرصاً من الشنكليش المزعتر من جيبه، قسمه ثلاثة أجزاء، ناول جزئين منه إلى نديميه، تنشق رائحة الزعتر، في الصرة التي كان يضع فيها أرغفته التنورية، وتلمظ قليلاً:

– رائحة هذا الزعتر البري، أعادتني إلى مراهقتي الأولى. حواسي كانت مفتوحة على العالم، كنت كلما مررت برابيتين متباعدتين يفصل بينهما درب صغير غير مأهول، قفزت في ذاكرتي صورة أنثى منفرجة الساقين، صخور الرابيتين البيض كانت تستحيل في وهج شبقي إلى نهدين بطرين بارزين في هذه الأويقات الخاصة، تواعدت وإيّاها أن نتلاقى في مرجة الزعتر البري، كانت خادمة في تباشير عمرها، تعمل لدى أسرة إقطاعية، مقابل مئات من الليرات، يقبضها

والدها الفلاح، كل عام ليطعم أبناءه الصغار الكثيرين، ولكن ابن سيدها الشاب، لعب عليها، افتضَّ بكارتها، طردها بعد اكتشاف أمرها، أسكت والدها مقابل خمس تنكات من القمح وبعض الدراهم. غير أنها تعلمت أشد الحركات إثارة للمتعة والانسجام، بين رائحة الزعتر تصاعدت رائحتنا الفطرية كحيوانين صغيرين تلاصقتا في ضمة واحدة. تلاشى الزمن، وفنيتُ سويعات في اكتشاف... الجسد وتحولاته وجنون المراهقة، ومازال ذلك الطعم عالقاً في ذاكرتي، كأنه حدث البارحة. باعها والدها إلى أحد تجار الرقيق واللحم الأبيض، وغابت في مسالك السنين، وصارت أميرة في بلاد النفط كلما أغرقت في سكراتي، واشتممت رائحة الزعتر، تصاعدت كنافورة بللورية في ذاكرتي مشحونة باللوعة، ارتجت بحيرة الأعماق، ارتطمت أمواجها في شطآن نفسه، شعر بأنه قشة صغيرة في مهب ريح الزمن، يد غولية تمسك بخناقه. غثيان أصفر بلون التحسر يتمشى في عروقه، فنهض من مكانه ماسكاً يد غيلان الجعفي، راح يدور على المراسح، ويتمسح بالنسوة؛ القدر راح يقهقه ساخراً منهما، طيف خضراء مبارك تمسك بيد يوسف مبارك وترقص معه، وجدائلها تترنح على وجهه وكتفه، وهي مأخوذة في حركاتها وقد تورد خدّاها ؛ وزهت شفتاها بلمعة إغراء ساحرة. أحس غيلان الجعفي بأنه وسط صحارى لا حدود لها، تنوشه ذئاب، تعوي من حوله، وتذرو الرمل في عروقه، الرمل الرمادي يزحف بشكل فزّاعات، ويرتسم بصورة غريمه يوسف مبارك يقهقه من خلفه ضحكات الفوز والشماتة، مخيلته التي ألهبتها السكرة، فتقت صدوعاً لا نظير لها من الأغوار والعذابات، لا يدري ماذا يفعل؟ أيبكي وقد لاحظته عن كثب، أيمزق ثيابه؟ وهو لا يملك غيرها؟ أيطعن جسده بخنجر وهو لا يملكه الآن، فرَّ هارباً صوب مغارة السفح، وانطرح مغشياً واختفى العالم الخارجي، ماتت الضجة، تساقط المطر شديداً، استفاق على نداءات تناديه وهو بين نصف الوعي، عاد إليه صحوه، انزاح الضباب الذي كان يتمشى في تجاويفه، عرف أنه نداء معلمه نبيل السواحلي وأيوب السارح، فهرع إليهما وبصحبة أختيه، أقفل راجعاً إلى قريته يجرجر قدميه كمن فقد أبويه، كان عيد الرابع قد انفضَّ وتفرق الناس إلى ضياعهم ومساكنهم، حاملين معهم وقدات من المتع اللذيذة تقيهم غوائل زمن رتيبي، كان المساء ينشر غبشته، وروح المطر الربيعي ترف في الأجواء الجبلية، فيتسرب البلل إلى الأصبغة، ويمسح الحمرة عن الخدود والشفاه النسوية ويذيب الكحل في العيون، ويجري إلى الأثواب الداخلية التي ترتديها النسوة ويجعل طيات فساتينهن الخارجية ملاصقة لأجسادهن، ومظهرات تراكيب برازخهن، وبروز أردافهن، وكانت الجموع المنثورة على الدروب والمفارق وبين الأحراج، أشبه بقطيع

من الماعز يرتعي فوق القمم، فاجأته عاصفة مطرية وكانت ولولات النسوة اللواتي فقدن أحذيتهن، وغطاء رؤوسهن، وسيلان مساحيقهن فوق وجوههن، تختلط مع همهمات الطبيعة الغامضة والرعود القاصفة، كأن القدر الذي يلطو وراء الأيام ضبع فلاة قد اقتنص طفلاً وادعاً، وهو يرتعي سحابة نهاره في فرحه الإنساني مع أترابه، واقتاده إلى الغابة المشحونة بالرعب، وراح يكركره في خاصرته، ويضحكه حتى الموت قبل أن يلتهمه في جوفه، ويقضقض عظامه في مأساة عريضة، ضمت المفارقات الأزلية بين الحياة والموت، والفرح والعذاب، والأمل واليأس، في ملحمة الصراع الطويل اللامتناهي، الذي عاشته الإنسانية منذ بدء الخليقة وحتى نهاية آخر الأزمنة.

❐❐❐

الفصل الخامس

العرس المأساوي

دارت عجلة الأيام لاهثة، بعيد عيد الرابع من نيسان. امتد نصل بلون المأساة إلى صميم غيلان الجعفي، عضَّه أربعاء ذئبي بنواجذه، تناهى إليه عقب عودته إلى زيارة خاله الشيخ عمران أن عرس خضراء مبارك سينعقد في تلك الليلة، العالم الخارجي انقذف أغوالاً سوداً، الليل زهرة حالكة، يلطم شحوبها صفحة مخيلته المتوقدة، تنز الصور الحزينة من دماغه، مثل خوصات زيت في مكبس الزيتون، وينثال رماده في شرايينه، انشطار غريب مثل تصدعات الزلازل، تغلغل إلى كيانه، شعر بأنه يهبط إلى تلك الدركات السفلى من اللاشعور كأنه أورفيوس الأسطوري ينزل إلى العالم السفلي المظلم، غيرانٌ تفتح أشداقها، وتتقذف أمام بصيرته، عيون مخثرة بالغدر، تحمل خناجر حادة، تلطو وراء صخور بدائية، ندَّت عنه آهاتٌ، وغمغمات كلمات (آه.. آه... لا قرار لهذا الليل الخنزير، لا نهاية للحزن الملطوم، أكاد أستحيل مسخاً، حلم الحب الأول مات في العراء، خضراء صحوة الضوء، تتزوج رجلاً آخر) بدائي من أكلة لحوم البشر في القفر القديم، ينقض عليه، يحمل رمحاً مسنوناً، صرخ كمن يغرق في الرمل المتحرك: (أمي أمي... أكاد أجن) أمسكته أمه وطفا واحتضنته، لتمتص رعبه الكوني، وبثت فيه دفقة حنان لعلها تخرجه من قمقمه المسكون بالخواء، وهمست قائلة:

– سنك صغيرة يا بني، على شرب هالسم الممزوج بالحلاوة. نصحتك، لا تعلق قلبك بواحدة من آل مبارك، والله هي أفعى بصورة امرأة سمَّها يسيل برفات عينيها الخضراوين، حاول أن تنساها، ياقرة عيني فالزمن بلسم للجروح..

سمَّر الوالد الشيخ ناظريه في ساموك البيت المجدور، التقطت عيناه صورة الحية السوداء التي تختبئ، منذ سنين طويلة، خلف البلان والطيور والقصب البري، وتمرح في السقف، وقد ألفتها العائلة، وكانت نظرتها الجامدة المشفقة على حاله من وراء الساموك، تملأ ذاكرته بالتداعيات الوحشية التي سببها لهم آل مبارك، الإذلال المعجون بالقهر، تسخيرهم في العمل بلا مقابل عبر حواكيرهم

التي تنجرف سنابلها كل عام، إرغامهم على تكبيس جيادهم الصعبة المراس، الكدح المريع في الأراضي الجبلية، ملاحقتهم لنساء غويران الوطا أمام عيونهم، وراء الصخور، وجفنات الغار الظليلة، حتى أنهم لم يتركوا امرأة مقبولة الشكل، إلا وحاولوا اقتناصها، وإغوائها وتعريه ينبوعها، وأخيراً ينهالون على أغلى مشروعات حياته، فيقوضونه ويرمونه في هاوية اللاوعي، ويتركون ابنه الذي حاك حوله نسج الأماني البيض، مطروحاً أمامه تعتصره الوساوس وتأكله أفعى مبارك أشد ضراوة وسماً من أفعى الساموك، اقترب من ابنه، وراح يقرأ سورة (يس) وكل ماحفظه من التعاويذ ليخرج العفريت الذي عشش في عروقه، ويزيل رعشات البرداء من جسده، ويمرر أصابعه الرحيمة بين خصلات شعر ولده، ويسكب دموعه في صمت، ويمسك قرناً من الثوم الجبلي الحاد، ويُنَشِّقُ به أنف ابنه المغشي عليه، وأخيراً استفاق غيلان الجعفي من العتمة، صعد من أغواره المبهمة، والتفت يمنةً ويسرةً، رأى والده بجانبه، يحتضنه في قلق شرس، ويفرك له جبهته، وأمه وطفا تكبس له رجليه وأختيه تحملقان به مأخوذتين بشحوبه وتصدع نفسه، كانت اللوحة المأساوية التي رسمتها النار في الوجاق وتراقص الأشباح على الحيطان الطينية، والسراج التنكي اللاهث، وصورة عائلته المنكوبة الحانية على جرحه النفسي، واللباد الحائل المطروح في الزاوية، وجمود عيني أفعى الساموك، والقصب والبلان المسودان من الدخان في السقف الطيني، وطعم النار في قرمات الريحان وشبابته المعلقة في وتد الجدار ذات الثقوب الثمانية، ورائحة الثوم الحادة، ومذاق غمغمات الليل وأصداء تراجيع طبول بعيدة كلها إرهاصات صادمة لفتح دروب الوعي، وملامسة العالم الخارجي والتقاط أبعاد المكان الذي غاب عنه زمناً غريباً، وأشار إلى أخته رباب هامساً:

– لا تخافي، اذهبي في هذا الليل المملوء بانتحاراتي، الصغيرة إلى غويران المزار وقولي للمعلم نبيل السواحلي وأيوب السارح أن يأتيا إلي بالسرعة القصوى، إني أحتاج إلى قشة أتمسك بها وأنا أتأرجح بين شقي هاوية سحيقة....

أطبق عينيه من جديد، نهض الأب المنكوب، تلمس مع ابنته رباب الدرب المعتم، المتعرج صوب غويران المزار، خشي على ابنته أن تذهب وحدها في غمرة هذا الليل المجنون الذي أغرقه بأحاسيس الفجيعة، وترقب مصائب جديدة، لأن الزمن ومايحمله في طياته من المفاجآت، علمه درساً بليغاً، أن المصائب تأتي مجموعة، وتنصب على رؤوس المفجوعين. بنات نعش اللواتي شغف بسرحاتهن السماوية، منذ طفولته، ظهرن أمام عينيه بنقاب إنسان شامت، والهلال الذي تسلق قمم الشعرا وهو في المحاق، بدا جمجمة بدائية صفراء، لم يعد لذلك الليل الراكد

وراء الأشياء أي طعم، الدرب الذي قطعه آلاف المرات إلى مزار غويران، كاد يغيبه فيضيع بين المطاوي والمنعرجات، ولولا ابنته التي مازالت تحتفظ بصفاء ذاكرتها، لظل يتخبط في العتمة التي تزيدها الغابات والمرتفعات المحيطة بالسهل، دكانه وقتامة. عرَّج على السفح، طالعته مسارح الدبكة، وراء غابة الشيخ اسماعيل نيران مشتعلة تمسح الملامح. فانوس معلق في غصن السنديانة الضخمة يرسم صوراً مشبوحة من بعيد، الطاولات المحشوة بالمأكولات والأطايب وزجاجات الخمر والعرق المسلس من كروم العنب الجبلي، تصطف هناك أمام آل مبارك وضيوفهم الغرباء عن الديرة، لم يُدعَ من غويران الوطا إلى الحفل إلا الشيخ أحمد التقي والمعلم نبيل السواحلي وأيوب السارح، شعر ابراهيم الجعفي بحرج وضيق لا نظير لهما في حياته، انتابه خجل مقرف أن يأتي في هزيع الليل بلا دعوة، كان يتمنى أن تخسف به الأرض، لم يره المحتفلون لأنه كان آتياً من قلب الظلمة، وهم في بؤرة الضوء، اختبأ خلف جذع شجرة البلوط الهرمة الراقدة على عتبة المزار، انسلت ابنته صوب الضوء، خلف الطاولات والكراسي، راحت تفتش في توجس عن نبيل السواحلي، وأيوب السارح، وجدتهما في آخر الصف الثاني بجانب محمود مبارك يتمايلان من السكر، ألمَّت بها حيرة قاتلة كيف تبتدئ، ارتجفت شفتاها، أفعمتها رائحة العرق المسلس وتطلعت وسط الحلقة، تلامحت عيناها خضراء مبارك مكللة بلباس أبيض شديد الشفافية، كأنها شبح ضوئي يلتمع في الوسط على كرسي عالٍ، وبجانبها عريسها يوسف مبارك يتبادلان النظرات المهموسة، ويتشربان مواعيد آخر الليل، ليغتبطا بخلوة الزواج الذي أقسم رشيد مبارك أن يدمجه مع الخطبة في ليلة واحدة. عصف برباب غثيان مقرف، سال حقد أصفر في شرايينها، كادت أن تبكي أسى لما حل بأخيها العاثر الحظ، اقتربت من نبيل السواحلي وأيوب السارح اللذين بوغتا بمجيئها في هذه الأوقات الغريبة، وهمست في خفوت:

– غيلان أخي، يطلب النجدة، يكاد عقلو يطير، روحوعما تنازع وفاجعة كبيرة راح تحل بيتنا...

هرولت وراء الصفوف الخلفية، اختفت في العتمة كأنها شبح مطرود غيبتَّها المسالك النازلة إلى غويران الوطا مع والدها المسحوق، ثقبتهما من الداخل أحاسيس مجهضة بأن لا جذور لهما في هذه القرية اللعينة وأن المستقبل هو راكد كالحاضر، إذا لم يغيروا المكان، ويترحلوا جميعاً في أرض الله الواسعة، وتولد تصميم في عائلة، الجعفي على أن تفتش عن مأوى أكثر دفئاً ورحمانية، يقيها الرسوب في مهاوي المسوخية النفسية، ويبعدها عن كونها أرقاماً ميتة لا معنى

لوجودها، تعبر الحياة مثل وريقات ذابلة، تنحدر بها سيول جبل الشعرا، لتقذفها في مطاوي النسيان، ورعوش الانحدارات قبل انصبابها في البحر البعيد.

***

"الفجر الشاحب" نقيق الضفادع المعدني، صياح الديكة، معمعة عنزات سرحان الخليط في الصيرة، هدير الجداول المنسابة في سفوح الشعرا أشلاءُ أصوات غامضة تتعالى من البرية المخيفة. كلها كانت في آذان عائلة الجعفي كقرع نواقيس جنائزية تنبئ بكارثة تحل بهم، الشخوص المتراقصة ظلالها فوق جدران بيت الدفش الشبيهة بحبلى منتفخة في الشهر السادس، والنار في الوجاق على غير عادتها في هذا الفصل، تنتحب فيها الجمرات، وتلتمع بصاتها تحت الرماد.

المعلم نبيل السواحلي وأيوب السارح يحنوان على غيلان الجعفي وينشران في مخيلته الملتاثة التي تفور بالصور القاتمة، مسوغاً للتماسك والاستمرار وتقبل الصدمة. كانت هلوك الغاوية أكثر القابعين في الزاوية قدرة على تحريك خيط التفاؤل وانتزاع الضحكات والابتسامات ومسح الموقف بغلائل من النكات اللاذعة، إذ ضربت على عجيزتها المترجرجة ومسدت مابين فخذيها وقالت:

– كم هم مجانين نوع هالرجال! لو عرفوا الجورة واحدة، ولو تنوعت النسوان، ماطار عقلهم هيك، حيف عليك يا غيلان أن توقع في جورة ماتختلف عن غيرها، فالشكل والطعم كلها شِراك بتنصبها المرأة لصيد الزلم. إذا بدك بنتي نجلاء بجعلك تترجرج فوقها، ولها مثل رملة بنت آل مبارك، اللي كادت تطير عقلك من رأسك، ياحيف عليك...ياحيف عليك.....ياقلة عقلك....

قهقهت ضاحكة، حتى استلقت على قفاها، وسحبت سيجارة ملفوفة من طبقة ابراهيم الجعفي، وغدت تدخن في صمت وتراقب عيني غيلان الجعفي في حزن مقهور، وبشفقة بائنة، سافر أيوب السارح بنظراته إلى هلوك الغاوية التي لخصت المأساة كلها بأسلوبها الخاص، وتداعت إليه في لهيب النار وفرجاتها، صورة المرأة الأولى التي عشقها، وفجرَّت أحلامه وأثارت كوامنه، وأمضته بالشوق والتباريح وحرقة الجوى، وأضاع زمناً نفسياً لا حدود له في ترقب اللحظات المتوهجة التي يحظى بالترجرج فوق الجزيرة الفطرية التي أجادت التعبير عنها جارته هلوك، وأردف قائلاً:

– كم رميتني يا هلوك في تداعيات كانت منسية في قعر الزمن، وأرعبتني بالعري الحقيقي، إن أحلامنا أجمل من واقعنا، وإن الغلائل الشفيفة التي ننسجها

حول جسم المرأة وأشيائها الخاصة، أشد توهجاً وعذوبة من طعم عريها النوعي المكرور، كم ناطحت من الأجساد الأنثوية حتى وصلت إلى هذا القفر في علاقتنا بالجنس الآخر الذي تفور حوله أحلامنا كما تفور التنانير الجبلية بالتوقد والاشتعال، وبعد أن نكشف كل عريه، ينتابنا القرف والسأم ونفتش عن برازخ أخر، نتوهم فرادتها وخاصيتها، ورغم ذلك مازلت أحن بشكل مهووس إلى تجارب جديدة، وأتلمس جسم المرأة الناعم، ورائحة فوراتها وتخبطاتها المتنوعة.

أمسك بالمحراك المتفحم في رأسه، غدا يضرب الجمرات الحمر في الوجاق، فتتناثر رماداً في القعر، لا حظ نبيل السواحلي تلك المعاني التي أضرمها بحركاته، أوغل بعيداً في السقف الأسحم من الدخان، انكشفت عينا أفعى الساموك، وسقط في بؤبؤها الجامد، بريق النار، وتحركت قليلاً من وراء الطنب الخشبي. كان يعرف سابقاً أن هذه الحية أليفة، تناقلت عنها الحكايات الغريبة، أنها تنزل من السقف في غياب الأسرة، وكانت تهز السرير الخشبي حين تسمع بكاء الأطفال حتى أن وطفا الأم لمحتها مرات عدة، تلف ذنبها حول إطار السرير الخشبي، وتهزه في حنو، وتسكت الرضيع غيلان وتهدهد من بكاء ابنتيها اللتين جاءتا إلى الدنيا من بعده، وهاهي ذي الآن، تشاهد من السقف المأساة، وتحس بالحزن الحيواني، وتريد أن تشارك الأسرة في محنتها، بعدما استحال الأطفال كباراً، وتداعت إليه أسطورة الخليقة الأولى من سراديب الماضي، وطفت صورة حواء تطعم التفاحة الفطرية إلى الأب آدم وتذيقه طعم جسدها المتوهج، وتكشف له عن عريها الخاص، ورمانتيها الشفقيتين، فيتوه في الخطيئة والمعصية، وتغريه بالأكل من الثمرة التي حرَّمها الله، بإيعاز من الحية، وكانت الهبطة التعيسة والضياع في أقاليم الليل والنهار، ومعاناة السقوط في تضاريس الجسد الكثيف وفحيح الشهوة، لم يدر لماذا ترتبط الحية الأفعى في ذهنه بالمرأة؟ ألعل الحية كانت امرأة في الزمن السحيق، كما يقول أصحاب التقمص، وأشبعت جسدها متعاً على حساب روحها، فأوغلت في الإثم، وأكلت بنهديها كل ملذات العالم، وانطفأت في الحمأ المسنون، وتقمصتها حية وراء الساموك لم يمت كل نزوعها إلى احتضان مأساة الإنسان، ثقبته هذه التداعيات المفارقة، أراد أن يقطع تلك الخيوط العنكبوتية العتيقة، فتسلقت نظراته ملامح رباب المتفتحة كسوسنة الجبال على إطلالة الصباح. شعر بأنه يطرد الروح الثقيل من تلافيف دماغه، تسللت حزم فجرية من شقوق الباب الهرم، وبقبق غليان الماء في الإبريق الصدئ، وتصاعدت رائحة بنفسجية من خلال النقيع، حملته إلى مرجة البنفسج والزوفا الكائنة وراء الغابة، صبَّت الأم وطفا النقيع الحار في كؤوس خشبية نحتها الأب

الجعفي من الشجيرات الطرية ولبابها، وتعالت الارتشافات بإيقاع رتيبي أنيس. اكتسحت غيلان الجعفي أحاسيس التعاطف، كشطت عن أعماقه تلك الغمة القاتمة واللزوجة الوحلية، وافتر ثغره عن ابتسامة، شعر أن روح القطيع تسري في عروقه فتمنحه الدفء الرحيم، بعد أن كان يتردى في صقيع الخيبة، وتلفُّه قشعريرة البرداء والغثيان الأصفر. صفت سماء البحيرة في دهاليز نفسه الخفية. رانت سكينة فوق الموج الذي كان يصطخب، ويرتطم في أوجاره، ويحدث هزات تحتية، كما السفينة التي تعصف تحتها التيارات، فتدومها وتجعلها أشبه بقشة مترنحة، اندهش من تلك التحولات وتساءل في داخله (أين اختفت تلك الفزَّاعات المتوحشة التي قضمت أعماقي، وتلك الجرذان الساكنة هناك في السراديب المبهمة؟ أين ذلك الرعب الغولي الذي طغى بوحله الرخو، وانعكس أشباحاً غريبة تنعب في الفضاء الكامن في خفايا ذاتي؟ أين هربت خفافيش الليل البدائي وصور الانتحار والموت؟!) ندَّت عنه تنهيدة، تدحرجت على شتفتيه آهة مجروحة، ولا مس العالم الخارجي بكل مشخصاته، وخيمت عليه طمأنينة السطوح، وبروز الأشياء بمحسوساتها. ترجم نبيل السواحلي مغزى تطلعاته التي تطوف حول شبابته القصبية، واللهفة المشدودة إليها فربت على كتفه، وهمس في أذنه:

– هل لك أن تسمعنا صوت أعماقك، وتلهب القصب باحتدام نفسك وترسم لنا البراكين الخفية التي اشتعلت في حناياك، وهسيس الحمم العاطفية، ودوَّي الرعد القاصف الذي تأتى من تلك الزلازل والتحولات التي اعترتك؟ إنها الطريق المجدي، لتخفيف الضغوط عن تلك الهزات المُسْترة فلتحاول أن تجسد ذلك وترسمه باللحن والإيقاع لكي تمتصه ويخفّ ثقله الهمجي عن القيعان المجهولة.

أمسك شبابته، وراح ينفخ فيها، ويلتقط أصابعه عن الثقوب، ويفجر الأنغام،وينفث حمم العواطف، ويحمل أنين البحيرة الكامنة، ويحيل الأمواج التي كانت فريدة، إلى موسيقا مفعمة بالإيحاء، انفتحت مصاريع كانت مغلقة، عصفت بالأب ابراهيم الجعفي ذكريات منذ أربعين عاماً والتمع شريط كأنه مدينة مطموسة تحت خرائب الأزمنة في رمال الصحراء وسفَّت الريح عن وجهها، فتبدت معالمها؛ المجاعة الضارية في أيام سفر برلك، التشرد المريع في البراري، عصابات الشتا، التي كانت تنقب البيوت الطينية من سطوحها وتنزل إلى الناس فتسلبهم مؤنهم ومواعينهم، وتغتصب البنات البكر أمام عيون الأهل، وحينما هرب أبوه محمد الجعفي من الطاعون الذي اجتاح القرى، وأصبح البشر يموتون في الطرقات دون أن يجدّوا من يقبرهم، وضاقت الدنيا بمن فيها وسقط مطر ربيعي مثل تلك الأيام، وصارت السواقي أنهاراً، وعصف الهلاك بالعائلة، فلجأت إلى عبَّارة صغيرة فوق

ساقية، وانحشرت في ظلها هروباً من المطر، وكانت أمه خولة تخرج حلمتيها وتضعهما في فم أخيه الرضيع عمَّار لتنسيه بكاؤه وبلله، وكان إبراهيم الجعفي آنئذ في الثامنة من عمره وأخته ريما في السادسة، وفاجأهم السيل، وانقض عليهم كوحش كاسر وقذف بهم من الجهة الثانية للعبارة، وتمسكوا بأغصان الزيزفون النامية هناك، ولكن الرضيع عمَّار ابتلعه السيل وغاص في الأودية، وجُنت أمه ومزَّقت ثوبها، دقت على صدرها، ولولت، ذرفت الدموع مدراراً... انبرت تفتش في الطين الذي غادره السيل بلا جدوى، تحملق في سماء كانت غائمة، وكشفت عن سمائها العتيقة، وتلوح بيديها في فضاء شامت وتصرخ: اشبعي من قرباني يا ها السماء الحاقدة، وابتلع فلذة كبدي يا هلمتخبي وراء الغيب. كان كلما أوغل غيلان الجعفي في تلاوينه الإيقاعية، وتضاريس اللوعة التي تسري في الأشعار الشعبية والموالي وسكابا ورعشات الحنين في ثقوب القصب، أوغل والده معه في قعر الماضي، وتذكر حادثة العبارة المشؤومة، وغرق أخيه الرضيع، وابتلاع السيل لجسده الغض، وغيابه في الطين والطمي. لم يفهم لماذا خطرت له بحات الربابة في جنون مفاجئ؟ نهض إلى الصندوق القديم الذي ورثه عن أمه خولة التي امتلأ فمها بتراب المقابر، وأخرج الربابة من غطائها الباهت، ودوزن أوتارها، ومسح غبارها، وأقعى بجانب الوجاق، وارتسم على وجهه ظل من يودع الأرض ويرحل عنها، وتناوحت الربابة في بحاتها مع شبابة ابنه القصبية، وامتلأ البيت الطيني بنوافير النغم، وسطعت معاني قصية من خلف تلك الإيقاعات وأحست وطفا الأم أن علائم الرحيل والهجرة من جديد في أقاليم المكان تكمن في بحات الربابة، وأن ابراهيم الجعفي يقرع نواقيس الرحيل كما هي عادته، عندما تملؤه الفاجعة والقرف والسأم من المكان، ويتفجر بركان الأعماق بحمم لا قبل له أن بتحمل لهبها، وتزحف الجدر السود والمعوِّقات في طريق حياته، فيهرب إلى أمكنة جديدة، لعله يجد في التراب الجديد والأرض التي لم يألفها من قبل، بواكير حياة، وأجنة تتفتح عن رشيم يوحي بقابليات جديدة، تتخطى جحيم الآخرين، وترحل في حماسة صوب آفاق مكانية اكثر دفئاً واحتضاناً لمأساة الإنسان المسحوق.

□□□

الفصل السادس

-الرحيل-

اقتلع آل الجعفي جذورهم من غويران الوطا، بعد أن مكثت آثارهم ومواضع أقدامهم وعنكبوت أحلامهم في ذلك البيت المبني من الدفش والحجارة غير المصقولة، الذي أقامه الأب إبراهيم الجعفي تحت التوتة منذ أكثر من عشرين عاماً بمساعدة محمود مبارك. شعرت وطفا بأن قلبها يتصدع وينخلع من مطرحه، حينما حملت المواعين على ثلاثة دواب من الحمير المستعارة، ووضعت فرشهم المهترئة فوق ظهورها، وصار قطنها الأصفر يتطاير من بين الرقعات الممزقة، وحملت صناديق منخلعة بقايا أغراض قديمة فوق الدابة الفتية. اجتمع سكان غويران الوطا حول الراحلين. بكت هلوك الغاوية وانتحبت ابنتاها نجلاء ولمياء، وأسرع سرحان الخليط وأولاده إلى الوداع وتبرع جابر ابنه بأن يوصل الفرشات والمواعين إلى مقر العائلة الجديد، ويعيد الحمير إلى أصحابها، وأقسم أيوب السارح أنه سيهاجر معهم، لأنه لا جذور له هنا بعد اليوم، بعد أن طُبَقّت حظيرته في الشتاء المنصرم. وتناهى صوت الرحيل إلى مسامع نبيل السواحلي فغمرته موجة من الحزن، واستفهم عن الجهة التي يقصدونها في رحيلهم، واستقرت في ذهنه خاطرة أنه ينتقل بعدهم إلى مدرسة قريبة من منزلهم الذي يحلون فيه. أما الشيخ محمود مبارك فكان أكثر المودعين الذين أظهروا تأثراً. كان يحملق في حسرة بأرداف وطفا، وفستانها المكشكش وزنارها الحريري الذي كان يحتضن خصرها الذي ما زال أهيف يومئ بالغواية. كانت كلما مشت في خطواتها، أحس بأن ماضيه ينبش مدافنه، وتبدو عارية أمامه في مهب ريح الشعرا تحت الجفنة، منذ ثمانية عشر عاماً زاحمها، كانت تحتطب في الغابة، ورائحتها الفطرية تنتشر في خياشيمه، تغلغل جسده بكل عنفه وانتصابه إلى تلافيف جسدها الفتي، واعتصره وانسابت الرعشات وتناغمت أوراق الحور المصفقة مع رعشاتهما. حملق من جديد بأولاد إبراهيم الجعفي وهمس في داخله وهو يودعهم إلى ما وراء التلال: (أي منهم يسري فيه دم آل مبارك أكثر؟! لا أدري كم مرة انغرزت فيها، ما زال

حنيني إليها مجنوناً. لماذا يا إلهي. لا ندرك حضور الأشياء في اشتعال إلاّ بعد إيذانها بالرحيل عنا؟ لماذا ألهب الرحيل في أعماقي كل هذه البراكين؟! وأين كان راقداً كل هذا العاصف من المشاعر) أوغل معهم في سفرتهم، حتى اختفت معالم غويران وتضرع إليه الراحلون أن يعود أدراجه وأمسك به الأب الجعفي من قمبازه وقال له:

لا يليق بك وبمشيختك وانتمائك إلى آل مبارك أن تذهب في وداعنا أكثر من ذلك، ولن ننقطع أبد الدهر عن غويران وجيراننا القدامى. برزت أمامهم تلة هي آخر حدود غويران وتشبث الشيخ أنه سيودعهم على سفحها الشرقي. وتثاقلت وطفا في مشيتها عن الركب حتى صارت بمحاذاته وأسرَّت بكلمات مؤنبة إليه.

ارجع إلى مشيختك كفانا ما لقينا منكم آل مبارك والدهر غول يبتلع كل شيء ولن تنقع قرن خرنوبك فيّ بعد اليوم ونحن قاصدين قرية عين الغار وراء تلك التلول العالية.

أسرعت تغيب في الركب. انزوى وراء صخرة تكللها جفنة شبيهة بتلك التي زاحمها فيها منذ زمن، وامتلكها، أقعى كذئب مجروح وتأمل قافلة الرحيل التي غدت تغيب وتظهر وراء الجوبات الجبلية، فطفرت من عينيه دموع، وسالت على قمبازه الحريري، وانحنى كمن يعتصر على طاحونة وانحل الشاش، وسقط الطربوش عن رأسه، ونظر في النبع الجاري تحت أقدام الصخرة، ولمح صورته تنعكس في الماء، تحت شعاعات الشمس، وأنتابه خوف همجي، وسمع ضحكات من خلفه لها رنين السنين الخوالي، واعتراه طوف من الذكرى، ونزل إلى قيعان خفية، وتلامح وطفا تسبح عارية في بحيرة الأعماق التي يتناثر رذاذها الأبيض، فيمتزج مع إشراقه جسمها البض، ويحاول أن يسبح خلفها ليمسكها، ولكنها تستحيل يمامة برية تهدل فوق البحيرة وترفرف بجناحيها فوقه، وتطير في البعيد البعيد وراء مسالك وبراري بلون الزمن الذي يمضي ولا يرجع. وتعالت الضحكات من حوله، الماضي يزحف بأشيائه التي لا تنسى، وطعمه الراحل الذي لا يعود، والحاضر المفعم بالأسف على مشخصات حلوة تلاشت في غمرة الرحيل، والمستقبل المسدود لا يمنح لمعة أمل في نسيج حياته المكرورة، عرج على أعلى الرابية، ليلتقط آخر نظرة من هذه القافلة التي عبرت غابة الصنوبر، وصعدت إلى السفح الذاهب إلى عين الغار. والتفت أيوب السارح إلى وراء المشخصات فابصر الشيخ محمود مبارك يلوح بيديه في فراغ مجنون وقد انحسر رأسه فاقترب من الأم وطفا وهتف في سخرية:

–يبدو أن أزمة السويداء تتلبس الشيخ وأن عاصف الماضي يخلعه من شروشه، أسرعوا لِنُغيب قبل أن يخلع ثيابه كلها، ويلحقنا شبحاً عارياً، فنحمل تبعات ضياعه وسط هذه الشعاب الصخرية التي لا ترحم– نظرت وطفا إلى أعلى الرابية، التقطت صورة الشيخ وهو يلوح بيديه في فراغ الشعرا، فتصدع شيء في داخلها وغمرتها أحاسيس مفاجئة مقتولة بالرحمة. شرقت بالدمع، اختلت خلف شجرة عزر، بحجة أنها تقضي حاجة، أفرغت شحنة عواطفها في دموعها المترقرقة، ومسحتها بمنديلها القزي، وهرولت تخب في المسالك. أمسك /غيلان الجعفي، بشبابته برجاء من أيوب السارح وراح ينفخ فيها، ويلهبها ذوب مشاعره، وانطلقت ترانيم ساحرة من حنجرة رباب ذات الصوت الحنون:

سكابا يا دموع العين سكابا طريق عين الغار يا مسلي الحبابا

تداعت إلى أيوب السارح صور كانت راسبة في قعر الذاكرة، عنت له نفحات العرار ورائحة الخزامى أثناء عبوره بوادي نجد، يوم كان هارباً من مقبرة الأناضول، وتائهاً مع رفاقه في الفلوات. لم يفهم لماذا سطعت هذه الرائحة في خياشيمه مع إيقاعات سكابا في ثقوب الشبابة الرعوية وغناء رباب، وتغلغل في داخله سائلاً: لماذا تداعت إليّ نفحات الخزامى والعرار من غيابة الزمن وحدها دون غيرها، وفي مخيلتي ملايين الصور والرعشات. ياه. ياه!؟ ما زلت غامضاً عني بعد رفقة طويلة من المصاحبة والعراك مع الأيام أيها الشبيه بي، الكامن هناك– هناك في خفاياي المجهولة) هلوسته خاطرة أن يقطف باقة من البنفسج المتخفي وراء صخور ناعمة تنزلق فوقها الأقدام بسرعة تملاه إبراهيم الجعفي صارخاً:

–يظهر أني سأفقد عقلي وتوازني إذا بقيت معكم، أو أشرب من نهر الجنون الذي تتردون فيه، أهذا وقت قطف الأزاهير ونحن في سفرة مضنية.

اختفت الخاطرة في ذهن أيوب السارح واكتفى بأن لملم باقة صغيرة وقدمها إلى رباب الجميلة ذات الشقرة الأخاذة والصوت الرخيم، والتي بدت في فستانها الطويل المكشكش، وسروالها الأحمر كحورية من بلاد الشمال. أوقف غيلان الجعفي النفخ في شبابته، واستبانت خريطة جديدة للمكان وتراجعت كل معالم غويران. وسأل والده مستفهماً:

–أتبعد قرية /عين الغار/ كثيراً عن هذه القمم؟ وهل أمنت لنا فيها مطرحاً؟!

سرح الأب ناظريه في تلك الآفاق الجبلية وأجاب مبشراً:

–وراء هذه التلة المتجهة صوب الغرب، وبين هذه الصدوع سنحط رحالنا كما

كان أجدادنا البداة يرتحلون في المكان، ويضربون خيامهم طلباً للماء والمرعى لإبلهم. أما تذكر أن لي ابن عم اسمه بدر الجعفي يسكن هناك، وله يد تطول في هذه الناحية، ويملك حواكير واسعة، ويدير أملاك الأغوات في عين الغار وقد أمن لنا بيت الدفش بجانب قبة الشيخ نجم الريحان.

التهم أيوب السارح/مرتسمات تلك التضاريس، وغيب باصرته في تلك الفجوات الشاقولية، جبل الشعرا الغربي ينزلق في انحدار، ويكوّن هوات سحيقة ومطلات، ويتهاوى أحياناً في بطء فتنبسط في تهاديه سطوح مستوية لأرضٍ كلسية وبازلتية تعشش بين منعرجاتها القرى الراكعة تحت أقدام القمم، وما وراء الشق الجبلي الشمالي، ترامت قرى أكثر تحضراً، مآذن تبرق في الفضاء بنصاعتها، وبيوت مشرعة للشمس والريح، مبنية من حجارة مصقولة كأبنية آل مبارك، وطريق مفروش بالأسفلت يتلوى بين القرى كتلوي أفعى شديدة السواد. وما وراء الشق الجنوبي، تتعربش قرى ذات طابع تخلفي، مبنية بالطين، وحجارة الدفش غير المنحوتة، كأن حضارة الإنسان الحديث لم تمسها، ولم تزل راكنة في الظل التاريخي كما هي حال غويران الوطا وبين الشقين المنفصلين، ينحدر نهر سيلي من أعلى الجبل، ويختفي وراء الروابي الساحلية. وكانت الغابات الحرجية، تركن حول ضفاف النهر، الحور والصفصاف الباكي، وعرائش الدوالي والشربين وجفنات الغار، وفي السفوح تمتد غابات الصنوبر والسنديان والأشجار البرية، على وحشيتها الأولى. وفي نهاية الأفق الغربي البعيد، تلاصق زرقة السماء مويجات البحر، والشطآن التي تبدو كأسطول بحري يهمُّ بالإبحار صوب محيطات مجهولة، وندّت عن غيلان الجعفي شهقة طويلة وأومأ مسائلاً:

–أين تكمن في وضوح، قرية عين الغار من هذه التضاريس؟

–في الشق الجنوبي، وعلى السفح الموازي للنهر

–يظهر أن هناك فرقاً حضارياً شاسعاً بين الشقين

غاص إبراهيم الجعفي في المرتسمات الكائنة أمامه، وشخصت أمامه المفارقات بكل دراميتها. الإهمال المتعمد الذي نزل على رقاب الجرود الساكنين في الناحية الجنوبية من النهر، الدروب الوعرة بين الصخور، السطوح الترابية التي تنمو فوقها الحشائش وتسبب ثقوباً شتوية، يسري من بين بلانها وسقفها البلل الدائم والوكف اللعين، ويضطر ساكنوها إلى طليها كل عام ودحرجتها حتى تستوي مثل الكف، وهتف كمن يريد أن يقنع نفسه:

–هذا قدرنا، وتلك قسمتنا منذ الآف السنين، ولن نجد مهرباً مما كتب لنا في اللوح المحفوظ.

وأشار إلى السنديانة الرابضة على المنعطف الشرقي من عين الغار والتي تجاور قبة الشيخ نجم الريحان وتنفتح على النهر السيلي الذي يفصل بين عالمين وأردف قائلاً:

–هناك سترسو سفينة عمركم، وتجدون مستقراً لكم وسط جماعة من المستضعفين في الأرض أمثالكم. الاضطهاد الأسود الذي حاق بنا قد حاق بهم، وتقشرت جلودنا في القفر كما تقشرت جلودهم، وترسبت في أذهاننا جميعاً صور الحصار المر كالزقوم. الذكريات المعجونة بالنفي والتشرد والأيام الجائعة المكرورة التي صهرتنا في مأساة واحدة.

أغرقت العائلة في صمت مهيب، لم يقطعه إلا صوت حوافر الدواب التي يسوقها /جابر الخليط/ وهي ترتطم بحصباء الدروب الصخرية، وتطقطق لتدوم الصمت المأزوم، وكانت شمس المغيب، قد انحنت صوب الزرقة البحرية لتغطس فيها، وراحت تلملم بقايا أشعتها الغافية على رؤوس الجبال، وتشكل نوافير من الغبشة البنفسجية والحمرة القانية، تنذر بالرحيل كأنها تودع عالماً من الأرض لتبزغ في مكان آخر، كما حال آل الجعفي الذين ودَّعوا أمكنة قديمة ليبزغوا في مكان ما من هذا العالم الراكد، حيث يفقس الناس كالبراغيث، ويمضون أعمارهم مصلوبين على جدر العيش البائس ومناطحة الواقع التعيس، لعلهم يقدرون أن يثقبوا كوى جديدة في هذه الجدر التي ترين بظلالها الكثيفة وقتومها، على مشروعات حياتهم القصيرة التي تتبدد في تأمين العيش، وانتزاع اللقمة المغموسة بالدم، ومحاولة تحريك هذا الواقع الكئيب في مجازفة إنسانية إذ يظل الإنسان مربوطاً بين قطبي رحى وثنية تطحن في دوراتها الحيوات، وتبقى المحاولة مفتوحة على مستقبل تطلع بين ثناياه أجنة فيها قابلية للتغيير وتحطيم نير التابو والمحرمات، ورفع التكفير، عن أناس، لا ذنب لهم لا أنهم قاوموا بشراسة الجراد الأصفر التركي الذي اقتطع الأرض وملكها لعناصره، وتمردوا على طغيان السلاطين، وخوازيقهم ورفضوا– شرائع الغاب التي تحل للقوي الغريب عن الديار أن يلتهم التراث الأصيل، ويحيل السكان الحقيقيين إلى مسوخ، موصومين بالكفر والشر، وأن يجمد التاريخ العربي في قوالب عصور الانحدار، ويتمزق مزقاً تتردى في حمى المسكنة والذل والضياع.

❐❐❐

الفصل السابع

المقر في عين الغار

كانت قرية عين الغار تتسلق مثل قطيع من الماعز السفح الجنوبي من نهر السبع وتتناثر البيوت بين جفنات الغار والريحان وسناسل الديس البري في نمطية واحدة، وتضيع بين المنبسط الذي ينفتح فيسمح بإقامة البيوت المتقاربة المبنية من الدفش والحجارة الغشيمة، والتي كان أغلبها مسقوفاً بالقصب البري والطيون والبلان، وقد طُيِّنَ السطح والجدران بالتراب الأبيض الممتزج بقش التبن الذي يمسك الطين. وكانت الجدران المتشكلة من هذه الحجارة، تبدو منتفخة غير متناسقة تنذر بالسقوط كلما دوى الرعد وأومض البرق في الشتاءات التي ينزل فيها المطر مثل أفواه القرب ويجرف الحصا الصغيرة. وكانت المقبرة تتوسط أجمل مكان في القرية، وبجانبها قبة الشيخ نجم الريحان الذي لا يعرفه أحد ولكن معجزاته الخارقة وبراهينه الساطعة تتغلغل إلى مخيلة الساكنين في منعرجات السفح، وتلقي المهابة والجلال في أعماق القلوب. وكان سكان عين الغار يفخرون بأن أصولهم عربية ترجع إلى سلالة أمير عربي توضع في سنجار زمناً، وزحف إلى هذه الجبال المنيعات بجيوشه وأزال عنهم الإبادة والطغيان، وتجذروا منذ ذلك الزمن في شعاب الجبال والغابات واتخذوا الخلوات ملاذاً لهم وعانوا ما لا يتحمله شعب في التاريخ من الحصار والملاحقة والتنكيل المستمر، وترسب في عقلهم الجمعي التخوف من الآخرين الأغراب، وأسقط الخازوق التركي في خيالاتهم، كوابيس من القتل والذبح الجماعي، حتى أن ترانيم شعرائهم المنكوبين، تتسرب إلى نايات القصب، ومواويل العتابا في أفراحهم وأتراحهم، كأنما كتبت عليهم المسكنة، وكانت قربى وأواصر تشدهم إلى أهالي غويران الوطا والقرى الجنوبية وفلاحي الجرود المنتشرين مرابعين لدى أغوات قرية العثمانية الترك. وكانت مزاراتهم بلسماً لجروحهم، ومشفى لأمراضهم، يحوكون حولها أنسجة الخوارق، ويلوذون بها في أوقات ضيقهم وكان عزاؤهم الكبير يتبلور بإيمانهم غير المحدود، بأنهم ورثة الأئمة العرب الذين هلكوا قتلاً وفي الزمن الأول، وفي الناحية الشمالية الموازية

لنهر السبع تجمعت قرية العثمانية على مرتقى، ينبسط في الأعلى، وتلتمع فوق أرضه البيوت المبنية من الحجر الصلد المنحوت، تظللها عرائش الدوالي والصنوبر، ويبدو الترتيب والتنظيم ظاهراً في تلك المصاطب الرحبة، والعيون المصبوبة ذات الأقنية والمصبات الحجرية الأنيقة التي تتدفق منها المياه العذبة. كان سكان هذه القرية وتوابعها الشمالية من بقايا الأتراك الذين اقتطعوا بفرمانات السلاطين أخصب الأراضي وتشكلت بفعل مرور الزمن إقطاعات واسعة، شملت الحواكير والأراضي والغابات التي تجاور النهر من الضفتين، وتمتد حتى تلاصق أملاك غويران المزار التي يمتلكها آل مبارك الذين يتشابكون في قربى مع آل عثمان بك القانوني إذ أن مبارك الجد تزوج جيهان ابنه عثمان بك، وتعمقت أواصر القربى بين الأسرتين الإقطاعيتين. استقرت عائلة إبراهيم الجعفي بجانب المقبرة التي تتوسطها قبة الشيخ نجم الريحان فالبيت الذي سكنوه هو أحد بيوت الدخنة التي كان يستخدمها آل عثمان لتدخين التبغ قبل تصديره، غير أن الطلب من هذا النوع المدخن توقف، وسُلم إلى بدر الجعفي ليرممه، ويطينه، ويُسكِّنُ فيه من يريد من الجرود والأغراب القادمين، وكان بدر الجعفي على صلة طيبة مع أغوات العثمانية، ووقافاً على أرزاقهم في قرية عين الغار وعيناً من عيونهم، يشرف على البيادر وتذرية القمح، ويرشم كومات القمح حتى لا يسرقها المرابعون، ويرسل الحصة للمالك ويحاسب بلا رحمة الفلاحين الذين لم ينالوا من أتعابهم المضنية ما يقيم أودهم. لذا كانت صعوبة الصخور وقلعها، وتعزيل الحواكير من الحجارة وقلة التحصيل من نتاج الأراضي، وبناء الرعوش الصغيرة كل عام، كلها طاحونة همجية تهرس أجسام أولئك الكادحين، وتصير أعمارهم قصيرة، تتلاشى في العراء.. ولا يكاد الفلاح يبلغ الخمسين حتى يذوي، وتعصف به أمراض شتى ثم يموت. وقد استطاع بدر الجعفي بشطارته وقسوته على الجرود، رغم أنه منهم، وبلصه بعض النتاج من الأغوات، أن يبني بيتاً واسعاً من ثلاثة سواميك، ويفرش أرضيته باللباد الصوفي، ويرتب الفرش النظيفة، ويجعل من سرحة أحد السواميك منزولاً للضيوف الآتين من الجهة الشمالية لنهر السبع وكان المنزول يبعد ضربة مقلاع عن القبة التي استقر على مقربة منها ابن عمه إبراهيم الجعفي وعائلته. وكانت مقبرة القرية توازي السفح الشرقي وتركع على أقدامه التي انتشرت حولها غابة من السنديان والشوح. وعلى إطلالة نهر السبع توضعت العائلة الجديدة، ومكثت ثلاثة أيام في حرم القبة، قبل أن يُطلى البيت بالحوّار الأبيض الذي نقله غيلان وأيوب السارح من ضفاف النهر على ظهور الدواب وقد امتنعت وطفا الأم أن تدخل بيت الدخنة قبل تحويره وتطيينه بالتراب النظيف لأن الأرواح الشريرة

تقطن وفق معتقدها، في المزابل والأمكنة القذرة والسواقي النتنة، والخرائب المنسية، بعد أن تفارق قمصانها البشرية وأخوها الشيخ عمران في قرية التلات المشهور بعلمه وتقواه، طبع في ذاكرتها أن لا تسكن بيتاً جديداً، إلا ويكون نظيفاً ومُحَوَّراً، وأن تذبح على عتبة بابه قرباناً ولو كان عصفوراً صغيراً. ورغم أن الربيع وصل ذروته في الروعة والبهاء، وتفتحت أزاهير المونس فوق القبور المتناثرة في غابة السنديان، وغنت العصافير فوق الأحراج المتاخمة للنهر أعذب أغنياتها وتأرجت جفنة الزيزفون برائحة واخزة، والتمعت الخضرة في مرجة المزار، ولكن وحشة كئيبة ظلت مترسبة في أعماق الأسرة، ما خلا الأب إبراهيم الجعفي الذي استأنس بجواره لقبَّة الشيخ نجم الريحان وراح يتمتع بالجلوس تحت تلك السنديانة الضخمة التي تحتاج إلى حبل طويل حتى يزنرها، حتى يتقول المسنون أن الشيخ صاحب القبة هو الذي غرسها منذ زمن بعيد لا يحدّ عليه أحد ممن يسكن في قرية عين الغار وأنه تصوف، ولاذ بالصمت والتأمل، وانبثقت عنه البراهين الخارقة وانه كان يوغل ليلاً في الجبل وحده، ويناجي أخوته من الأرواح الطاهرة التي صفت من كدر الجسد، وجعلتها المعاناة المضنية، تنتصر على نزعاتها الأرضية وتشف حتى أضحت نجيمات مضيئة، تتلألأ في كبد السموات اللامتناهية وتزور أحياناً، إخوتها من الموحدين الذين لم يصفوا بعد، وتنزل عليهم شهباً نورانية في خلواتهم إن كانوا أحياء، وتتساقط على قبورهم أشعة مشرقة، يراها الساهرون في الليالي المظلمة كتلة من ضياء، ويوغل الرواة في الحديث عن براهينه ومعجزاته أنه كان يقضي أيامه ولياليه في جفنة الريحان مكان قبته الحالية، ويشعل سراجاً من فتيل الزيت ولا تقدر كل الأعاصير وعنف الشتاء أن يطفئاهُ. لهذا تظل أكداس الحطب في غابته طوال الفصول، ولا يتجرأ أحد أن يمسَّها، أو يحرق غصناً منها، إلا في أوقات الأعياد والقرابين والولائم الدينية التي يطبخ فيها البرغل واللحم وتذبح الخراف المُسَّمنة، ويوزع الطبيخ واللحم على القرية في غضائر فخارية، وتمتلئ المخيلة الشعبية بالحكايا عن الشيخ نجم الريحان أنه كان يرى القادمين إليه عن بعد ثلاثة أيام، ويقرأ التعاويذ على الموسوسين والمجانين، ويضربهم بالصرامي والأحذية على رؤوسهم حتى يخرج العفاريت والجن منهم، ومن أعجب خوارقه أن أحد الولاة الأتراك، أهلك الرعية وانتهك الأعراض، واستباح الصبايا، وأثقل الناس بالضرائب، حتى هام البشر على وجوههم في البراري، ولم يجدوا مغيثاً إلا الشيخ نجم الريحان الذائع الصيت وبراهينه التي لا تصير إلا لذوي العزم، وقد صنع قوساً صلباً من شجر الزرود، ونحت نصلاً من شجر الشربين، وقرأ فواتيحه وتعاويذه، وحرق البخور في مجمرته الخاصة، وتبتل في العبادة ثلاثة أيام وسدد سهمه إلى جهة

الوالي الظالم الذي كان يبعد عنه مئات الكيلو مترات، وفوجئت الحاشية التي كانت في القصر، بسهم يأتي من غامض علم الله، ويخترق صدر الوالي، ويصيب منه مقتلاً، وظن غيلان الجعفي أن والده يتحدث عن هذه الخوارق، ويكرر روايتها، إما ليسوغ سكناهم الموحش بجانب المقبرة والركون إلى بيت الدخنة، وإما ليغرس في قلوبهم التقى والخشية من هؤلاء الجيران الموتى الذي يلقون بظلالهم المشبوحة تصورات مخيفة في ذهني أختيه الغضتين اللتين صارتا قصبتي غاب ترتعشان حينما تحدث خشخشة في القبة أو حواليها، أو حينما يصرّ بابها العتيق، وترسبت تساؤلات كبيرة في عقلية غيلان الجعفي عن الجن والخوارق، وغدت تتصارع في أعماقه الصور عن وجود مستقر فكري يلوذ به، أحسّ أن تصورين متناقضين، يزحمان عقله، تصور غرسه نبيل السواحلي بأن لا وجود لشيء لا يقع عليه الحس، أو يتناغم مع العقلية الإنسانية، وإن الطبيعة تسير وفق قوانين أزلية لا يمكن للخارقين في كشوفهم الروحية أن يغيروا من قوانينها، وتصور آخر مغاير عميق الجذور، يلطو وراء لا شعوره، يتمثل فيه أن نواميس الطبيعة، يخرقها أولياء الله، وأوصياؤه في الأرض، ويغيرون من قوانينها المألوفة، وأن الجن أقوام كانت بشرية في الذرو الأول وسخرها النبي سليمان الحكيم لمشيئته، ولكنها اختفت فيما بعد في أماكن مهجورة ومواضع خالية، وسكنت السواقي الموحشة، والجفنات الجبلية والبراري التي قلما يطأها انسي. ولكن أيوب السارح الذي عجن الحياة وخبزها على تنور المعاناة، دشن سكنى هذا البيت، بجلب ألفية عرق من العنب الذي سلسه سويلم الدرويش خفية بكلكته المنعزلة في جوار أعالي نهر السبع قبل وصوله إلى الجسر الكفري الذي يوصل ما بين القريتين العثمانية، التركية وعين الغار) كان مكان الكلكة مستوراً بين جفنات الغار وتحت مغارة عميقة في جوف الجبل، اتخذها سويلم مكاناً له ولعائلته ومنعزلاً عن العيون وجواسيس السلطة. وكانت أقرب المواقع إليه قبة الشيخ /نجم الريحان/ والمقبرة وبيت/ إبراهيم الجعفي/ الجديد، وقد اغتبط /أيوب السارح بهذه الجيرة، ونطق بكلمته المعبرة في إحدى الليالي الساجية التي التهم فيها صمت المقبرة، وسقطت نيازك على الأفق الصافي الذي يخال الناظر إليه أن السماء تلتصق بالأرض. وهتف بعد أن تسربت إليه السكرة وتغلغلت إلى أعماقه الخفية:

–الجسد بعد رحيل الروح عنه، يتفتت تراباً نخراً، والقبور التي يسكنها الجسد البالي هي شواخص، تذكرنا بأناس مروا على نهر الحياة، كم مرعب أن نجعل الموتى الذين لا حراك فيهم، يسممون حياتنا، يقفزون أشباحاً على شاشة مخيلاتنا، زمن الجن قد مضى في ظلام التاريخ، فلا تحركوا المستنقع الراكد الذي أرعب

نوعنا البشري، وصلبه على فزاعات الدروب. كم قرأت من الكتب وبلوت من التجارب لأصل إلى برزخ الحياة والموت، والجسد والروح وقديماً سمعت حكمة بليغة تقول (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً).

صب كأس العرق، المصنوعة من الشجر، في جوفه، تسلقت عيناه السنديانة الضخمة، اعتراه إحساس بالتأقزم أمام جبروتها، وصغره حيال فروعها، وتقادم السنين عليها وأوغل في داخله هامساً (كم أنا صغير بجسمي أمامك أيها السنديانة الفارعة. كم تعاركت مع روح الفصول وما زلت راسخة في التراب، لا تحسين بهول الزمن. أما أنا الذي سرح في أقاصي الدنيا وامتلأ بالفجائع والآمال، فإن روح الزمن تثقلني بإحساس القلق الدائم، وتربّص كابوس الموت.

ارتعب غيلان الجعفي من ارتسامات غريبة كانت تعكسها النار التي أشعلتها الأم وطفا لتطبخ للعائلة طبخة البرغل، على وجه أيوب السارح الذي راحت ارتسامات وجهه تتقطر بتعابير غامضة، حزينة، يخالطها الشر، حتى أن رباب اعترتها أحاسيس بأنها في حضرة المقام الذي زارته في الرابع من نيسان المنصرم وقالت:

–شايفتك مثل مصلوب فوق خشبة، ياعم أيوب، وبصبوص عينك يشرق بالحزن، بشيء مجهول مالو حدود.

حملق أيوب السارح في نهديها المتكوزين جديداً، مثل براعم الزنبق الجبلي وسرح في خصائل شعرها الأشقر المشبوب بحرائق الأصيل، وبشفتيها الزهريتين اللتين يتوق النحل إلى أن يحط عليهما، فنبضت عروقه وهفا قلبه إليها. لم يدرك سر هذه الفتنة من قبل، وأوغل من جديد في مغارته الداخلية، وهو يرتشف طيفها الشديد العذوبة، تحت ألسنة النار الجبلية وقد نهضت لتساعد أمها في إضرام النار حتى تستوي طبخة البرغل في سرعة وبرز العراك بينه وبين الكوابح الاجتماعية، وأحس بأنه في غيابة بحيرة عميقة الزرقة، مُعَرًّى من ثيابه كما جلبته أمه، تسبح حوله بجعة بيضاء، ثلجية الريش، بين ظلال مونقة، وحقل من أزاهير الزنبق البري، يرف فوق الشط الخضير. وقد امتد كل شيء في جسده وتفتحت كواه على العالم، ليمسك بالبجعة البيضاء، التي كانت تقترب وتبتعد في التماع عجيب، حتى أضنته المحاولة في إمساكها، ونبهه من حلم اليقظة ومن سكرته المجنونة، صوت الأب إبراهيم الجعفي:

–أراك، ذهبت بعيداً في سكرتك، هذا العرق المسلس وليد هذه الجبال، مشهور بشدته حتى أن بعضهم، يعتصره من حب الآس، ويبدو أن سويلم الدرويش

خدعك هذه المرة بعرقه المكرر. حاول أن تملأ بطنك بالأكل، لأن الشرب على الجوع يفتك بوعيك، ويزيد من تأثير السكرة.

تجمعت الأسرة حول صينية الطعام والخواشيق الخشبية تطقطق وهي تصدم أطراف المقلاة الفخارية التي يجود بها طبخ البرغل، وكان أطيب الطبخة إلى غيلان الجعفي البرغل المحروق في أسفل المقلاة الذي يذكره دوماً بثمرات البلوط التي تتساقط عن أماتها، وتجمع لتشوى على نار الوجاق في الليالي الشتوية وتلمظ في مذاقه. وقال:

–لا أفهم السر الذي يسوي البرغل المحروق في قعر المقلاة رائع المذاق. كم أشتهيه دوماً يا أمي! رغم أني أكرر أكله كل يوم فلا أكرهه، كما هي العادة في الأصناف الأخرى.

نهض أيوب السارح قبل أن يشبع، اعتراه غثيان لم يكنه سببه حينما لمح رباب التي كانت تشحن مخيلته بحضورها الكاسح، تتلمظ بالطعام ويسيل الزيت على جوانب فمها، انتبذ مكاناً قصياً عن صينية الطعام القشية واستند على طرف المصطبة الترابية، ودرج سيجارة من علبته الصدئة وأشعلها في صمت الليل الساجي، ونيران رعوية تثب في الدغل الشمالي من قرية العثمانية. ودخل في بوابة معتمة من زوايا نفسه وتساءل في حواره الداخلي [ما هذه المفارقة في فهم ذاتي؟ كنت أتحرق شوقاً إلى عريها، وأتخيل دنيا ساطعة بين تكوز نهديها، وانفراجاتها السحرية، وأتلهف في سبحات أحلام اليقظة إلى الإمساك بالبجعة البيضاء وسط بحيرة منعزلة، فما حالي، أهبط إلى القرف والمقت، لما سمعت صوت تلمظها بالطعام، ورؤية الزيت يسيل على جوانب فمها، ما هذه الأشياء الخفية؟ التي تكون رغباتنا وميولنا، وتشكل خيوط الحب والكره في خفايانا. كم مرّ من سنين! وما زال الجانب الكبير من ذاتي يكتنفه الغموض وعدم الفهم في تقلباته يا إلهي. أين يكمن إنساني الحقيقي] واستفاق من تساؤلاته المتأملة على لكزات رباب لكتفه وهي تقدم له فنجاناً من الزوفا:

–قمت عن الطعام قبل أن تشبع يا عمي أيوب– فاشرب الزوفا ونقيع البنفسج، بعرف أنك تحب هالنقيع...

انغرزت كلمة يا عم في قلب أيوب السارح كأنها شوكة البرصين البري في لحمه، عصف به غضب مقهور، جعله يكبّ الفنجان فوق أرضية المصطبة، فار تنور في كيانه، التهب حريق في شعاب نفسه، غطّى عينيه بيديه حتى لا يرى أحد انفعالاته، تزاحمت عليه صور الداخل (معنى هذا أني أصبحت شيخاً، لا

تقولها النساء، إلا لمن يكبرهن بكثير، أو محرم عليهن). حارت رباب في تفسير موقفه، تراجعت إلى الخلف مذعورة من تصرفه لاحظت أمها وطفا ذلك التغير المفاجئ، وأنبتها قائلة:

–ولك شو فعلت يا مغضوبة؟ وقريضة ! أنت دوماً ساذجة شو قلت لو؟ حتى صار في هدي الحالة المشؤومة؟

أسرعت بقية الأسرة إليه، ربتت على كتفه وطفا وعانقه غيلان الجعفي ومسدت يديه سحاب وانتزع إبراهيم الجعفي الربابة من الوتد الخشبي المغروس في الجدار الحواري، وأمسك الوتر وشدَّه، ليصبح أكثر رهافة في إخراج الألحان، واندلعت البحَّات، وأصدت المقبرة، واهتزت الكائنات الهرمة خلف الليل، وتناوحت الغيران وضفاف النهر، وتبرعم في مسمع أهالي قرية عين الغار إحساسٌ بأن هناك أسرة جديدة توضعت بجانب القبة، وتآخت مع الموتى والسكينة والعتمة، لتدوّم في الذاكرة قدوم أناس لايخافون من هول المقابر وجزر الصمت الأبدي بل يرسمون في عمق الوحشة دوائر الطرب، وبحات الربابة التي كانت تجرّح وجه الصمت، وتخلق ألف إلهام عن أن الروح الثقيل، والعزلة الكابية، والسأم المقيت، تحتاج إلى قدرة على التكيف، وكسر القشرة الخارجية لثمرة الحياة، والوصول إلى اللب الإنساني العميق، المغلق على الأحلام الكسيحة، والذكريات القديمة والخوف من المجهول الفاغر الشدقين، هذه العناصر كلها، جعلت سفينة هذه الأسرة المقتلعة من غويران الوطا تترنح في رسوها الجديد مصلوبة بين برازخ الماضي المشحون بالحزن، وبين شعاب مستقبل مبهم يصعب اكتناه مساره وإدراك مخبآته.

❐❐❐

الفصل الثامن

قرية العثمانية

في الآفاق الشمالية من نهر السبع وعلى منسرح من الأرض وفوق التلول المزدانة بعرائش الأعناب، وجفنات الرياحين، وكروم التين والزيتون كانت تركع قرية العثمانية وتمتد بيوتها قطيعاً من الغنم الأبيض المغسول جديداً. وكانت المصطبات تجثم أمام البيوت المطلية بالكلس الأبيض مثل شرفات المباني الفلورنسية وكان شارع إسفلتي وحيد يخترق تلك القرية التي تنم معالمها على أن مفارقات سحيقة بينها وبين عين الغار نسجتها ظروف غير طبيعية من الاضطهاد والإهمال والنسيان نزلت على قرية عين الغار وتركتها تتردى في زوايا الزمان السلحفائي، والخروج عن دائرة التطور البشري، والمشاهد العابر يستنتج أن القرى الجنوبية من النهر خيمت عليها عتمة القرون الراكدة والإهمال المتعمد من قبل ولاة آل عثمان الترك الذين سموا القرية باسمهم، ومنحوها العطاءات وأقطعوا أهلها الأراضي الواسعة وغمروها بنعماهم، وطفا على السطح إقطاعيون من صلب تركي، يعيثون في الأرض فساداً يتخذون من الجرود العرب الساكنين جنوب النهر، عبيداً لهم، يعاملونهم معاملة الدواب، ويمتصون أتعابهم ويلغون بدمائهم، ويستبيحون أعراضهم، وكل امرأة من الجرود حلال لهم، يترصد شباب العثمانية بنات الجرود وهن يغتسلن بين دواوير النهر، ويحتمين بالصخور، وبين أدواح الدلب والحور وأجمات الديس البري، ورغم الموانع فإن عيون الساكنين شمال النهر، تترصد مفاتن العري، وتتملى في دفاءة مواطن الزغب النسوي الذي ينتف في الخلوات الجنوبية، وكانت ذاكرات الأحياء من الجرود مليئة بحوادث الاغتصاب والقتل، ومفاجأة العاريات من أبناء جلدتهم. لهذا آثر الكثيرون منهم أن ينقلوا الماء على ظهورهم أوظهور دوابهم من دواوير النهر حتى يجنبوا بناتهم جرائر التلصص والاغتصاب وكسر الأعراض وظلت الانتهاكات الهمجية سائدة طوال عصور السلاطين وفترة الانتداب الفرنسي، ولم يبرز على السطح إلا تغيير طفيف في عهد الحكم الذي سمي وطنياً.

كانت المدرسة الإعدادية الوحيدة في الناحية، تقع وسط قرية العثمانية، وعلى مرتفع من الأرض، يطلّ في مداه على قرية عين الغار وحواكيرها. هذه الإعدادية، أرغمت أبناء القرى البعيدة على تجشم المشاق وقطع الأودية والسواقي للوصول إليها. كم أهوال قاساها غيلان الجعفي وأمثاله من أبناء القرى، بغية التزود بالعلم! وكم مضايقات بلون الحصار، انصبت على أبناء الجرود، لينالوا الشهادة الإعدادية التي تؤمن لهم وظيفة متواضعة تقيهم غوائل الجوع والذل، والحرمان. فالجسر الكفري تبدّى في تلك الأزمنة صلة الوصل بين الجماعتين المتباينتين في الدم الذي كان يجري في عروقهما وفي العادات المتكلسة التي حفرتها القرون، وتوضعت ظواهر اجتماعية مختلفة. فعلى الجسر المبني منذ زمن لا يحده أحد في المنطقتين، مشت أقدام بشرية فوق حجارته وقنطرته العالية، وتلاشت مثل تراجيع أصوات تموت في الضباب الخريفي. بين فجوات هذا الجسر الكفري كما سماه الأقدمون، استظل العابرون وقطاع الطرق. كم أناس في أيام سفر برلك شُلحوا وذبحوا على حجارة هذا النهر، وَرُمِيَتْ جثثهم في دواويره! وكم اغتصاب بطعم الرغبات المراهقة حدث بين جفنات الغار والديس البري الكائنة تحت قنطرته، كان غيلان الجعفي وأبناء ديرة الجنوب، يحسون بأن هذا الجسر معلق بين قارتين، في الشمال منه تستوطن الخشية والرعب الكوني والخوف من الأغيار، ورواسب الماضي المفعم برائحة الدم والتعصب التركي الأعمى. كم ليال بلون الليالي القطبية أمضاها سكان جنوب الجسر، وهم يتحدثون عن الجروح المنزوفة في القفر والحصار، والتعذيب، واغتصابات العنف، وعقد النقص وأساطير الخوف من مستقبل مجهول. كلها ترسبت في العقل الجمعي لفئة الجرود وتجلت بشكل عدو متربص يلطو وراء صخور الشمال من الجسر الكفري لم تخرجه من سراديب اللا شعور الصلات المعيشة، وبعض مظاهر التلاحم في إطار الوطن والمواطنة ولا إطلاق شعار الدين لله والوطن للجميع، ولكن تأسيس الحزب الثوري في قرية العثمانية أخفت من تأجج الخوف والحذر التاريخيين، وقد تأسس بواسطة شباب عاشوا في الغرب ودرسوا في جامعاته، واستأنسوا بوقدة الثورة الفرنسية، في الحرية والعدالة والمساواة، وتأثروا بطروحات فخته القومية، والإيمان برسالة جديدة للحياة، تعيد للإنسان مكانته تحت الشمس، وآمنوا بأن العدالة الاجتماعية ينبغي أن تسود، وترفع أنيار العبودية عن أكتاف المسحوقين. وكان أكثر الناس استجابة لهذا الحزب الثوري أيوب السارح الذي أسرع إلى الانتساب إليه والدعوة له، واعتبره فرصة تاريخية لا تفوت. وانبثت المبادئ الثورية في مناخها المناسب. وانسرب إلى ذهن غيلان الجعفي إيمان عميق بأن عصور

الانحدار التي رانت على العقل العربي يجب أن تنحسر، وأن النفق العَرقي، الذي غيّب بصراعاته وظلمة تعصبه، كل جمالات الحياة ومعانيها، ينبغي أن ينفذ إليه نور التقدم والاشتراكية. وكانت المعاناة ضارية في نشر الرسالة في ديرة العثمانية ولدى أزلامهم في ديرة عين الغار لأن العقول التي تصلبت رؤياها، واقتصرت على المكرور من العادات والتقاليد، وأنماط التفكير، يصعب تغييرها، وتحتاج إلى كل المطارق والمخارز للنفوذ إلى عتمات القرون الراكدة، وكانت عين الغار مؤلفة من عدة حارات متناثرة، وحارة المشائخ تجاور الجبل من الجهة الجنوبية الشرقية ويسكنها آل الخصيب وهي أكثر الأسر أصالة ولها جذور دينية في إقامة الطقوس والصلوات على الموتى، وفي الأعياد السنوية، وكانت منحازة إلى ذاتها وتشتمل على أسرتين، تشدهما أواصر قربى، حتى أن أكثر الزيجات كانت تحدث بينهما، فعميد الأسرة الشيخ أحمد الخصيب يتولى أراضي الوقف المنذورة للأسياد المحاطين بهالة القدسية والجلال الديني، وله ثلاثة أبناء، حمزة ووحيد وعمار وبنتان هما: علياء وزينب، وأسرة ابن عمه محمد الخصيب وتشتمل على سعيد ومنتجب الخصيب وابنتين هما نجوى وصبا الخطيب وأسرة بدر الجعفي وتتألف من أولاده الثلاثة عنفوان وليث ومازن ومن ثلاث بنات هن ثناء وربيعة وماجدة الجعفي وتسكن الجهة الغربية الجنوبية، أما الحارة التحتانية المتاخمة للجسر الكفري والمطلة على قرية العثمانية فكانت تشتمل على أسرة الغشيم ، والصوان وآل برقروت وكان جميعهم يعملون مرابعين لدى أغوات العثمانية الذين يملكون الأراضي والحواكير، حتى بيوت الدفش التي تسكنها الأسر الثلاث. وكانت سيطرة الأغوات طاغية، إذ يحق لأي أغا أن يطرد من يشاء من مرابعينه، وفي أي وقت كان، كم طرد أناس في عز الشتاء، وتحت المطر والريح العاصفة، وخارج بيوتهم بلا مأوى في أزمنة همجية، إذا لم ينصاعوا إلى إرادة الأغوات الأتراك، وإذا استحسن أحد الأغوات امرأة المرابع، فويل لها إذا لم تستجب، فيسحبها عنوة إلى جفنات الغار، ويقضي شهوته منها، ولهذا ظهر خليط غريب من أولاد الحارة التحتانية، وفي أقصى الجنوب المؤدي إلى غويران الوطا تعرشت بيوت الجرود على السفوح وبين غابات البلوط والشوح والسنديان، وفي انعزال مهيب عن حركة الحياة، كأنهم مرميون في صحراء العزلة، يستنبتون الأرض، ويعزلونها من الحصى، ويشقون الصخر ويعتصروا منه لقمات ممزوجة بالمرارة والعمل الدؤوب بتعمير المصاطب ومنع جرف التربة، وزرعها بالدخان البلدي الذي يجدد في هذه الحواكير المسمدة بزبل الماعز الجبلي، وتوضعت عائلة سويلم الدرويش بأقصى المغارة الشمالية الشرقية المشرفة على أعالي نهر السبع وقد شملت عائلة سويلم

على خمسة أبناء ذكور: حمدان، نبهان، دغمان، شجاع، رافع، وأربع بنات هن: وحيدة، جميلة، حزينة، رابية، ومن تحت هذه المغارة التي يسمع منها هدير الماء، ويتدفق ينبوع جارف من عروق الصخر، يتجمع نهر سيلي، يشكل دواوير، وشلالات صغيرة في منحدره السحيق، ويضيع في الآفاق الساحلية، حيث تركن المدن، وتبص المراكب الليلية فوق الصفحة الزرقاء، مثل حباحب خريفية، تلوح في دياجير الغابات النائية، وكانت المقبرة تجثم بجانب قبة الشيخ نجم الريحان في الوسط من ديرة الجرود، وعلى مقربة منها، سكن ابراهيم الجعفي وعائلته بعد هجرانهم من غويران الوطا ولم يجد الأب مكاناً آمناً أكثر من مجاورة القبور بعد الحل والترحال في أقاليم الأماكن، وضراوة الإنسان. وقد اتخذ أيوب السارح وغيلان الجعفي شجرة البلوط الضخمة المتاخمة للقبة، مأوى ومناسباً للاجتماعات السرية والدعوة للحزب الثوري. وكان أشد المقاومين لانتشاره بدر الجعفي وأسرته. وحارة المشائخ كانت ضالعة سراً ضد هذا التشكل الحزبي ولكنها لم تمارس في البدء المقاومة والتهديد البادیين، وانكبت على تكملة عمارة قبة الجد الأول الملقب بشيخ الجبل جعفر الخصيب وكان سكان الجرود يبيعون بقراتهم، ويرهنون بناتهم خادمات عند أغنياء المدينة، ليتبرعوا ويوفوا النذر عن أرواحهم لمقام شيخ الجبل، وكم حكيت معجزات وخوارق عن قدسية هذا الشيخ، وبراهينه على شفاء المرضى والمعتوهين الذين يزورونه، يبخرون مقامه، ويتبركون بلثم ضريحه، ويقدمون القرابين والخراف، نذوراً له، حتى روي عنه أن علمه الوافر تحتضنه رسائل عديدة، مفعمة بالتأملات العميقة، في سبر أغوار الحياة ومشحونة بالشعر الصوفي ولواعج الحنين إلى الذات الإلهية، والتخلص من أدران المادة، والارتقاء إلى عوالم الصفاء، واكتناه أسرار، نقطة اللقاء بين الزمان واللازمان، حتى أن بعض الطاعنين في السن من الجرود رآه بأم عينه، متجلياً بصورة شفافة، وبلحية بيضاء كالثلج، يستظل بالغارة الخضراء، أمام الكهف الدهري في أقصى غابة حارة المشائخ، وروت وحيدة بنت سويلم الدرويش أنها كانت تحتطب في الغابة، وأوغلت بعيداً، فتراءى لها شبح الشيخ بين الصخور البيض، في جلبابه الأخضر الطويل، وشاشه الناصع المنعقد فوق طربوش أرجواني. وأصابتها الرعدة، وراحت تهذي، وتغمغم بالحكايا عن الشيخ الذي لمحته بلحيته الثلجية، وعينيه اللتين تتوقدان مثل نجمة الصبح، وعافت الطعام والشراب، وقادها والدها سويلم الدرويش إلى حارة الشيخ أحمد الخصيب وسرد له حكايتها، والتابعة التي تتمركز في داخلها، وأمسك الشيخ الكوب المملوء بماء النبع الذي طلع من الأرض، عند قبر الشيخ جعفر الخصيب لما أقدموا على تشييد القبة الجديدة، وتمتم بعض الكلمات الخفية،

والتعاويذ السرية وعمل حرزاً من الورق، علق في صدر وحيدة الدرويش، وتماثلت للشفاء وذهبت عنها الرعبة بعد أيام عدة، وأوصيت أن لا تقرب بعد ذلك من كهف الغارة، وتحتطب هناك، لأن سر الله في خلقه ومن تجاوز حدوده، سقط في الحيرة وفقدان نفسه، وانتشرت هذه الحادثة كالنار في الهشيم بين الجرود، وزيد عليها الكثير، ونسجت حولها المخيلة الشعبية مسوحاً مزدانة بالمعجزات والخوارق، وفي إحدى الليالي الصيفية، احتضنت أرض عين الغار شبحين حقيقيين، كانا يزرعان خطواتهما بين الشعاب الصاعدة من الجسر الكفري إلى قبة الشيخ نجم الريحان حيث يسكن ابراهيم الجعفي وعائلته، ويقودهما في خطا متوجسة، أيوب السارح تحت ظلال الليل الذي يضوع برائحة غامضة. أشعة القمر وهو في أيامه الأولى، بين سرحات الغابة، فيستحيل العالم كوناً مشبوحاً مفعماً بالألغاز والموحيات، كانت روح الصيف تطوف بين هسهسات الأوراق وخلال الهدير الليلي عبر مساقط النهر، وتذوب في زرقة سموات، تطل منها تلك الصوامت الأزلية الملتمعة في قبة اللانهاية، فيتحول العالم الخارجي سمفونية ريفية مسكونة بالامتداد والاحتضان العميقين وقابلية جديدة لنثر بذور في رحم الأرض والإنسان، تحت الفيء القمري الشاحب: وترنحات بقايا أوراق السنديانة العتيقة، بجانب قبة الشيخ نجم الريحان كان اللقاء الأول، ونقطة البدء للتحرك الجنيني لنشوء الحزب الثوري في عين الغار. أسرع ابراهيم الجعفي وغيلان ابنه إلى استقبال الضيف الجديد. حملت رباب اللباد الصوفي الحائل اللون، وفرشته تحت السنديانة، وبجانب شجرة الغار التي لم ينل من خضرتها الخريف، ووضعت فوقه شرشفاً أبيض ممزق الأطراف وأمسكت بالتكايا المحشوة بالقش، وركزتها فوق الغطاء، تسلقت عيناها في وَلهٍ نبيل السواحلي اعترت خداها حمرة الخجل، أبعد معلم قرية (غويران الوطا) تلك النظرات عنه، حتى لا يلاحظ الجميع ذلك الوله المسمَّر في عيني رباب وهمس قائلاً:

–جئتكم بمناضل فذ، غني عن التعريف، وهو الدكتور الأخضر العربي الذي اطلع على تاريخ الثورات في العالم، وفهم وسائل تشكيلها وتنظيمها وهو قائد فكري في الحزب الثوري.

حملق غيلان الجعفي في مرتسمات الدكتور الأخضر العربي فطالعته تحت ذبالة القنديل، عينان متألقتان سوداوان تسبح فيهما رؤى مستقبلية متفائلة، حاجبان دغليان يمتدان حتى جانب فوديه، رأس ضخم مدور لم تبق عليه إلا بقايا خصلات شعر، تبدو كأجمة صغيرة وسط قفار جرداء، يظهر اكتئاب عميق وتصميم فوري من خلال ملامحه، تلمع أسنانه البيض فوق شفتين منقبضتين على

إرادة. كان معتدل العضلات أميل إلى القصر يوحي بالجلال والوقار. افتر ثغره عن ابتسامة معبرة، وأجاب ضاحكاً: منحني الرفيق نبيل السواحلي صفات اتوق إلى تحقيقها، فحبه الزائد لي أضفى علي أبعاداً أحلم أن أصل إليها. جئتكم سراً تحت جنح الظلام لأن البذور الثورية في بدايتها تحتاج إلى السرية، وإلى المناخ الصامت والتربة المناسبة لإنباتها، حدثني عنها طويلاً نبيل السواحلي وأعطاني صورة واضحة، بأنكم التربة الصالحة، ونقطة البداية في قرية عين الغار وأنتم الجرود، تحملتم من الصلب الهمجي والتعذيب على رحى الطاحونة الوثنية، ما لم تتحمله إلا الجماعات القليلة في تاريخ الإنسانية.

تطلعت الأم وطفا إلى سمات الدكتور الأخضر العربي، وقفزت إلى ساحة شعورها، من رميم الماضي، كلمات الشيخ محمود مبارك وهو يقول لها، ويشعر بالشفقة والرحمانية إزاء الجرود كم نكبوا، وأذلوا وشردوا في الأرض بلامسوغ، ولكن رغبته في أن يعريها، ويتملى فخذيها، ويغوص في لحمها الدافئ، تفوق كل مكامن الشفقة والرحمة بهم. وأخرجها من دهاليز الماضي ونزف عقدها، صوت ، أيوب السارح وهو يقول في تلهف:

– يفقد هذا الليل طعمه، إذا لم نسكب في عروقه العرق المسلس من كلكة سويلم الدرويش ولا يطيب السمر، ولا تنبت بذور الثورة إلا في جلوة الخمرة، ولا تغتسل عتبات الحس إلا بكركرات الأقداح، أنا لست قدكم في النظريات وامتداد الحروف والمجردات. ولكن الحياة أدركت ذاتها بالممارسة للمعاناة. سلخ الآخرون جلدي مرات عدة، ونبتت مكان السلخ قرون مناطحة استعجلي يا سحاب السمراء واجلبي معك الكؤوس الخشبية وأنا سأخرج ألفية العرق، المخبأة في غارة جارنا المقدس الشيخ نجم الريحان. تفنن الصيف بعرض معزوفاته الرائعة، غَنَّت عصافير برية في لحف الجبل أشجى أغانيها، غمغم ينبوع المقام في حارة المشائخ، غمغمات مبهمة ذابت في المدى المشبوح وامتزجت مع هدير نهر السبع ومساقطه الموغلة في أحشاء الأرض، وبثت نسيمات العشايا أرغنها في الأدغال الجبلية، وانثالت شهب لامعة، عبرت نهر المجرة، ومرت فوق القبة، واحترقت في المدى الليلي. ارتعشت ذبالة القنديل الزجاجي المسور، بزجاج شفيف ذي إطار تتكي يمنع تسرب الهواء، ولكن ثقوبه العدة، لم تحل دون دخول نفثات العشايا إليه، أوغلت رباب في ملامح المعلم نبيل السواحلي، وراحت تلتقط تعابير وجهه، وسرت في عروقها نبات شوق خفي، يحنن نزوعاً إلى احتضانه، خفق قلبها خفقات طير جريح، داهمه برد الأعالي، تلاقت العيون في وله الحب الصامت، أحست بأن شيئاً خفياً يدغدغها يحاول تعريتها بين فجوات جبل الشعرا، أحاسيس

عذراء بلون الاختلاء البكري، رجل مليء بالعنفوان، يؤرجحها بين مرجات العشب الشديدة الخضرة التي تنمو بين الصخور، ويفلي جسدها في عزلة الاختلاء، ونشوة التعرية، إنها الأحاسيس ذاتها التي انتابت أمها وطفا لما مزق عريها الشيخ محمود مبارك وراح يتفرج بسكره المجنون على تضاريسها. ويدغدغ في لهفة البدائي طيات لحمها الرخص، شعر أيوب السارح بحدسه النسائي أن رباب الطالعة على الحياة الجديدة، تشتهي في صمت المأخوذ فارسها، وتتوحم على مرآه، فغاص في داخله، وجرع الكأس الأولى بلا مزج بالماء، وصبَّ الثانية، ونهل منها نهلات مليئة بالحزن والغضب والغيرة، نهضت الأم وطفا تبعتها رباب. تناهت إلى الجميع نقنقة ديك وجلبة في الحائط الشمالي للبيت. فهم ذلك الشيخ ابراهيم الجعفي. خرج صوب الجلبة، كان الديك الوحيد، يتلوى في يدي رباب وتقدم السكين إلى أبيها الذي قاطعها مهدداً:

–ويلك: هذا منذور لمقام جعفر الخصيب صاحب المعجزات. نذرناه يوم قدمنا إلى هذه القرية، فكيف يفعل بنا إذا لم نوف النذرله؟!

تدخلت رباب في شراسة وقالت:

بدك تشوف أجمل من ها الحضرة. تجمعت أسرة غويران الوطا كلها. وما عندنا شيء يليق بإطعامهم إلا ها الديك. مقام سيدنا جعفر الخصيب يغفر لنا هذه المرة. ويؤجلها حتى يفرجها الله.

انتابت الأم وطفا عاصفة من الحنين إلى أيام الميلادية القديمة. حينما كان الشيخ محمود مبارك يعيدهم ويغمرهم بالحلاوة النفيشة والدبس، ويصحب معه الديوك لذبحها، وطبخها مع هريسة الحنطة. وتلمظت كأنها تشرق تلك المرقة، رغم بعد السنين، في ولع حزين، وتتملى الشبق في عيني الشيخ محمود والاشتهاء الكاسح، وهو يحدق بين مرتسماتها ويتلظى حالماً. عصف بها إحساس من الحنو، أدركت أن ابنتها تتوخى أن تقدم أغلى ما لديها إلى فارسها المرجو وهتفت:

–سأسنبل في حواكير المشائخ، وأجمع ثمن ديك آخر نوفيه للمقام. قريضة. يا بنتي، ذكرتني بحوادث مضت، انشحنت في ضلوعي، إتكل على الله يا شيخ ابراهيم، واذبح ها الديك.

تمتم الأب كلمات غير مسموعة وقرأ الفاتحة وجهر: سبحان من حَلَّلك للذبح وانقضَّ على الديك المربى، وقطع رأسه برهافة حد السكين التي يشحذها دوماً /بالسلاط/ الحجري القاسي، نهض غيلان ابنه، وجمع الحطوبات التي احتطبها من غابة الجبل والتي ليست وقفاً لأحد المقامين، أما الشجر الوقف فلا يجرؤ أحد

من الجرود على قطعه إلا في الأعياد الرسمية. اشتعلت النار في ظل السنديانة الهرمة، انكشفت في أجلى معانيها، واستبانت تعابير حزينة في وجه الدكتور الأخضر العربي وتراقصت ألسنة النار المتقدة فوق ضفائر /رباب الشقراء/ واحمر الخدان تحت وهج الجمرات. شعر أيوب السارح بعد الكوبين من العرق بأنه أمام إلهة النار في عريها الأسطوري. لم يدر لماذا تألقت في قحف رأسه خضراء مبارك يوم كانت ترتدي الثوب البنفسجي في عيد الرابع، وترقص بيد ابن عمها يوسف مبارك وقد وهجتها شمس الربيع، بأنشودة السحر والغواية، والتهب جسدها اشتهاء. تصاعدت رائحة الشواء، مع رقصات ظلال النار، ووُضِعت ألفية العرق وانفتحت سدادتها الفلينية، فوق السكملة الخشبية التي اشترتها وطفا يوم عرسها، وجلس الضيوف حولها، وجلبت سحاب السمراء ذات الجدائل الغجرية، صحون الزيتون المصمود، والسلق الجبلي المرشوش بعصارة السماق، أمسك أيوب السارح الكوب الخشبي المملوء بالعرق ونهض واقفاً وقد استبانت فوق ملامحه مرتسمات الأسى وانفعالات مضطربة تحت رماد أحاسيس ملتاعة وجأر:

–كأسك يا دكتور. هذا العرق ثلثه سويلم الدرويش عدة مرات وينقي تينه من المساطح في القرى الساحلية ويأتي صافياً كدفقات الينبوع في المغارة العليا. ولا أفهم لماذا يحرّمه الله في كتابه الكريم، ما دام الصديق الوفي للمحزونين والفقراء، وأنيساً للأغراب في غربتهم وشقائهم، وما دامت المشيئة الإلهية تبشر به للصالحين أنهار من خمر لذة للشاربين.

جفل ابراهيم الجعفي من هذه التجديفات التي يسوقها أيوب السارح وانتابه غيظ مكبوت وردّ قائلاً:

–يظهر أنك سكرت يا أيوب قبل الأوان وأنهار الخمر التي يعنيها الله، في تصوري، ليست الخمرة الكثيفة المسكرة التي تقصدها أنت بل اللذائذ الروحية النابعة من معرفة الله وتطبيق مفهوم التقوى والإيمان، وما الجنات الموعودة والحور العين، وأنهار من العسل المصفى والغلمان كاللؤلؤ المنثور، والظلال الأبدية، الأرموز لتلك اللذائذ الروحية، أليس كذلك، برأيك، يا دكتور؟!...

غاص الدكتور الأخضر العربي في الأشياء التي تحيط به، والتقط بحواسه تهويمات الصيف، والليل المفعم بالموحيات، والنار المشتعلة تحت السنديانة الضخمة وعبق بخور في الغضارة العتيقة المسندة إلى حوش القبة، وتكشيرة الفناء البادية بين القبور المكلسة، والجدائل المتراقصة على كتف رباب وتضَوُّغ زهرات برية في الأعالي كان يحملها نسيم الصبا الشرقي، على جناح أثيري شفاف إلى

الأنوف، وصياح بنات آوى بين الأوجار السحيقة، وانبثاق عصفور ليلي بزقزقته المفاجئة بين ظلال الغابة ونسيس الحطوبات في النار، وزغردات الجمرات في الإثفية الطينية، لملم من نسيج تأملاته، وارتشف رشفات مسموعة من العرق المثلث، وتمزمز به حتى تشرَّب مزاقه في هدوء وأردف مجيباً عن سؤال الأب:

–في قديم الزمان نزلت حكمة تقول قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان. ولكن نزعات السكرة الدائمة في العمق الإنساني لم تكتف بالقليل، وبهذا القليل امتلأت الأديرة بدنان الخمرة المعتقة، وعمَّتْ الخمارات المكان ولم تحرمها في البدء الحكمة القرآنية ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى. ولم يتوازن الإنسان في شربها حتى صارت تشرب عقله وصحوته، ونزل التحريم الكلي لها، غير أن في الخمرة المتوازن شربها، قابلية صوفية للامتداد، ونشوة للخروج من كثافة الجسد الصفيق، وغسل عتبات الحس، صوب رفَّات الشعر والفن والإلهام.

تنحنح نبيل السواحلي، أشعل سيجارة من بَصَّات النار، ومج منها مجات سريعة، وحملق في جنبات الليل، وأضاف قائلاً:

– لا تعنيني التأويلات، وطبيعة الخمرة الكامنة وراء هذا العالم، وجوهرية اللذائذ تحت ظلال الجنات المجهولة، التي لم يأت أحد منها ويخبرنا، نحن الأحياء، عن مكان وجودها، ولا عن زمن حصولها، بل جئنا لنزرع بذوراً انقلابية، قد لا نجد حصادها، وملة الجرود –سكان الجرد– الجبلي، أكثر الملل هرستها الطاحونة، عاشت في الجحيم الأرضي، وهي أحوج إلى أن تستعيد أبسط حقوقها، وتنال شيئاً من العدالة ولن يكون ذلك إلا بحزب ثوري، فالعبيد عبر العالم نهضوا من مراقدهم، ليحطموا أنيار العبودية، وما زال الجرود قابعين في أحراش عزلتهم وإنزوائهم وتكلساتهم الدهرية.

سقط نيزك فوق الجبل، شق الليل بشظاياه، انتشرت ساحة مضيئة فوق القمة، خيمت سكينة جبلية بين الشعاب الغابشة وأحدثت كلمات /نبيل السواحلي/ صدى في الأعماق الراكدة. فرقع الدكتور الأخضر العربي أصابعه الأنيقة، محدثاً صوتاً لزجاً، وهمس كمن يخاطب في العراء روح التاريخ:

–كل رسالة أرضية أو سماوية، تحتاج إلى أجنَّة جديدة وأناس يحتضنونها، معنى وجودهم يستخلص منها يُرخصون كل شيء في سبيلها. تبتدئ من نقطة، وتمتد من بذرة، تتكاثر أجنتها، انتصرت الدعوة الإسلامية كما تعرفون بالإيمان والعطاء، والصبر على تحمل العذابات، والهجرة الطويلة والفداء بالنفس والنفيس من أجل الرسالة. وامتدت المسيحية بالتلاميذ الذين سافروا بكلمات المخلص إلى

آفاق الأرض، وتحملوا أنياب الأسود الضارية في ساحات روما، وهؤلاء المريدون الأوائل قدوة فلنستخلص العِبَر من مسار حياتهم ومواقفهم.

أبرقت خاطرة في ذهن أيوب السارح، لف سيجارتين من علبته الصدئة وضع الأولى بين شفتي ابراهيم الجعفي والثانية دسها بين شفتيه وصرخ بصوت جلاه السكر:

الرسالات أفهمها جيداً، التاريخ العربي الإسلامي أحفظ مساره عن ظهر قلبي. كل الرسالات تظهر إنسانية وجميلة، ولكن محنتها في التطبيق. الهوة التي انحفرت في ذهني هي البعد بين المبادئ والممارسة، فلنبدأ بمن لهم مصلحة بالثورة، والانقلاب على الواقع من الحارة التحتانية آل الغشيم –آل الصوان. وآل برقروق. وعائلة سويلم الدرويش إنهم طبقة الفقراء الرثة.

سرح في ضفائر شعر رباب غرق في تقاطيع وجهها الأسيل، تأججت في قلبه حسرة المفارقة بين السنين. هي في ميعة العمر، وهو في كهولة تنزلق رويداً إلى شيخوخة. هبط إلى درجات نفسه الداخلية– هامساً في أعماقه [آه.. آه. لو أعود شاباً في العشرين لما فاتني اقتناصها، واعتصار الحمرة التي في وجنتيها) ونهض كمن به مسٌّ ولوَّح بيديه قائلاً:

تعشوا سآتيكم بسويلم الدرويش، وولديه حميدان، ونبهان وابنتيه وحيدة، وجميلة اللتين تجيدان الغناء على دلعونا، ويا أم الزلف والفروقات الشعبية، لأن هذا الليل له ما بعده.

غاب وراء العتمة، وعقاله يترنح، وشملته البيضاء، ترفرف وسط الغاب الجبلي، سافر الدكتور بعينيه اللامعتين وراء شبح أيوب السارح، وهو يغيب خلف الليل ونادى في حنو:

بمثل هؤلاء الناس المندفعين حماسة وممارسة، تصل الرسالات والأحزاب إلى حرق المراحل وتحقيق أهدافها. تكمن العفوية والإندفاعية البدئية، والقدرة على التحرك في عروق هؤلاء، إنهم يتجاوزون أصحاب الفكر والنظريات المجردة، يحيلون الأفكار إلى واقع والنظرية إلى ممارسة. كم انحني احتراماً إلى شخوصهم المجربة وأقدامهم اللصيقة بالتراب الشعبي. سمعت بحكايا عنهم شبيهة بالأساطير، ممن بلغوا الستين، كانوا يهجمون على دبابات فرنسا بسيوفهم ورشاشاتهم، فيهم تتجلى الحياة بأعمق خصوبتها، وتصارع الموت لتنتصر عليه بالموت في سبيل قيمها.

شدت الأم وطفا من تجاعيد فستانها المكشكش الطويل، وأنزلت من انحناءاته

اللاصقة حتى لا تبين المرتسمات، ويستشف الرائي الخط المنزلق، وقالت في ترحيب:

– أهلاً وسهلاً بكم. هل وقت العشا. سيطوّل أيوب حتى يرجع، بدنا نترك له الحصة من الديك حتى يعود مع جيراننا، خايفة أن يبرد اللحم.

انهمك الجميع بالطعام، ولم يعد مسموعاً إلا صوت التلمظ وقرقعة الخواشيق في المتبل، وكأنهم في مأتم، وتعرف وطفا الأم طبيعة نبيل السواحلي بأنه لا يحب الكلام على الطعام، وينطوي على ذاته حينما تتحرك أضراسه. غير أن الدكتور الأخضر العربي شعر بثقل هذا المأتم الطعامي وأراد أن يبدد من هذا التلمظ، وقال:

– في الغرب لا يعرفون هذا المتبل من الحنطة، ولا أكلة البرغل مع العدس. المطبخ الشرقي مشهور في الغرب، بأنه يتفنن بصنع الطعام والإمتلاء البطني بأطيب المأكولات، لعل بطوننا نمت على حساب أدمغتنا، وملذاتنا اقتصرت على الكثيف الجسدي منها، فمتع الموسيقا، ورؤية التماثيل وما فيها من الرهافة والجمال، واللوحات التصويرية في المتاحف وعلى الجدران، والرقص الرشيق، والأجواء الناعسة، كلها مناخات تخلق متعاً خاصة، نحن في الشرق نلوب على أكلة دسمة ونسعى إلى تكرارها.

انتفض نبيل السواحلي كمن به مسٌّ، وازدرد اللقمة في انفعالية مفاجئة ووقف عن الطعام وقال:

–ليس من يفتش عن اللقمة، ليسكت جوع معدته، ولا يكاد يجد ما يقيم أوده، كمن يتقلب في نُعَميَات الحياة، وينوع ملذاته الطعامية. قبل أن نفتش عن الملذات الجمالية والمتع العليا، لا بد لنا أن نملأ بطوننا وحاجاتنا الجسدية، إن من يجوع ويعرى، ويلهث وراء اللقمة لا يقدر أن يتسامى إلى صعيد المتع العليا، هؤلاء سكان الجرد والجبال مثل شاخص، ودليل واقعي على البؤس التاريخي والجوع الطويل والحرمان والقهر.

غابت نجيمات السماء الصيفية، جفلت طيور ليلية، حطت بجانب الغابة النازلة صوب قبة نجم الريحان، أصدت أصوات بشرية تهدودر من مغارة سويلم الدرويش وتشق حجاب الليل، أطل أيوب السارح وهو يحمل ألفية عرق، وينجرُّ خلفه الأب سويلم وولداه حميدان ونبهان وابنتاه وحيدة وجميلة. كانوا يسيرون في عجلة. وضع أيوب السارح الألفية بجانب السكملة، ملأ الكأس منها وقال رافعاً وملوحاً:

–بصحتكم جميعاً. جئتكم بالدراويش. هؤلاء لهم المصلحة الحقيقية بالثورة. كل الرسالات والتغيرات الثورية، قامت على أكتافهم، الطبيعة والفقر والزمن الراكد، والطعام الواحد المكرور الذي لا يتبدل طوال السنين لولا البرغل وسدونات التين والهواء النقي، وخبز التنور، وصفاء الماء في الينابيع لتفسخت أجسادهم ضموراً ولانقرضت، لولا المغارة الرحيمة المطينة بسواعدهم لأكلهم الوكف وزمهرير الأعالي، ولكن أجسادهم تكيفت مع المناخ القاسي، وقُدَّت من الصخر. شمرْ عن ساعديك – يا حميدان– وشوّفهم كفك البازلتية التي أكلت من الصخرة شقفة، ارفعي منديلك عن جمتك يا وحيدة لتبرز في وجهك سمات الجبل وصلابته، وأنت يا نبهان –أرنا عضلات يدك المفتوحة كعروق السنديان في قمة الشعرا، وانت يا سويلم الدرويش يا أبا الهول، افرد شملتك، تنبعث الليالي والعتمات وعواء الذئاب، وغمغمات الجبال، مهزومة أمام صرامة وجهك، وانت يا جميلة يا سوسنة البراري ارفعي صوتك [على دلعونا، على دلعونا وعلى أم الزلف] يخجل الوتر ويتحسر القصب، وتطرب العصافير، ويترنح شيخ الجبل سكراً، وتنسكب من الليل أرغنات مهوّمة.

وانفتل ناهضاً، والكأس بيديه، وصبَّها في جوفه، وكأنه يريد أن يغيِّب صحوة الغيرة في تضاريسه النفسية، ويستقطب الجميع بحركاته. أشار إلى أسرة سويلم الدرويش ليشاركوا في مرسح الدبكة ويفتتحوه. ابتدأت الحلقة، أمسك بمنديل صغير أحمر. يلوح به حول النار، ويترنح في رقصته وأومأ إلى غيلان وسحاب الجعفي، ليندفعا إلى الرقص والغناء، وأغفل رباب قصداً، لأنه كان أمام نارين، نار الغيرة التي تكوي أعصابه، والنار المشتعلة في الخارج. وراح يدور حولها في حلقة. تنحنح قليلاً، سكب كوب العرق بجوفه دفعة واحدة، ارتسمت أشعة ندية في عينيه. غنى في توجع المرتحل الذي أكله الحنين إلى أعشاب زمن عتيق، اخضوضر بالمجد أحقاباً مزهرة، واعتراه الذبول بعد ذلك، وقد حفظ هذه الأغنية ولا يعلم من ألفها:

لتعُيدنّ ما مضى لنَحيينّ ما اندثر
ليذاعنّ في الدنا عن حبيب لنا خبر

امتلك غيلان الجعفي جنون عجيب، ركض صوب الصندوق الخشبي وأخرج شبابته القصبية، وحمل الربابة ووترها المرهف، ورماهما في حضن والده، راح ينفخ ويجرِّح وجه الليل بأنات القصب. وزاحمته الربابة ببحاتها التي تحرك عروق الحجر، وتجاوبت الأصداء وترنحت روح الطبيعة، واصطفقت أوراق شجرة البلوط،

بجانب القبة وتمايلت وريقات الغارة الشديدة الخضرة، وأصدت الشعاب الجبلية بالأغاني والفروقات الشعبية، ورفعت جميلة صوتها السحري في آماد العتمة الموحية وأحس الضيفان أن في هذه الأغاني الحزينة تكمن مأساة عريضة في العقل الجمعي لسكان الجرود. خرجت الأم وطفا عن مهابتها، وارتعشت أقدامها، تذكرت طبول آل مبارك في أفراحهم، وتجاوبت مع الفروقات التي كان أيوب السارح يغير من خواتمها:

لياليا يا ليا يا ليلى الثوروبا
أنت الدلال بيلبق لك وأنا العذاب عليا

تغلغلت سكرة طاغية في كيان الجميع. انصهر الدكتور الأخضر العربي ونبيل السواحلي في أتون هذه الحميا الشعبية، وشاركا في الرقص والغناء والتصفيق، وزالت الفوارق بين الحاضرين، وتآخت بحات الربابة التي كان يديرها الأب ابراهيم الجعفي مع رعشات القصب وثقوبه الحرّى مع انسيابات صوت جميلة وا نصبت في ثالوث إيقاعي منسجم امتد طويلاً في الذاكرات التي غدت تجتره وتعيده، وتفتحت ألف زهرة كانت مغمضة في قفار العيش الرتيبي وأزهرت نجمة الصبح كفلقة الرمان فوق عين الغار وترنم الدكتور الأخضر العربي بصوته الأجش، وقد غمرته النشوة.

أرى موطنَ الأحرار قد طال ليلَه غدا يشرقُ الصبحانِ البعثَ والفجر.

رددت الرعوش وذرا جبال الشعرا، وغابات الملزق الغربي، ودواوير نهر السبع والمزارات المقدسة، تراجيع تلك الليلة المشهودة وكتبت على صفحة الزمن الراكد، أن الجرود نهضوا ليسحقوا أنيار العزلة والقهر عن أعناقهم. وأن الإيمان بالرسالة الجديدة، يقاس بمقدار ما يضحى من أجلها، وأن البذور قد طمرت في التراب الملائم للنماء، حيث تتوالد من رشيمها حركة الحياة، وقدرت تأثيرات هذه الليلة أن تنقش في العمق بدايات دوائر تتداح وتتسع حتى تلامس أقصى الجهات، فتوهجت أزاهير الحزن والفقر وانطلقت من عقالها، الكوابيس والأحلام المجهضة، وامتزجت لهفة الغيرة، ومواويل الجنس بإشراقات الأمل الآتي من شرفات الزمن الجديد، في معزوفة، إنسانية متفائلة يتساوى فيها الناس جميعاً، بعيداً عن شرانق التعصب، والحقد والعقد الصفراء، معبرة عن حقيقة مضيئة، تصفع الجمود والتكلس وهي أن الإنسان في زمن ما هو غير الإنسان في زمن آخر وأن الصيرورة تمسح الناس

والأشياء.

□□□

الفصل التاسع

ضامة المغارة

دارت عجلة الزمن تحمل في دورانها رسوم مصائر إنسانية جديدة انسحبت على عين الغار تلك القرية المنسية بين سفوح جبال الشعرا بزواج أيوب السارح من جميلة بنت سويلم الدرويش ذات الصوت الساحر الذي اجتذبه منذ السهرة، وذات السمرة الغامقة والعينين المغرقتين بالسواد، اللتين تنقلانك إلى أعرابيات الصحارى الجنوبية، والفطرية الأولى، تزوجها بسرعة، واشترى أرضاً صغيرة بجانب المغارة من أغوات العثمانية، وبنى بيتاً من حجر الدفش سماه ضامة المغارة فوق إطلالة مشرفة على جانبي نهر السبع، على مقربة من دوَّار المجنونة ذلك الدُّوار الذي كونته مساقط النهر السيلي الآتي من منحنيات الجبال وسلاسلها. كانت غابة من شجر العزر والصنوبر البري، تحيط من الجهة الشمالية بالضامة، وقد ساعد آل الدرويش صهرهم الجديد بنقل المدود الخشبية، وبنشر بعض الأشجار الصنوبرية، وتقشيرها وتعمير هذه الضامة وسقفها بالبلان والطيون والأشواك الكثيفة، وتطيينها بتراب خاص يتحمل الوكف والبلل، وتحوير جدرانها بالطين الأبيض الناصع. وأثمر الجهد الذي بذله الدكتور الأخضر العربي بافتتاح مدرسة ابتدائية في الحارة التحتانية، مؤلفة من غرفة واحدة واسعة، نقلت إليها المقاعد وعين فيها نبيل السواحلي معلماً ومرشداً ثورياً في الخفاء وقد تزوج من رباب الجعفي وبنى غرفة متسطيلة بجانب مزار الشيخ نجم الريحان وملاصقة لبيت عمه، أما غيلان الجعفي فراح يمضي أيامه بالذهاب إلى قرية العثمانية لينهل من العلم ويتزود بالمعارف من تلك الإعدادية التي تقع وسط تلك القرية. كانت جدر سود بلون التقاليد والجمود، تحاصره حينما كان يبث أفكار ثورية في أذهان زملائه حتى أنه أشبع ضرباً من أهل القرية مرات عدة، وهدد بالطرد، ولكن المدرس فجر الشريف بشخصيته القوية، وثقافته الرحبة، وإيمانه الصميمي بروح التغيير والثورة على الواقع وعناكبه، كان يحميه من الطرد والاضطهاد، ويدافع عنه، ويحمله

المنشورات ليوزعها سراً في قرية عين الغار وبين المرابعين الفقراء الذين يلتصقون بتراب الكدح والظلم. كان جسر الكفري هو مفترق الطريق بين عالمين متباينين كم تدرأ من لزبات المطر وزخاته، تحت قناطر هذا الجسر!؟ كم أصغى إلى هدير السيل في الأغوار البعيدة! لم يدر لماذا كان هدير السيل يرتبط في ذهنه بهدير الثورات وفصول رواية الفولاذ سقيناه وغوركي بخواطره وطفولته وصيحات الثوار في سهوب آسيا، وأميركا اللاتينية، ومئات النشرات المليئة بروح التمرد، وتصوير أحزان المنبوذين في الأرض، وإشراقات الدعوة إلى الغد الوحدوي، كم تصور نفسه يطير ليحتضن الأرض الملوعة، وينسف التخوم المصطنعة بين الأقطار العربية، وينصهر في مد الإنسانية الرحبة. ما أهول انفعالات المدرس فجر الشريف وهو يشرح التاريخ العربي القديم، وغروب الأندلس، وملوك الطوائف، وعتمة عصور الانحدار والطغيان وسلاطين آل عثمان، وغدر الاستعمار الغربي، وخطورة الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، وطرد الشعب صاحب الحق من بياراته وأرضه، وتراثه، ورميه تحت الخيام. كانت كلماته مسكونة بالوجع التاريخي والدفء الثوري، تتفجر في عنف وثقة، تبصُّ عيناه العسليتان في مؤق عينيه الغارقتين في تأملات بعيدة، ويبرز أنف أقنى كأنه قدّ من صخر، وتنسحب شفتان رقيقتان على فم تمسحه إرادة بوذية مصممة، وتشمخ جبهته العالية، صوب أبعاد فكرية بعيدة، رست فوقها تجاعيد، موَّجتها معاناة وعراك مع الزمن واندلقت في وجهه سمرة مشوبة، بحمرة خفيفة، وانسرب إلى بعض شعره الخفيف شيب فضي، يؤذن برحيل الشاب قبل أوانه، وكان تعبير جليل ينفر من ملامحه ويمسك كل من يراه بيد خفية. في عصر يوم خريفي استدعى غيلان الجعفي إلى زيارته في العلية الجنوبية من قرية العثمانية المطلة على جنبات عين الغار وعلى الدرج الحائل اللون التقى برابعة أخت أستاذه. الشعر ليلي الانسياب، العينان صحراويتان مُغرقتان في سواد المقل والوجه يميل إلى السمرة الخمرية، تنساب فيه نعومة الأماسي الرخية في غوطة دمشق، القد ممتلئ أميل إلى القصر ينتهي بعجيزة ذات شكل إجاصي. شفتان ممتلئتان على عكس أخيها، كرزيتان تحملان إلى الرائي الشوق الملح إلى التقبيل. كانت معالم الإغراء فيها أكثر من الجمال. شعر غيلان الجعفي، عندما جلس فوق الخوان الخشبي بأن حدساً خفياً غدا يتبرعم في أعماقه، دون أن يجدله تفسيراً، يوحي بأن هذه الفتاة الغريبة عنه، سيكون لها فيما بعد دور في حياته الآتية، اقترب الأستاذ فجر الشريف من غيلان الجعفي ودسَّ في يده رزمة سرية من المنشورات، وهمس في خفوت:

–إنها منشورات ممنوعة، تصور المآسي التي يلاقيها الرفاق في سجون

الشيشكلي، ينبغي أن توزع سراً في الليل، بعيداً عن عيون السلطة من حركة التحرير. جاءتني البارحة من دمشق، تلتهب سطورها بتصوير واقعة جسر فكتوريا حينما تصدى المناضلون إلى دبابات السلطة بإيمانهم وصدورهم العامرة، وسحق بعضهم تحت جنازيرها، وبعضهم ارتمى في نهر بردى. ولن تكون وحدك في تأدية هذه المهمة، وسيأتي حسام حاتم ويوزعها في العثمانية وأنت توزعها في عين الغار وجهات الجرود وإذا اصطادتك السلطة فالزم الصمت حتى الموت.

أحس غيلان الجعفي بأن مخاضاً جديداً يتقمَّصه، وإنساناً آخر يتعلمق في كيانه. ذهب زمن الأقوال والأحلام، وانكشفت التجربة وتبدى: عري الواقع، يزحف إلى جسده الغض، سيقدم على المخاطرة، ويحمل المنشورات السرية ورأى لون المخاطرة الجديدة والقفز في مهب الأقدار.

من أين أبدأ بالتوزيع؟

نفض الأستاذ فجر الشريف رماد غليونه، وألهب الشعلة فيه وقال:

–أبداً من ضامة أيوب السارح وأمسح قرية عين الغار وألصق منشوراتك فوق عتبات بيوت الدفش عند الحارة التحتانية وتنبه إلى جواسيس السلطة، وعيونهم في حارة أقربائك بدر الجعفي وأولاده فالأغوات والسلطة يسيران في خط واحد، كما وصلتني الأخبار، وسأوكل لغيرك ممن مارسوا هذه المهمات سابقاً بنشرها في قرية العثمانية.

تحسس غيلان الجعفي المنشورات في صدره، وانطلق لا يلوي على شيء قافزاً الدرج، سارحاً في الأزقة الترابية عبر قرية العثمانية، هابطاً الرعوش، والتلات المؤدية إلى عين الغار عابراً الجسر الكفري الذي يفصل بين عالمي التوجس والطمأنينة، كانت زمزمات الظهيرة الخريفية تخيم على تلك المنحدرات الغربية التي تبرز في منخفضاتها كروم التين والعنب في أواخر موسمها، رائحة الأوراق الصفر الذابلة قبل أوانها، تعبق في العراء الساخن. ثمرات تين راجعي، ثقبتها الزنابير، وراحت تمتص عسلها في نهم، عروق بنفسجية بلون الموت تتمثل بشكل أشباح تومئ بخاطرة الزوال. أراد ضحيان يبرق في المرورى والهوات الفاغرة. تحت التينة التي ما زالت ثمارها، تتأخر في النضج، لمح أمون بنت الغشيم تفلي جسدها وقد انحسر فخذاها السمراوان عن لهيب صحراوي، تعتصر نهديها في حركة مجنونة، وتتقلب كأنها تشوى على تنور جبلي، راح يراقبها في دهشة، إنها المرة الأولى التي يرى فيها امرأة، تجري طقوسها الجنسية الخاصة بها. جسد طري في ريعان تفتحه، ينزف شهوة وعرقاً، أنات بلون الجؤار البقري تتصاعد من فجواته الزنخة، رائحة

وحشية كرائحة قطيع الماعز وقت اللقاح، تفعم البرية الخريفية، اعتصارات بكر، تنفذ من خلاياها، عينان فاحمتان، تتفتحان فيرى من كثب دموعاً متوهجة لا تنسكب وتغمضان مع الاعتصار، فيتمثل كائناً بوهيمياً، يعتصر نفسه شهوات جمرية. شعر بحزن عاصف، يسري في عروقه، وبتنميل في أعضائه لم يفهم سببهما، كان مبهوراً بمنظر امتزجت فيه الوحشة والقدسية معاً، حبس غيلان الجعفي أنفاسه وهو يتأمل هذا الاعتصار الفطري والتقلب الجمري، حتى نهايتهما، وانفراج الأزمة عن ابتسامة غبيطة، وتهالك على رعشات خاصة، رحلت معها إلى دنيا الانتشاء، وهبطت بعدها أمون الغشيم إلى مهاوي الإنطفاء والندم. رفعت لبيستها المرقعة الطويلة، جمعت فخذيها أسدلت الستار على عريها عادت إلى حالها الطبيعية، نهضت لترى ما حدث لعنزاتها، تلاقت عيناها بعيني غيلان الجعفي انتابتها هزة المباغتة، سرحت في الظهيرة الخريفية، التقطت من الآفاق الساخنة صورة عنزاتها، وهي تركع تحت السنديانة العتيقة في قيلولة هادئة، وابتدرت مسائلة:

ولك صار لك زمان هوني؟! خلف شجرة التين الراجعي، هل شفت شي؟ شو حال صدرك منتفخ؟ كنت بقرية العثمانية، سمعت عنك أنك عما تقرأ في الإعدادية، ولا تمر بحارة التحتانية.

ابتسم /غيلان الجعفي/ ابتسامة مواربة، حملق في لبيستها المرقعة المفروكة وقال:

–منذ كنت تمارسين عادتك الجميلة، تعتصرين جسدك الفائر، المنتفخ مثل حبات قمحكم، حينما ينسلق في الدست، وتتفتح فلقتاها لقد بهرتيني بتموجاتك على العشب الناعم، وكدت تحرقينني بأنفاسك الحرى، وتلهبينني بدوامة جسدك التنوري، لو لا حلم الله. أما صدري المنتفخ فلا شأن لك به، وسأمر دوماً إلى حارتكم، بعد الآن.

خيمت سكينة خرسا، حتى طفت فوقها زمزمات نحلات برية، وتصاعدت رائحة مريضة من مروري تجمعت فيها مياه آسنة، واختلطت مع قيلولة العنزات ووساخة جلودها، وامتزجت مع نزيف وريقات متساقطة عن أماتها، بان حزن مقيت فوق ملامح أمون وندت عنها آهة انحصار وقالت في براءة:

–لك عندما يتفتح جسدي المراهق، يفور مثل نار السلقة ويحاصرني شيء بطعم اللهب، وما بعرف شو بدي سوي فيه؟! وحق قبة نجم الريحان، إذا بقي هيك فاير، بدي إرميه من ها الحافة الغربية، وأتخلص من ها النار المشتعلة فيه.

هرولت صوب السنديانة التي تقيل تحتها عنزاتها، ممزقة حجب صمت الظهيرة الخريفية ومحدثة أصداء شبيهة بوقع حجرة في بركة راكدة. بينما كان غيلان الجعفي يعرج على البراري والطلعات الحادة التي تؤدي إلى ضامة المغارة عند أيوب السارح، ليلقي ما بجعبته من المنشورات الممنوعة. حينما كانت مخابيط الغسالات تقرقع في دواوير النهر، وشجيرات الديس بثمراتها العنابية وأشواكها، تغطي مع الدغل البري، أشباح نسوة يغتسلن في العراء بعيداً عن الأعين المترصدة بين جفنات الغار، كان دخان نحيل يتصاعد من هذه الأغوار، ويرسم غمامات نارنجية في أفق ساخن، ويلامس في ارتفاعه مغارة سويلم الدرويش ويذهب أباديد في شعاب جبلية. كانت مساقط النهر، وهو في انحداره، تحدث غمغمات مختنفة، تذوب مع بقبقات كلكة بني سويلم، التي يثلث بها عرق التين والعنب بعيداً عن أعين الدرك ورائحة اليانسون المسكرة تفحم الخياشم بعبق متفرد، وتختلط مع رائحة النسوة والصابون الممتزج مع أوراق الغار ورغوته النافذة، سطع في مخيلة غيلان الجعفي حلم عجائبي وانتابه إحساس بقدرته على الطيران، وأن بعداً ثالثاً للأشياء راح يتكوَّن من خلال هذه اللوحات التي فجرها الخريف في كيان الناس، طقوساً عارية، فيها تكمن البدئية الأولى. تلامح عن قرب أيوب السارح على باب المغارة يعشف الحشائش الشوكية، ويزيل ذلك الدغل المتراكم على بابها، خشية تسلل الحيات المبرقشة إلى ضامته في الليالي الساجية يوم يختلي بامرأته جميلة بنت سويلم التي لم يرو ظمأها الفطري إلى المناطحة ولم يسكت أناتها الضارعة إلى الإشباع، حتى كان يغلق فمها أحياناً حتى لا يسمع أهلها تلك التأوهات المجنونة التي تتصاعد من عرزال الضامة وهدير الخشب المنهوك تحت آلية الغريزة، وتداخل الأجساد.

ولما أبصر غيلان الجعفي آتياً، توقف عن العشف، وطرح القالوشة أرضاً، وفتح ذراعيه مرحباً، وأدرك من انتفاخ الصدر أن منشورات مدسوسة هناك، من خلال ممارسته الطويلة، تلمسها في فرح ظاهر وهتف قائلاً:

–أرجو أن تكون قد حملت معك ما يغطي حارات عين الغار وجهات الجرود، سأعلقها ليلاً فوق عتبات حارة المشائخ، وأجعل بيت بدر الجعفي عميل السلطة، وزلمة أغوات قرية العثمانية، يرتجفون من حروفها، سأقرأها لعائلات الحارة التحتانية، بيت الغشيم، والصَّوان، وبرقروق، وما يبقى منها، إلى بيوت الجرود القبلية حتى غويران الوطا واسمع بها قبة الشيخ نجم الريحان ومقام جعفر الخصيب.

أمسك بالجعبة، دخل الضامة، نشر محتواها من المنشورات في الزاوية الغابشة تحت العرزال، وتقرَّاها كمن يتحسس كائنات حية تهتز تحت أنامله، وتستحيل فيها الحروف نبضات قلب، ونداءات المسجونين من رفاقه تقفز بين السطور، وتتمثل أمامه. حملق به غيلان الجعفي كمن يراه أول مرة. التهمت نظراته تلك التضاريس المحفورة في وجهه، المعبرة عن عراك أيوب السارح مع الأيام وهمس قائلاً:

– أوصاني الأستاذ فخر الشريف أن أوزعها في صمت وأكون حذراً من عيون الجواسيس الموالين للدكتاتور، وهي منشورات تضج بتظاهرات المناضلين ومواقف العين التي تقابل المحزز، وانكشافها سيؤدي بنا وبالمنظمة في هذه الديرة، ويؤخر خطوات النضال في هذه المرحلة العصيبة. دسّ أيوب السارح الجعبة في كومة القش تحت العرزال الخشبي الذي سواه بيديه وجمع قوائمه من أشجار الحور النامية في دوار المجنونة على حوافي النهر السيلي، ونصبه في زاوية الضامة، ورفعه عن الأرض حتى لا يسري البلل إلى الفرشة الوحيدة التي ينام عليها مع امرأته ونادى قائلاً:

– صهرك نبيل السواحلي غائب عن الساحة في هذه الأيام. ومنذ تزوج أختك المصونة، ضعفت حماسته في العمل النضالي في قرية غويران الوطا، كان أشبه بجمرة متوقدة وثورة على الطغاة، يا حسرتي عليه، لما شاف أختك ها المباركة، نسي هاالشيمانة أعني الرسالة ومتطلباتها.

شعر غيلان الجعفي بأن في كلمات أيوب السارح حقداً دفيناً على صهره يعود إلى زمن زواج أخته رباب حيث انقطع عن زيارة بيتهم بجانب المقبرة، حتى أنه يمر بجانب قبة الشيخ نجم الريحان، ولا يدير وجهه صوبهم، ويغمز دوماً من شخصية صهره المعلم نبيل السواحلي أمام الجرود في القرية التحتانية، كأن خفاشاً أسود سكن في قلبه، وغيَّر من سلوكه مع أسرته، وخفت تلك العلاقة الحميمة التي كان يظهرها رفيقة له، وأجابه في حنو بائن:

– رسالتنا أكبر من وجودنا كأفراد، هكذا علَّمنا أستاذنا فجر الشريف وينبغي أن نصهر أنفسنا في مسارها، وننسى أهواءنا وأحقادنا الخاصة، من أجل امتدادها، وفيضها الكبير.

تسربت إلى أنفه رائحة العرق المثلث في المغارة والتقطت عيناه محتويات الضامة. العرزال الخشبي بقوائمه الأربع، الصندوق المزركش الذي يحتوي على ثياب، جميلة بنت سويلم. الخواشيق الخشبية المتناثرة في أرضية الضامة، مواعين

وقصعة فخارية لعجن الطحين، بعض الصحون الزجاجية الأثرية التي احتفظ بها أيوب السارح كذكرى عن رحيله في أقاليم المكان، دمجانة عرق منسوج ظاهرها بأغصان الريحان الذي ينبت وراء تلك المسالك الجبلية، وتحت قنطرة الجسر الكفري وأرجل ذبابات مسحوقة في جدار الضامة المطلي بالحوار، ووجاق طيني في الزاوية وقد أسودت أعاليه وبدت فوق تعرشاته المخروطية، رسوم أصابع نحيلة، طبعت فوقه عندما كان الطين طرياً. رغم اتساع هذه الضامة في داخلها. لم يدر لماذا أطلق عليها هذا الاسم، وهي أشبه ببقية بيوت الدفش في عين الغار ولا تتباين عنها إلا بارتفاعها فوق صخرة ضخمة، حتى تبدو من بعيد أنها منحوتة برعش الجبل، كطير الرخ الخرافي، يموج بين جزر الواق الواق المنشورة في طيات ألف ليلة وليلة. كانت الشمس تنحدر نحو المغيب، وتتراقص أشعتها فوق قمم الشعرا، ومساقط النهر السيلي تهدر في الآفاق، وتمتزج مع أغنيات الخريف وبراكين الشمس البنفسجية، تطبع الكون بأحاسيس غروبية راحلة. صرخ أيوب السارح كمن به مس من هذه الأحاسيس:

–الليل قادم، بعد رحيل الشمس، وتحت قمرة تشرين المتفتحة. سنؤدي المهمة. نبدأ بالصاق المنشورات فوق البيوت المنفردة البعيدة، ونمسح الحارة التحتانية، وهناك محمود الغشيم، ونصير الصوَّان حامد برقروق ولفيف من المرابعين المتحمسين الذين لهم مصلحة بالثورة، وسنأخذ رأي صهرك العزيز نبيل السواحلي بمسار المهمة لعله يفيدنا، بممارساته السابقة التي يتبجح بها. وما تبقى سنلصقه على عتبات بيوت /قرية العثمانية/ القريبة من الجسر.

ارتسم ظل جميلة سويلم فوق باب الضامة الغربي، أمسكت بالعتبة، بان على وجهها توجس مريب، انفتحت عيناها في جحوظ مذعور. تألق في مؤق عينيها المغرقتين بالسواد وميض ناحل، وارتعشت شفتاها ارتعاشة طائر مجروح، وغمغمت بكلمات ملؤها الحزن والخوف:

–ولك أيوب!؟ ما اكتفيت من المشاكل، وحق قبة الشيخ نجم الريحان إذا مسكوك ها المرة، الذباب الأزرق ما عارف وين أنت؟ ما خليت واحة في صحراء العرب، حتى تلول اليمن الوعرة، وجبال لبنان العالية، إلا وكان لك فيها قناق وذكر. كسّرت القنون جناحك وما تبت. وبعد عدة شهور، بيصير عندك ولد: ما ترحم حملي في بطني: سمعت كل الحديث وتوزيع المنشورات الله يسترك. هاالمرة بتكون القاضية.

أزاح أيوب السارح القش عن الجعبة، وأبعد امرأته عن باب الضامة، ونزل

صوب حارات الجرود، وبقلب مفعم بالإيمان، دار سبع دورات حول قبة الشيخ نجم الريحان كما يفعل الناس حول الكعبة، وبصحبته غيلان الجعفي الذي حاول أن لا يراه أبواه، وكانت ليلة تشرينية والقمر في تمامه، يرسل أشعته من جبال سامقة، ويتعربش كقنديل ساطع الضياء فوق الصخور، وبين فجوات النهر السيلي، ويلتمع فوق مقام الشيخ جعفر الخصيب وحارة المشائخ الغافية في أحضان الشعاب الجنوبية، المطلية بحوَّار أبيض ساطع، وينحدر شعاعه فوق أعلى قبة الشيخ نجم الريحان، وتنسل أضواؤه إلى سطوح الحارة التحتانية وبين دواوير النهر المظللة بغابة الحورو السنديان البري، وتحت قنطرة الجسر الكفري الراكع تحت أقدام حواكير الحارة التحتانية، كانت ظلال أربعة من رفاق، سكنت فيهم روح أمتهم، يتقاسمون المنشورات على بعضهم بعضاً، ليوزعوها، ويلصقوها على عتبات البيوت، مجازفين بوجودهم، لعلهم يحركون سكونية التاريخ الجامد، يكتبون على صفحاته الجديدة ميلاد حركة حضارية، ويرسمون صبحاً مشرقاً للوحدة العربية وللعدالة الاجتماعية والمساواة في ليالي الظلم والقهر والتفريق الطائفي والعرقي، وكوابيس الاضطهاد الطويلة، وخنق الحرية، والمحاسبة على لهاث الكلمة المتمردة.

❐❐❐

الفصل العاشر

الاعتقال والسجون

أشعة باهتة تتسرب من غرفة التحقيق في سجن الشيخ حسن في دمشق القديمة، ظلال مرتجفة تتراقص فوق تلك الجدران المريضة التي تختنق في زواياها النفوس البشرية، ظلامية عصور الترك تجوس بين ثناياها، وتنشر رائحة الانسحاق والطغيان الأصفر. ثلاثة شخوص محصورة في وسطها. طاولة ملطخة بآثار الدم، ينتفخ خلفها ضابط التحقيق، كبالون أسود، تبرق عيناه الحالكتان بالسواد، همجية وتلمظاً إلى الفريسة، كرباج جلدي غليظ مصبوغة أطرافه بالدم، يربض كأفعوان مرقش تحت أكداس الحشائش اليابسة ينتظر أن ينقض، بلاط ناصل تكسرت على جوانبه الأيام وتخبطات المساجين ورصات الفلقات على الأرجل المرفوعة والمربوطة بحبال خشنة وعصى قاسية، لانتزاع الاعترافات قسراً. غيلان الجعفي شعر بأنه في منزلق موحل، يخونه جسده المُدمَّى الذي لم يجرب من قبل تلك الممارسات الوحشية التي ينقصف بها جسده الواهي، كدمات زرق ونزيف جلدي، آثار تعذيب منطبعة فوق خلاياه. كان ينظر إلى معلميه الواقفين بحذائه، نبيل السواحلي، وفجر الشريف، اللذين تبديا من هول التعذيب كفزاعات الفلاحين المنصوبة في جوبات مزروعة، تخيف القادمين إليها، وجه صهره ملطوم بحفر اللكمات، جفناه متورمان حتى لا يرى بصيص العينين إلا بجهد ممعن، شعر معروك من الشد والضرب، شفتان ترابيتان اختلط بهما الدم المخثر ونفثات النيكوتين. شخص أستاذه فجر الشريف يبدو كغصن مقصوف عن شجرته الأم، غير أن التماعاً متحدياً ظل، يشرق في عينيه، وينعكس على جبهته التي انطبعت فوقها آثار لطمات ومسامير أحذية عسكرية، بشكل دائري مفجوع. نهض الضابط العقيد شوكت، خرج من خلف الطاولة، تناول الكرباج المبرقش، فرقعه في الهواء فرقعات مريبة، استبانت كرشه المندلقة، أبرق في عينيه غضب لئيم، كشر عن شدقيه، برزت أسانه الذئبية المعوجَّة في فكيه، انسربت من كهوف بعيدة عفاريت القرون الخالية، وراحت تنطلق من قمقمها، تحت الأرض بأرجلها، وتعتصر مخيلة

غيلان الجعفي برجوم من الماضي، صار جسده ينزف، يبعد عنه، يئن خارج شعوره كان كلما ينهال عليه الضرب، يغوص في تجربة مريعة، ويتناهى إليه وقع المخابيط الليلية، في دواوير نهر السبع، لشياطين سود لها أذناب طويلة، تسكن في مغاور النهر وفي مرشاته، تحدث عنها الساكنون في لحف الجبال، وتوهمها سويلم الدرويش وهي تركض عارية في مهمه الليل القمري، وتنعب كالبوم، تحمل المخابيط الخشبية القاسية، وتقرع صفحة الماء المنزوي وراء الصخور الدهرية كما يقرع الجسد بالكرباج. غاب وقع المخابيط في مخيلة غيلان الجعفي. استقر الكرباج على الطاولة وقد تلطخ بدم الفريسة، غدا ضابط التحقيق شوكت يلهث تعباً، وقد أفرغ شحنة غضبه في تلك الشخوص الثلاثة البادية أمامه، كان كذئب الفلا، شبع من النهش، وأقعى ليجتر، ويريح أنيابه المعوجة، أخرج سيجارة من علبة أمريكية أنيقة، وأشعلها بقداحة ذهبية، ونفث نفثات نارنجية تصاعدت دوَّامات في فراغ الغرفة. استنقع الزمن في مخاضة موحلة، ارتد الثلاثة إلى ذاكراتهم يحفرون فيها، ويمضغون بأعينهم حركات الضابط وتجشؤاته المتكررة، وتلمظه بسحائب الدخان، وإخراجه من فمه، كآلة بخارية صدئة، تنفث من ورائها دخانها المزنجر، ضرب الطاولة ضربات جنونية، وجأر بصوته الأجش:

–عال، عال؟! مناضلون آخر زمان، سأجعل جلودكم تتقشر وعتمة السراديب تأكلكم، والزنزانات المنفردة تزحف إليكم، وتلسعكم بأفاعيها الخفية، ستتعفنون هناك، جزاء منشوراتكم الداعية إلى التمرد على سلطة الزعيم العادل، سألاحق أذنابكم أيوب السارح وحميدان الدرويش في عين الغار وحسام حاتم في قرية العثمانية زبانية الحزب الثوري المراهق.

انبثقت غبطة مفاجئة في مخيلة غيلان الجعفي وقفزت إلى وعيه صورة أيوب السارح يتخفى كعادته في معاصي الشعرا، يختبئ في الكهوف وينام في الأحراش، ويتقرى كل يوم مبيتاً جديداً بين جفنات الأدغال البرية، يوغل بعيداً في عروق الأرض، يقطف ثمار الغابات ودوام البلوط، وثمرات الديس الكرزية، وينتقي الحشائش المفيدة، ويجعلها طعاماً له تقيه غوائل الجوع، إنه كما عرفه، أبو الأهوال والدروب المقفرة، ودوَّاس الليالي، المظلمة التي تتقطر العتمة من كثافتها، ويهيم في لجتها عواء الذئاب الضارية. لاحظ الضابط شوكت العاتي ظل ابتسامة متشفية تتزيا فوق شفتي غيلان الجعفي فهيج فيه سورة الغضب وأمسك الكرباج وراح يفرقعه في الهواء ليخيفه ويهمي بضربات مبرحة فوق جسم الفتى الناحل وزعق كمن خالطه الجنون قائلاً:

–حتى أنت أيها الفتى الضامر، الصغير في تجربته، تتجرأ علي، تنغرز عيناك في وجهي، تظهر ظل ابتسامة، سأسحقك تحت ضربات كرباجي كما تسحق ذبابة كريهة.

شعر غيلان الجعفي بأن جسده يبعد عنه، وأحاسيسه تغيب في خلاء مريض، والعالم الخارجي يدور ويدور، والغرفة دوَّامة مريعة والسقف يطير في كابوس عفريتي، والشخصان العزيزان على قلبه، يغيبان في ضبابة كثيفة، وأخيراً وقع مغشياً عليه فوق البلاط الحائل اللون، والدم ينز من فمه وجروحه. استفاق على ماء بارد يبلل رأسه، ويتسرب إلى بنطاله وقميصه، تداعى إليه صوت فجر الشريف يدوي تحت فرقعات الكرباج وسياطه، وينهر الضابط الجلاد صارخاً:

–أجسامنا أوعيتنا الوحيدة التي تتملكوننا من خلالها، تعذبوننا بواسطتها، تشوهون معالمها بأساليبكم الهمجية، ولكن أفكارنا ورسالتنا وتصوراتنا للوجود، يستعصي عليكم تغييرها بهذه السهولة. كل عذابات التاريخ لم تمت وهج الرسالات وبزوغ صيحاتها، ومواقف أصحابها. لن تزيدونا إلا إصراراً على الشهادة في سبيل مبادئنا وأهدافنا العليا.

اقتيد إلى خارج الغرفة، سمع وقع أصداء تتدرج في أقبية الشيخ حسن، نبق من خلف باب حديدي ظل عملاق متوحش، تقدم محيياً الضابط شوكت العاتي وقال:

–سيدي، هل تسمح لي، أن أتشفى من هذا المارق، وأدوس رقبته؟

أومأ ضابط التحقيق إيماءة آمرة، تناول الرقيب الملقب بالوحش السوط من فوق الطاولة، وبصق بيده ليزداد حماسة، وانصب بضرباته على المعلم نبيل السواحلي الذي تحمل أكثر مما كان يتصوره جلادوه، فماضيه ملئ بالمفارقات والتشريد بعد سلخ اللواء في أواخر الثلاثينيات، كل هذه الظواهر تفاعلت لتجعل من جسده شجرة شربين تعبث بتلك الضربات المريعة التي كان ينزلها على الجسد الصامد. راح الدم يسيل من وجه المعلم، وينسرب إلى صدره، ولم ينبس بأي تأوه أو استرحام. شعر غيلان الجعفي بأن صهره يتعملق في ناظره، ويستحيل شجرة شديدة الصلابة تتكسر على جذوعها أنواء الزمن، وصدمات الأنذال، وتعنو أمام صمودها أفانين التعذيب. سمر ناظريه في الضابط المحقق والدم يصبغ ثيابه وقميصه الذي تمزق عند الظهر، وهتف وهو رافع الرأس في تحد بائن:

–تفوه عليكم أيها الجلادون! لن تطفئوا الشمس بأفواهكم وأساليبكم ولن تنالوا من أفكارنا، وسيأتي الزمن المشهود، تطلع من جروحنا ألف نجمة، ويولد من

مواقفنا صباح شديد السطوع. دروب الأنبياء والمصلحين الثوار وعشاق الحرية، كلها دوماً معمدة بالدم والعطاء حتى الموت.

تأثيرات الكلمات، دبّت كالسحر في أوصال غيلان الجعفي وعصف به خجل مقيت من انهيار جسده الضامر أمام ضابط التحقيق، نهض واقفاً في تحد غريب، وبزغت فوق معالم وجهه صورة نسر يريد أن ينقض.

وضعت في معصم المعلم نبيل السواحلي سلسلة من الحديد، ورفس من الخلف رفسات ضارية من حذاء الرقيب وحشي ذي النضوات الحديدية كان ينطوي بها جسد صهره الذي وقف على عتبة الباب، ورنا إلى غيلان الجعفي وصرخ بملء فيه:

–لا تخف يا غيلان إن المستقبل لنا، ثوار هذا العصر هم أنبياؤه. إذا خرجت قبلي من هذا السجن، فاهدي سلامي إلى اختك رباب والعائلة جمعاء، وأطلب منها المغفرة لما سببت لها من آلام وإحراجات.

غاب خلف الجدران السميكة التي عشش في زواياها عنكبوت القِدَم، يجرجره عتاة هذا العصر، وبقي غيلان الجعفي واقفاً وقد دبّت به حياة جديدة، وانكسرت صدفة الخوف في داخله، واستحال عينا شرسة تقابل المخرز، وتقضم بأجفانها غير المرتعشة الضابط المحقق شوكت العاتي. مسح الدم المخثر عن جوانب فمه وجبهته، بأطراف شملته الممزقة التي كان يعتمر بها ويلف بها وجهه، استنقع الزمن، حاول الضابط أن يهيمن على ضحيته، ويرهب الفتى الماثل أمامه لأنه كان أصغر المعتقلين سناً وطراوة. راح يتبختر أمامه في بوطه العسكري، ويفرقع كرباجه في الفراغ ولكن لا جدوى، غاص غيلان الجعفي بعيداً عن الجو الكريه الذي يحيط بجسده ، وسافر إلى الماضي وإلى قعر طفولته ومراهقته، فتبدت له المغارة في غويران الوطا، المطر يهمي، طوفان نوحي غمر بيوت الدفش، وكفت السقوف الطينية، تساقط الشحوار "السخام" الغرابي من البلان والطيون اللذين أسحمتهما أدخنة الوجاق والحطوبات الرطبة وحشرجات الجدة بريبهان واحتضارها المأساوي، وخبطات رجلها في أرض المغارة أمام شبح الموت، وهبوب نار الغرائز بين فخذي هلوك الغاوية ونيتها أن ترطب رحمها بعناق كلبي مع مرعوش الخليط في العراء المطري، لتتناغم معزوفة الغرائز وانتفاضتها مع وقع المطر خارج المغارة، في الوقت الذي كانت الجدة تفارق روحها العالم ويغوص جسدها، المنطفئ في برودة الموت. لم يفهم لماذا انقذفت هذه الخاطرة، وتلك الحادثة إلى سطوح شعوره. كم كان يتباهى بها مرعوش الخليط ويضيف عليها قائلاً [خرجت

روح جدتي من جسدها في الوقت نفسه كنت أمتلك هلوك... النارية وأحلق مع رعشاتها المنسوجة بدبق الغريزة] تلامح الضابط النظرات المسمرة في سقف الغرفة، والشرود الذي يعتصر غيلان الجعفي فالتهب غضبه، واقترب منه، وصفعه بكل قوة على خديه، فترنح يمنة ويسرة، ولم يهو إلى الأرض، ولبطه لبطات قاسية، ودفعه خارج الغرفة، أمسكه اثنان من الزبانية، اقتاداه إلى الممر فالسرداب الهابط إلى الزنزانات المقيتة، والكوى الضيقة وفتحا له باباً حديدياً، ورمياه كنفايات في العتمة الخاوية. نفذت إلى خياشمه روائح مريضة، وصوت فئران تقضقض أشياء نخرة، وبراغيث سود تقفز، وتعضه في العتمة، غرق في كوابيس لا يعلم مداها، أحس بأن جسده، من شدة التعب والمعاناة، يوغل بعيداً عنه في صحراء لا نهاية لامتدادها، تخيم عليها ظلمة لا نجوم فيها، تحوّم حوله الخفافيش، وتدوِّم في الصمت المرجوم، بأجنحتها الجلدية الشديدة السواد، وتلمس في عمق هذه الصحراء اللامتناهية من الوحشة، رؤى الشيخ جعفر الخصيب الذي رأته وحيدة سويلم أثناء تطوافها في البرية، وقد شفاها من جنونها، غدا يبرق شخصه المقدس في قحف رأسه ويشعّ بدفقات من الضياء والتسويغ لمعنى الحياة، ويهمس في أذنه كلمات كبيرة محفوظة [ظلمات الوحشية البشرية مهما قست، وطغيان العالم مهما امتد سحيقاً كلها، مجتمعة لا تطفئ شعلة الإيمان الحق، ولا تميت وقدة الروح الشفيفة التي تخترق الحجب الكثيفة، وتطري المسافات المكانية والزمانية].

❐❐❐

الفصل الحادي عشر

تحت ظلال الخابور

هبت أعاصير القدر، من جديد، لتغير مسار سفينة الرفاق الثلاثة وترميهم في بوادي الجزيرة، على ضفاف نهر الخابور بعد أن قضوا أياماً كئيبة، وراء القضبان الصدئة في سجن الشيخ حسن واكتووا بنار التعذيب والإذلال، وقذفت السلطة بالمدرس /فجر الشريف/ منفياً إلى مدينة الحسكة في الديرة الشرقية، وتبعه بعد أسبوعين المعلم نبيل السواحلي إلى المدينة نفسها. وخرج غيلان الجعفي بعدهما بشهر واحد، لأن مخابرات السلطة، عثرت عليه، وهو بجرم توزيع المنشورات مباشرة في حارة بدر الجعفي الشديد التعصب لحركة التحرير، وأحد دعاتها المتحمسين ورست سفينة القدر بالثلاثة بين ظلال الخابور، بعد أن قرر ابراهيم الجعفي ووطفا الأم أن يبعدا ابنهما غيلان إلى مكان قصي عن عيون السلطة بعد أن لاحظا عليه التصدعات النفسية الغريبة، ومظاهر الاكتئاب والصمت الدائمين، والصراخ الكابوسي أثناء النوم.

كانت مدينة الحسكة في أوائل الخمسينيات، أشبه بقرية كبيرة تحتضن نهر الخابور، وتنام على ضفافه الشرقية، والشوارع الضيقة تعوم بالوحول إذا أمطرت السماء، وأصدت الفلوات بأغنيات رطبة ويصير المشي المستنقعي عائقاً عن الوصول بين الحارت أثناء فصل الشتاء، ويتناثر الغبار الجحيمي مع لظى الشمس الصيفية، وهبات الريح الصحراوية الآتية من أقاصي جنوب الرّد. والمدينة في زوايا الشمال الشرقي من سورية تبدو مكاناً قصياً للنفي في ذلك الزمن. وفي الشمال منها انبسط مطار ترابي، سوته مداحل ثقيلة، وجعلته مهبطاً للطائرات الصغيرة التي لا تحط به إلا مرة واحدة في الأسبوع، وفي الجهة الشمالية الغربية تتوسد المدينة ومبانيها الحكومية ضفاف الخابور ذي العجيج الدائم والزرقة المغرقة في الصفاء لشدة غزارته، وينفتح الجسر في تلك الجهة، ويوصل بين الشرق والفلوات الممتدة إلى أبعاد دجلة وبين الغرب المغرق في الامتداد صوب الرقة، ودير الزور، وفي الجهة الجنوبية الشرقية، انتشرت مباني من طابق واحد، مشيد

أكثرها من الحجر اللبني المجفف، وأكثر ساكنيها من الأغراب والآتين من الأقاصي النائية للاسترزاق، وعلى رابية من الأرض المحاذية للنهر، برزت ثكنة عسكرية، بناها الفرنسيون وأشادوا غالبية سقوفها من التوتياء المقوى والحجر الترابي المجفف، وخططوا لها دهاليز وأقبية توصلهم بماء النهر، وبعد نزوحهم تشكلت من هذه الثكنة مدرسة سميت بمدرسة العشائر ضمت أبناء البدو في جنوب الرَّد والقاطنين جبل عبد العزيز، وأبناء الخيام السارحين في البوادي بين نهري دجلة والفرات والذين ينتجعون مواطن الكلأ والمراعي لأغنامهم وجمالهم، وفي نهاية الرابية من الجنوب: امتدت بساتين آل موري وظلال الصفصاف الباكي تغفو في حضن الشطآن، وتستمر أغنية الاحتضان الأزلي في تراجيع أمواه النهر،وتناغمها مع رعشات الظلال الهالكة، وفي الجنوب الشرقي يلهث نهر /جغجغ/ بعد أن استنفد قدرته على الامتداد وضاع حلماً مواتاً في براري الجزيرة العميقة الإتساع، وتلاشى خائراً في مصبه الوحلي جنوب الحسكة، وبين الضفاف الشرقية للخابور العظيم بين مدرسة الغسانية ونهر جغجغ ترامت حارات الأغراب والآتين من الفجاج البعيدة، أشباه بيوت سكنها الفقر والإهمال وعدم التنظيم، وحتى كانت تبدو مدرسة الغسانية في ملتقى تلك الحارات كمنارة مومضة، وخط حضاري بين تلك الاحواش المستطيلة الربداء، ذات الغرف المتراكبة والأبوب المنخورة. وفي تلك الحارات الشعبية المنزوية وراء مدرسة الغسانية، رست سفينة الأغراب المناضلين وحطوا الرحال بين هذا العالم الغريب وفي تلك الزوايا المنسية، فاستأجروا حوشاً واسعاً مؤلفاً من أربع غرف محاطة بجدار كاب من الحجر اللبني المتقشر الذي طبع فوقه الزمان قبلته الصفراء. كانت فسحة سماوية تفصل بين الغرف الأربع المتقابلة، اثنتان منهما، تطلان بنوافذهما على الخابور والأخريان من الجهة الشرقية تتراءى منهما بساتين آل موري وبعض المنعطفات المتدرجة التي ينحرف فيها النهر صوب الجنوب الشرقي. كان حائط لبني من الداخل قليل الإرتفاع يحجر بين الغرف الأربع، ويسمح بممر ضيق بين الشقتين المتواضعتين وشجرة الصفصاف الباكي ذات الأوراق المتهدلة، تغفو فوق الجدار وتلقى ظلها في الفسحة السماوية، وكان باب حديدي رمادي اللون، ضخم الرتاج، يتصدر باب الحوش، وتلتصق به مطرقة صغيرة بشكل كف أعظمي مجرود من اللحم. سكن الأستاذ فجر الشريف وأخته رابعة في الغرفتين الشرقيتين، واستقر المعلم نبيل السواحلي وزوجته رباب الجعفي في الغرفتين الغربيتين، ولحقهما بعد شهر ونيف غيلان الجعفي واستقر في الغرفة الصغيرة الشمالية، بعد خروجه من السجن وإمضائه في غياهبه سنة مديدة كالأبد، اتسعت فيها مداركه واكتوى بتجربة،

أنضجته ونقلته إلى عمق الحياة، وابتلى بطعم الأسابيع الأولى من السجن الانفرادي الذي لاقى فيه الأهوال، ولسع نفسه كالعقارب حتى أن تلك الأسابيع الضارية، شهدت تلك التصدعات المفجعة في خفايا ذاته وبنائه النفسي، وتعلم دروساً مضنية في التأمل الطويل، وصراع أنات الهاوية، وترصد رفات غورية من الغاب الإنساني وأدغال اللاشعور، وتكشيرات الأغوال المختبئة تحت سراديب تلك الحجرة المبهمة، وبواباتها المتصلة بفتحات الشعور، وملامسات العالم الخارجي، فأصبح الليل بعد خروجه من السجن الإنفرادي وانصهاره بالنهار مع رفاقه في الأقبية متعسراً عليه وشبه محال، وصارت مخيلته شديدة الامتداد، لاقطة لعوالم غريبة، تركبها وفق منظورات، يمتزج فيها الوهم بالواقع، كل شيء فيه ازداد رهافة وميلاً إلى الأرتياب بالآخرين، القشرة الهشة تصدعت واستبان عري الأشياء، وانكشفت البذرة التي كانت مختبئة في كنه أعماقه. لن يخيفه بعد تلك الشروخ النفسية أي شيء من هول الوجود. أبوه الشيخ ابراهيم الجعفي وأمه وطفا أجبراه على الذهاب والعيش في براري الجزيرة خوفاً عليه من أن يقع في شراك السلطة من جديد، وساعده على القبول بفكرة الرحيل عن قريته اختفاء أيوب السارح عنها وهجرته إلى المغرب العربي واستقراره في طرابلس الغرب بعد نقلاته المتعددة في أقاليم الليل والنهار كما تتناقل الحكايا القروية المتضاربة حول مكان وجوده. ارتحل غيلان الجعفي إلى شطآن الخابور، واستقر في غرفة صغيرة كانت شجرة الصفصاف الباكي، تتسلق جدرانها، وتلقي ظلالها المتهدلة فوق الفسحة السماوية، ويتناغم حفيف وريقاتها أثناء هبوب ريح الصبا الشرقية في الأصباح المنعشة، مع نسيج أمواه الخابور وغغماته التائهة في الأبعاد. كم كان يطيب له في مقره أن يفعم الأماسي ويشنف آذان العالم، بصوت نايه القصبي، وبحات ربابة والده التي اصطحبها معه من عين الغار لتظل ذكرى تستوقد الحنين إلى الديرة الغربية، ومرابع غويران الوطا ورنوات خضر، غابت وراء أسجاف السنين، وتركت نفح ذكريات حلوة تطارد الشبح الثقيل الذي يترصده من الداخل، كان يشعر بأنه يحتاج إلى زمن مديد، حتى يستعيد براءة الحياة، ويملأ الصدوع النفسية، القاتمة، ببوارق من الأمل الأبيض، والثقة بالإنسان، وقيَّضَ القدر له واحاتٍ ظليلة من الحنو، وهدآت ساجية من التصالح مع نفسه، وتجلت رابعة الشريف شاطئاً حانياً، وسط عاصف الغربة ونجمة صبح، تطلع من ابتساماتها السمر، ومن أهداب عينيها السوداوين المشتعلتين شوقاً إلى حب بكر وإلى اعتصار مبهور غير مجرب. كانت شفتاها الكرزيتان الممتلئتان تنفرجان عن فم خاتمي، وتوحيان بتناغم فطري مع عجيزتها المتموجة، وبرازخ جسدها وفتحاته، المتلظية بشهوة الحياة وفوارات

الشباب، كانت جبهتها العريضة كجبهة أخيها فجر الشريف تنقلك إلى قابلية لالتقاط الأبعاد الفكرية والاستجابة إلى نوازع الجسد المتمرد. وهذا الصَّلبُ سر من أسرار هذه المفارقات بين الاستعلاء الفكري والهبوط الناري في غرائز الجسد الملتهب. بدأ دولاب الزمن يدور يحمل في دوراته مرتسمات مصائر انسانية. شرع الاستاذ فجر الشريف يدرس مادة التاريخ العربي في ثانوية الحسكة الوحيدة للذكور آنئذ ويرسم في الطلبة دوائر مشرقة عن الانتصارات التي حققها العرب في أذهان صباح الإسلام الأول، وعن امتداداتهم عبر تخوم المعمورة، وترديهم في مستنقع عصور الانحطاط الذليلة، ويحاول أن ينفخ في الرماد الخابي بقايا ومضات من المروءة والنخوة، والدعوة إلى جمع الشتات، وتكنيس عقلية ملوك الطوائف، الغافية في القعر النفسي، كان غيلان الجعفي يفتح كل كواه على تلك المآسي والضلال التاريخي الذي تسرب من كهوف عصور الانحدار، وبروز الفردية في أقصى تسلطها وطغيانها. كان بوده أن يلتهم ثقافات العالم، ويعرج على الفكر الإنساني ومحطاته، فهو والزمن في سباق، وقد انضجته عتمة السجن، وجعلته أكبر عمراً من سنه المعهود. كانت رابعة الشريف تتلقى العلم في ثانوية البنات وتنافسه في البروز، والاجتهاد، أما نبيل السواحلي فقد عين معلماً في مدرسة العشائر الابتدائية، المحاذية للنهر. كانت المنابت البشرية مختلفة والمدينة أشبه بخابور مختلط الأمواه والمشارب والسِحن، الآشوري القديم ينبعث من قلب التاريخ، وبزيه الخاص، واعتزازه بملكه في تل تمر، وتباين قصبة رجله عن فخذه طولاً وقصراً، والكردي ذو الطول الفارع، والمنكب العريض، والجبهة الضيقة، والأعرابي الآتي: من جنوب الرّد بسمرته الأصيلة، وميله إلى النحافة، وبعينيه اللامعتين الشديدتي السواد، وعباءته المنسوجة من أصواف الغنم ووبر الجمال والمادريني الآتي من أقصى الشمال وخلف الحدود الذي تمازجت به عروق وأقوام شتى، والديري ذو السمرة الغامقة المشربة بالصفرة، وترفدهم نحل ومهاجرون من شواطئ المتوسط ذي الزرقة البحرية، ومن ضفاف العاصي وبردى والمحافظات الأخر. في هذا الملتقى العجيب، بدت الحسكة وكأنها بابل أخرى من اللهجات، وبقايا لُغَيَّات مُنْدرَسة، وتقاليد في اللباس والعادات متباينة. كان غيلان الجعفي يحس في أعماقه بأن أطلال الماضي، تعيد مدائنها المدفونة تحت رماد القرون، وتفتح بواباتها عن أحياء أخلاف، ما زالوا يتحركون، ويمشون فوق الأرصفة الترابية، ويستقون من أمواه الخابور، ويطشون بذور القمح في أحشاء تربة الجزيرة المترامية الأطراف، وينمو في أعماقهم الحنين إلى تراثهم المنقرض ويحفرون في شراسة، لإظهار مدائنهم الموروثة، والحفاظ على سماتها ويحلمون بالعودة إلى النافورة التي

ولدوا منها، وإلى تشكيل كيانات خاصة بهم. لم يدرِكُنْهَ الأسباب التي تجعله يحزن وتناله نوبة من غضب كامن. حينما كان يتلامح المفارقات الكائنة في هذه المجموعات البشرية، والتباين في سحنها وطقوسها، ومنازعها القومية، سأل مرة أستاذه فجر الشريف وكلهم جالسون في أرضية الفسحة يتبردون بنداوة العراء، ويتأملون لمعان النجوم في قبة اللانهاية، وكانت أوراق الصفصافة الباكية، تساقط في فسحة الحوش وزغب قمرة تشرين، يسطع في قفار الجزيرة، ورائحة الخابور تمتزج مع همهمات بعيدة. وقال وهو ينزع الوريقة الهابطة فوق رأسه:

–أكل الوطن العربي الذي نهدف إلى توحيده، ونجمع شتاته الرحب، على هذه الشاكلة من التمايز والمفارقات العرقية والطائفية؟

وحوم الأستاذ فجر الشريف بناظريه في الآفاق الليلية، ومروج السماء اللامتناهية، الشديدة الصفاء، تنبض بها نجيمات كحباحب تسري في عمق الليل، وأصاخ بمسمعيه إلى أنين الضفاف، وأشعل غليونه المعهود، ومرر شفتيه فوق مبسمه الفضي وهمس قائلاً:

–من هنا تنبع قيمة رسالتنا إلى الحياة، وتحفزنا الدائم، وتجاوزنا لذواتنا الخاصة، وقدرتنا على تطهير أنفسنا من رواسب عصور الانحطاط وصهرنا شوائبنا الإقليمية، وانفتاحنا على الوطن الرحب، وتكنيسنا لبقايا الحدود الموهومة، بين دويلاتنا، ملوك الطوائف ما زالوا ينسلون في دمائنا نزوعاً نحو التشرذم لتسمير حركة التاريخ، وتضخيم الذات الفردية فوق كل الاعتبارات، إننا نحتاج إلى كل مطارق التاريخ والمعاناة، لنسمو إلى صعيد رسالتنا السامية المشحونة بحب الإنسانية، وتذويب الأنا المتضخمة فينا وخنق السادية المريضة، لهذا لا أفكر بالزواج قريباً، لأني تزوجت في قناعتي المبادئ العليا، وأهدافي البازغة، والمعاني المستخلصة من وجودي. التمعت دمعة في مؤق عينيه، أبت أن تنسكب، تسمر المعلم نبيل السواحلي بشخص الأستاذ الذي بدا في هذه الأجواء الليلية، كأنه صوت نبوي آت من الغابر النقي، والبراءة الأولى، لتقديم الضحية ذاتها قرباناً على مذبح العطاء الذي لا يحد، وأومضت في ذهنه خاطرة وقال:

–ألا ترى معي يا رفيقي– أننا نناطح الصخور الصلدة في مسيرتنا ونضرب في سراب المحال، ونحفر في جبال التراكمات، وترشحات العصور وافرازات السلبيات كوى للنور والتقدم للإنسان العربي الجديد. أتصور أننا باعمارنا القصيرة لن نتملى مرأى هذا الحلم العريض، إلا إذا أعدنا صياغة هذا النمل المتباين. فالإقليمية، والطائفية، والقبلية، ما زالت طوطميات، تعشش في نظرتنا، وتكمن

كأفاع في جذور أنفسنا.

أخرجتهم من هذا الحوار الدائر على مرمى مقلاع من الخابور، قرقعات فناجين الشاي فوق الصينية النحاسية، ونداءات رباب الجعفي:

–أعددت الشاي على الطريقة الديرية الثقيلة، ووضعت فيها العطرة والقرفة لعلها ترضيكم في مذاقها.

تقدمت بالصينية، وسحب كل منهم فنجانه، وراح يرتشفه في متعة، ويدخن وراء كل رشفة سحابة من النفثات النارنجية. إما من الغليون الجوزي المفضض في مبسمه أو سيجارة "بافرا" من علبته. في حين أن غيلان الجعفي ورابعة الشريف كانا يتبادلان نظرات غورية ويرتشفان في صمت كؤوس الغزل ويحنوان على برعم غض يتكون في صمت الأعماق، وعلى رعشات بكر ذات غموض لذيذ، تشتعل في الأقاصي النائية من النفس الإنسانية. كانت ترجيعات الخابور ورائحة الليل الخريفي وأبخرة دخانية، ومذاق الشاي العطري، ورنوات، حب وليد، وانتفاضات جنين في رحم رباب الجعفي كلها معزوفة إنسانية، تحمل في طياتها بذور مصائر جديدة، يحتويها القدر وشباكه المجهولة، ويؤكد المقولة الأزلية، للإنسان ونهايته، آه يازوحي لا تطمحي إلى الخلود، فوق هذه الأرض الملوعة، ولكن استنفدي حدود الممكن.

❐❐❐

الفصل الثاني عشر

رفات حب جديد

كرونوس الزمن وحش أسطوري يأكل أبناءه، يغيبهم في أحشائه، وتدور مصائرهم في حلقاته الدائرية، ولعبته الأبدية مازالت مستمرة، تطول أعمار الجبال والبحار والصحارى والأشياء الصَّماء، ويحدث التغيير بطيئاً فيها، ويقصر عمر الإنسان، فيبدو ومضات في عمر تلك الصوامت، والمظاهر الطبيعية، وتتراكض الأيام سريعاً في حوش الأغراب، وتتمخض رباب الجعفي بوليد اسمته غفار صورة مصغرة عن جده إبراهيم الجعفي، كان فرح سكان الحوش بقدومه عميقاً، وتتكدَّس آثار الفصول ورتابتها، ومرئيات نهر الخابور، في مخيلات أولئك الساكنين النازحين من مرابعهم إلى شعاب الجزيرة، وسهوبها الرحبة. وقادت العشرة الطويلة، والرنوات المكرورة، إلى أن انحفر حب خفي في قلبي الشابين المتجاورين، ونمت غرسة الحب في صمت الليالي الساجية والتحديقات المتأملة في العيون الملتمعة، تنسج الأحلام وتبلورات الخيالات حول جسد الآخر، وخفاياه! وأصبحت شجرة الصفصاف الباكي، معزوفة دائمة، يصيخان بمسمعيهما إليها وتتعانق أيديهما من وراء الجدار الفاصل بين الشقتين، وصارت غمغمات الخابور أرغناً ناطقاً بالعشق، ينفخ في الصفاف، فيصدى قلباهما بارتعاشات غامضة، وهيمات رفيفة، كأنها أجنحة فراشة قزحية الألوان. كانت الأحلام تختبئ في عروقهما، نزوعاً إلى زواج مقبل ينبغي أن لا يكدَّر، بهبات الجنس المفاجئة، والتهام كل الخوابي المليئة بعسل الحلم، قبل الأوان، وأن يؤجل ذلك إلى الاقتران الرسمي، وخاصة أن التجربة المرة التي وصل فيها النصل مغمده مع خضراء مبارك لا يني ينزف صوراً ورفات أشواق مجنونة، تهمي في مخيلته وتسقط فوارات لهيب في قلبه، وتسافر مروج عينيها الخضراوين في شرايينه نزوعاً إلى المستحيل الذي لا يتحقق. كان كلما ارتحل في ضفاف الخابور عند المغيب، واستظل بأفياء أجماته المتكاثفة، ورنا إلى شمس النهار، تطرح في الفيافي الشاسعة، غلائلها الشفقية، وترشق الغروب ببحيرات نبيذية فتشكل لوحات شاعرية، قفزت إلى ذاكرته غويران الوطا ومكاديس

البيادر والغابة المتناثرة على أقدام السفح، وخرير الينبوع المختبئ خلف الصنوبرات الضخمة، وبنفسجات ماوراء الصخور، المتفتحة في استيحاء. وخضراء مبارك في وشاحها العنابي، ترسم شفقاً في خطواتها المتهادية، وسمرتها الوحشية، وشفتيها اللتين تومئان بالاعتصار، وشموخها الغريب الذي يتمنى الرائي أن يعفِّره في إغماضة الجنس، ويجعل الجسد المغرور الجامح، المتفتح من جميع نواحيه، يركن إلى الترويض، تحت لمسات الحب الوانية. كانت رباب أخته، تدرك عمق الدّوامة التي يتردى بها، والقلق المبهم الذي يترشح من مرتسمات وجهه، فتدعي أنها بحاجة إلى مشوار غروبي على ضفاف الخابور الجنوبية، وتصحب معها رابعة الشريف وأخاها الذي تعصف به رياح داخلية، وتحملهما ابنها الصغير غفار وتنتبذ مكاناً قصياً عنهما، بحجة أنها تريد أن تحوش الأعشاب البرية التي تؤكل، القريصة والخبيزة، في فصل الربيع، وبقايا البطاطا والثمار التي نسيها زارعوها، في فصل القيظ، وكان الوقت خريفاً وتحت خميلة من أشجار الحور والصفصاف المحاذية للنهر، اعشوشبت مرجة صغيرة في قلب الخريف، بلهاث الخابور، وكانت الوريقات الصفر تتساقط عن أماتها في وقع غريب، يثير حرائق من المشاعر، ويلهب الأجنة الراقدة في القلوب، بيقظة فكرة الرحيل، وامتزاجها باقتناص الحياة قبل الزوال. كان نهمٌ مجنون، بركاني الامتداد يمور، في أعماق غيلان الجعفي حينما يحتضن بكل حواسه روح الخريف، وتتفتح بواباته الشعورية كلها، على رائحته التي تحمل إليه مذاق الاغتصاب، للأشياء الراحلة. كانت رغبة هائلة، لا يعلم سببها، تكتسحه، ليفترس جسد رابعة الشريف، ويتأرجح فوق برازخها، التي كانت تفصح عن سخونتها، النداوة المتألقة في عينيها، والألق الساحر في شفتيها، غير أنها أدركت بغريزتها، مايتحرك في عروقه، ومدى عمق اليقظة فيه فابتعدت عنه خطوات، وخلعت حذاءها النسائي، ومدّت رجلها في الماء المنساب، وراحت تبترد من روح الخريف المؤججة طعم حرائق مصلوبة بين خواطر الرحيل، وخواطر هبات الحياة التي تتوخى التهامهما سريعاً لآخر قطرة من خمرة الخوابي الجسدية. سرّحت ناظريها في عباب الخابور، وقالت:

– إنه الخريف يرسم لوحته، بأوراقه المتساقطة، وغيومه المندوفة مثل قزعات القطن المتفتح في سهوب الجزيرة، ورائحته الخاصة. إنه يحملني إلى غوطة دمشق، وعبق الكروم في أواخر الصيف، وعبير الأرض المسقية تشحن القلوب بطعم لا يوصف.

أمسك غيلان الجعفي بقبضة من الوريقات الصفر، وسحقها بأصابعه فانبعثت خشخشة هشة، وطفا فوق سيمائه حزن ماضٍ بعيد، وهتف في عصبية:

– الخريف اليوم، يسري في مخيلتي أشواقاً مجنونة إلى احتضان العالم، يهيج بي مالا يحصى من رعشات مهلوسة، يصلبني حنيناً إلى دواوير نهر السبع، وتراجيع المواويل البرية في جوبات غويران الوطا، ويدفعني إلى رحيل لا محدود خلف الجزر الموهومة في المحيطات الدافئة، والتأرجح فوق شطآن جزر الكناري، مع هيمات شعراء الرومانس، وارتشاف الصمت المتأله في ذرا النيرفانا البوذية، أكاد أجن من اهتزاز مويجات البحيرة المدفونة في أعماقي، اعذريني يا رابعة الشريف من هول هذا الصلب بين الحب والموت.

لفظ كلمة الحب في رحمانية، سافر بعينيه إلى مرتسمات وجهها المعبر، غاص في بريق عينيها اللامعتين، افترَّ ثغرها عن ابتسامة الاقتناص، بانت شفتاها الكرزيتان، وأوماتا بالاعتصار، نقل ناظريه إلى أصابع رجليها المغمورتين بنفثات الخابور الباشة فتمثلت أمامه حمامات شديدة البياض، وانحسرت الركبتان عن نصاعة بضة في البشرة التي تتميز بنعومتها الشاميات الأصيلات المنشأ، ونفحت في مخيلته أنسام الغوطة ودمر، ووادي بردى، وبدت رابعة الشريف في بلوزتها البنفسجية، وشعرها الليلي المنساب، كحوريات نوفالس التي تقرأها في عوالمه الشعرية.

انحنى فوقها في لهفة الإنسان الأول إلى أنثاه، وراح يمتص كل تفتحها الخارجي، ويعزف على شفتيها أنشودة التناغم والتفتح، ويتلمس جسمها الملفوف، فندت عنها آهات آتيات من الغابات الأولى:

– اعتصرني، ياحبيبي– قبل أن تميت فكرة الرحيل نداءات جسدي، وتطفئ روح الخريف سراجي المشتعل في ثنايا عروقي، اشتويت على حلمك طويلاً، غنيت مع عرائس "موسه" وغزليات العفة مع الشريف الرضي، وتهت مع قصص ابن أبي ربيعة ونعمياته، كنت متردداً في حبك لي، كأن شراكاً أنثوياً اصطادك، وهرب بلا عودة، وتركك تتخبط في أحابيله.

شعر غيلان الجعفي، في العبارة الأخيرة بطاسة من الماء البارد تندلق فوقه، سمع ضحكات خضراء مبارك ترنُّ خلفه، انقطع حبله في منتصف البئر. سمر ناظريه فوق عباب النهر، وفي الضفة الثانية، رأى طيفها يُبحر صوب جنوب الرَّد، وعينيها المرجيتين تثقبان المكان، وشالها الشفقي يرسم دوائر موهومة، يلوّح بخاطرة الوداع. خشي من تصدع في كيانه، غمرته برودة وغثيان، استحال جسد رابعة الشريف الذي كان منذ فترة يسحره، شيئاً راحلاً لا يعنيه كثيراً، وانفنى في انفعالاته الداخلية، وراح يبكي في صمت، كطفل فاجأته العاصفة وحده على

دروب مقفرة، لم يكتنه خفايا ذلك السلوك، حملقت به رابعة الشريف مندهشة، نهضت إليه، تتمسح به، تمرر أصابعها الناعمة فوق نقرته، تداعب خصلات شعره الباقية، تترشف بشفتيها الدموع المنسكبة فوق خده، وانحسر فستانها عن فخذين غضتين، لعله يستأنس بزبدهما المتألق، ولكن الصدود كان بائناً، فنهرته في حنو، وساءلته متلهفة:

– أي ساحرة تسكن في داخلك؟ ما الذي حدث لك؟ ملامح وجهك ترميني في متاهة مفزعة، ينزف منك خوف مبهم، كضحية مسلوبة من إرادتها، تطرح فوق مجمرة وثنية.

حملق في العباب من جديد، وتداعت إليه صور المقبرة، وغمغمت أجراس غويران الوطا، وهمهمت سيول المطر في سدونات التين والبرغل، وعنابر الطحين، في بيوت الدفش، وتناهت من بحيرة الماضي المصخطب دقات الطبول وتواقيع المزامير في ليلة زواج خضراء مبارك من ابن عمها، وسرى في حلق غيلان الجعفي طعم الدفلي، وارتعشت شفتاه ارتعاشاً قلبياً وأجاب قائلاً:

– شيء من قيعان الماضي، وفجائعه، ارتطم في السطح من شعوري وانفتحت بوَّابات كامنة، وأمسكت في خناقي فزاعات الدروب، وأغوال واقع بلون الحنظل، وارتسمت فوق العباب النهري، أشياء عزيزة حتى الكره، تجلّى فيها شفق غارب، وعبق المروج الخضر، وطعم الحلم الذي يهرب مثل السراب البعيد، ولا يرجع..

افتر ثغر رابعة الشريف عن ابتسامة موحية، وعاودت تمرير كفها وراء رقبته، وهمست في خفوت حلو:

– من أجل كوابيس الأعماق، وتراجيع الماضي، وإفرازات السراديب المنفردة، وعتمة السجون الراسبة، وغدر الآخرين، تقتل روح تلك اللحظات التي نسمو بها، فوق تفاهات العيش الرتيب إلى احتضان رفيع قد لا يعود التماعه ثانية بالوتائر ذاتها. أية هشاشة في كيانك لا أفهمها؟! أجهضت الحلم في ذروة ارتعاشه.

انفلتت كظبية مذعورة بين دغل الضفة، وراحت تغرف الماء بكفها، وتغسل وجهها، وتبترد من الحمى التي كانت تعوم في شرايينها، وتغلق فتحات عروقها التي كانت مستجيبة للاحتضان، انتابت غيلان الجعفي ندامة محرقة، حاول أن يقترب منها، ويراودها في لمساته، لكنها نفرت منه، أمسك بيدها في رفق، فأبعدتها في قسوة، تناهى إليهما بكاء الطفل غفار، وهدهدات أمه رباب وقد حملت على ظهرها حملاً خفيفاً من بقايا ثمار الصيف، وخضرواته، وانصبَّ الجميع في

الدروب الذاهبة إلى حوش الأغراب الذي تنسجم فيه تحولات الفصول، مع تحولات الذات الإنسانية التي لا تقطع نهر الحياة مرتين، بل يرسم الزمن الجهم على صفحاته المرهفة، ولادات ومخاضات في الصيرورة، بعيدة الأغوار، والتنوعات.

❐❐❐

الفصل الثالث عشر

مخاضات جديدة

أجنة الوعي العربي، راحت تتوالد، رعشات الماضي التليد، أيام الزهو في الفجر الصحراوي الأول، انسابت تحفزاً صوب العودة إلى التاريخ من جديد، بعد عتمات عصور الانحدار. المتأمل للأحداث التي كانت تطفو على سطح الوطن العربي، آنئذ، يظنُّ أن معجزة تتبرعم في العمق، وتهز الوجدان، على صحوة قومية، تمسح ظلامية القرون، والتقوقع في حلزونية الركود، هبت ممارسة الصحو، بقيام الجمهورية العربية المتحدة، بين القطرين مصر وسورية وامتدت الفرحة إلى الذات العربية، وأصدت فجاج الجزيرة الفسيحة، بتباشير العودة إلى التاريخ، أحس فجر الشريف، ورفاقه بأنهم يولدون ولادة جديدة من رحم أمتهم، وغنّى الخابور أغنيات الخصب، وتمايلت ضفافه الخضيرة بالنماء، وأنبث ربيع قبل أوانه في الإنسان والطبيعة، أقيمت المراسح البدوية، وانثالت الأغنيات المعبرة عن الفرح الحقيقي، والحنين إلى البطولة الأولى التي افتقدها العرب منذ عصور النكوص، وتناغم الحبيبان رابعة الشريف، وغيلان الجعفي مع هذه المخاضات، فانسابت أحلام تدمج الذاكرة بالرغبة، وتهيج راكد الجذور بقدوم الربيعين، وتكنست عفونة المعاناة والأشباح من مخيلة غيلان الجعفي، وانتابه شعور بالتحليق، فوق فزّاعات الماضي، وأدغال اللاشعور، وانصبَّ مع خطيبته رابعة الشريف في منسرح هذا السطوع من الغبطة، فوضع خاتمه في إصبعها اليمنى، بعد أن جرت حفلة متواضعة في بيت أخيها فجر الشريف الذي توَّج تلك الأيام السعيدة بتلك الخطوبة، واحتضنت أعشاب الخابور جسدي الخطيبين، تفجرت في عروقهما أحاسيس غامرة، بأن الدهر سكت بفجائعه عنهما فترة، وكان الزمن عصراً، حين اقتربت رابعة الشريف من الضفة اليسرى، ونزعت حذاءها البني الذي اشتراه لها من سوق القامشلي، كانت ترتدي فستاناً ناري اللون، أهداه إليها في حفل الخطوبة، وقد اشتراه من تاجر حلبي مرهف الذوق باختيار الألوان، لامست أمواه الخابور

بقدمها، راحت تدغدغ المويجات المتكسرة على جذوع الحور والصفصاف، وتحدث بقبقات صوتية، نتيجة الحركات المحتكة بصفحة الماء السطحية، تناهت إلى مسمع خطيبها، كأنها وقع المخابيط فوق الثياب المختلطة بأوراق الغارة في دواوير نهر السبع، فتداعت إلى مخيلته المنفتحة عين الغار وطيوف مراهقات عاريات، يغتسلن في عراء الخريف، وأوراق السنديانة العملاقة تتساقط فوق أكتاف تلك الصبايا المحترقات بقيظ تشرين الأول، بالأوار المتلهب الصاعد من أجسادهن الفتية، شوقاً إلى فارس ذكرّي، يأتي من وراء ضباب الحلم، ممتطياً جواده الأبيض، أوغلت فيه رفات مخيلته المهتاجة إلى ينبوع الصنوبر في غويران الوطا، ويوم كانت خضراء مبارك تطعمه من رنوات عينيها، سكبات حلم غارب لم يتحقق، انقبضت ملامحه، تغيرت مرتسمات وجهه، فتسلقته أشباح ذلك الماضي المتصدع، لحظت رابعة الشريف وهي في ذروة انطلاقها تلك الكآبة الرانية، فأمسكت به، أجلسته بجانبها، واحتضنته بكلتا يديها، انحسر فستانها فوق ركبتيها، عربدت سمرة صحراوية غاوية، استبان ظل رحلة ورسوم خارطة جزيرة بدائية لم يسكنها أحد بعد، غمغمت شفتاها بارتعاشة، فار التنور على السطح، تمتمت قائلة، وهي تشد شعره بحركة عصبية مرتجفة:

– لن أتركك تفسد بمخيلتك، ألوهية تلك اللحظات اللامعة. لن أسمح لأغوار ماضيك، أن تزحف إلى شفق تلك الأويقات الخاصة، دعك من كوابيس الماضي، وأناته المتوجعة، سنبني مستقبلاً، بيتاً على ضفاف الخابور، أو على شطآن المتوسط، وتكون أمواجه الزرق أرغناً، أو مسكناً حانياً على الغوطة، سنوفر أحد الراتبين، بعد أن عينا معلمين في هذه المدينة، لا تخف من المجهول، واركن إلى حضني الدافئ، سأغيَّب من ذاكرتك أفعوان زمن مضى يتربص بك، سأدغدغ ليَّاليك بمتع حلوة وأجعل سرير الزوجية، يئن تحت تواقيع جسدينا المتناغمين لن تهرب مني، بعد اليوم، إلى قفار الخواء...

أطبقت على شفتيه، تعتصره، وتشده إلى جسدها الفائر، تتلمس مواقع الحساسية فيه. شعر بداور غريب، برفة رعشات طيرانية ترفعه فوق كثافة المادة.الرعب الكوني يختفي ويحل مكانه تقبل سخي للوجود. غويران الوطا تخلع جسدها القاتم، وتلبس ثوب الرياحين الربيعية، حتى المغارة التي لجؤوا إليها في أثناء الطوفان الشتوي، ونمت الحشائش الخضر بين شقوقها التربة، مرجة الشيخ نجم الريحان المليئة بالقبور الداكنة، تزهر فوقها نبتات المونس ذي العبق الصوفي. استرخى مسحوراً بين يديها، راح في غيبوبة متألقة، انفتحت كواه عن رفات شديدة السطوع، همس في داخله قائلاً: (يا إلهي! أين كنت تختبّئين أيّتها

الرفات الحلوة، ياللروعة! من أي المخابئ السرية، نبعت؟! أيّتها الطيور الجميلات! مالي أرى وجه العالم القبيح يتوارى؟ أيتها الينابيع المكنونة كيف تدفعين أحياناً نادرة، رؤى عجائبية؟! وكيف تغمريننا بكوابيس سود، تجعل الحياة غير مقبولة، وتصيرين العيش خريفاً يحاصرنا بحرائق غاباته الملتهبة، آه آه ، ذاتي مصلوبة على رحى تيارين متناقضين، مغطس بارد تتفشى فيه روح كانون، ومغطس دافئ يستدعي انتعاشات، مفرحة، ذاتي غريبة عني، يصعب تحليلها وعقلنة نزعاتها، صعدت عبارة (يصعب تحليلها وعقلنة نزعاتها) إلى مسمع رابعة الشريف، هزته من تداعياته، أخرجته من براري داخله، وصرخت في جنون:

– قل لي بربك أين كنت؟ بدواوير عين الغار، أم بقفار الخريف في غويران الوطا، أم كنت تترصد الرنوات الخضر في لحف جبلكم الشعرا، إني أشفق عليك، أن تضيع جمالات تلك اللحظات اللامعة التي لا تعود.

أبرقت عيناها بدموع، اختلطت بهما، بقايا رعشات الاحتضان، وبروق الاختلاء والخوف القلق على هروب سعادة لا ترجع، اقتنص معاني البروق في عينيها دغدغ حلمتي نهديها النافرين، كمنقار حمامة برية. وقال:

– غمرتني تساؤلات عن بحيرة ذاتي الخفية، عن المغزى الذي يحاصرنا كنوع بشري، ويضيق فهمنا عن تفسيره، لماذا نحن في مرحلة من أيامنا، نتصالح فيها مع العالم، وتشرق بنا أحلام غبيطة؟! ولماذا نحن في زمن آخر، ننشحن بمرارة الحنظل، وخفافيش العتمة، وكوابيس الأشباح؟! أحقاً أن في سحيق ذواتنا مفارقات، يصعب علينا تحليلها كما سمعت؟

مرت بكفيها الناعمتين، وراء نقرته، غدت تدوّمه بإيقاعات لدنة، وتسمر ناظريها في القشعريرات اللذيذة التي تتزيا فوق ملامحه، وتنقلهما في غواية إلى تلك النفضات المترنحة، أغمض عينيه أمام نظراتها العارية، استرخى في قيلولة البقر الوحشي، واقتربت شفتاها من أذنه، وتمتمت:

– لن تفترس أغوالك المتربصة في مخيلتك طعم هذه الأويقات، سأخبزك على تنوري، وأشويك، وأخرج من قمقمك المصدوع تلك العفاريت، وأصيرك كائناً ينزو شوقاً، تتقرى جزيرتي، وتنغرس في رمضاء الرمال، سأغير من نمطية سلوكك، الحياة قصيرة جداً، والشباب مرحلة سرابية، سرعان مايغوص في شيخوخة مدمرة، الإنسان يموت حين يفقد قدرته على حوك الأحلام، سأهجيك حروفاً كما أهجّي تلاميذي الصغار في المدرسة بابا .....ماما.....

تداعت إليه بلا سبب مفهوم، نداءات أمه وطفا إلى أبيه الشيخ الجعفي،

تتضرع إليه أن يطأها في ليالي كانون، والمطر الحزين يتساقط فوق السقف الترابي في غويران الوطا، كان العالم، وقتئذ في نظره، ينتهي عند تخوم ضيعته، ويتلاشى عند ذرا تلك الجبال، كان يجهل كل شيء عن نفضات الغريزة وروعة الدغدغات التي تنتاب الرجل حينما يختلي بامرأة، وافتر ثغره عن ابتسامة خجلة، وأمال بوجهه عنها، وهتف:

– انعجنت ذاكرتي، بأسطورة الخلق الأول؟ آدم في الهبطة الأولى، أكل التفاحة المحرمة، انفصل بعيداً، عن حوائه في الأرض، راحت تفتش عنه كالمهووسة، تقطع المتاهات، تجوب البراري، تحترق شوقاً إليه، ولما شارفت على مطلاته، تظاهرت بأنها زاهدة برؤياه، أسرع إليها آدم بكل قواه، ناشراً على قدميها أزاهير التياعه وحرقته، أنتن لغزٌ محير، تبدين العفة، لما تتحرقن بجمرة العناق، وتشتهين فارساً آخر في الوقت الذي، تنغمسن في أوار فعل الحب.

سقط في بؤبؤ عينيها المنيريتن نجم ليلي، خبَّ في أنسيهما شراع زورق هانئ في بحار دافئة، استرخت شفتاها العنابيتان كثمار أواخر الصيف التي تومئ بالاعتصار والغرابة، وغمغمت في كلمات عاتبة:

– تحوكون دوماً تخيلات مريضة عنا، ترسمون خيوطاً وحكايا عن غدرنا، وتُضفون حولنا ألغازاً مبهمة، لم يُضطهد كائن في التاريخ كما اضطهدنا. مسار العالم القديم مشحون بعذاباتنا، دوائر الحريم المحبوسات في ظلام التاريخ يتمتع بعريهن الرجل النافذ، اغتصاب النسوان في الزوايا، وسوقهن سبايا في الحروب الظالمة، واتهامهن دوماً، ونسج الظنون حولهن كلها شواهد على ظلمهن، وحصرهن في توابيت التابو والمحرمات.

زقزق عصفور صغير، ذو أجنحة ملونة فوق شجيرات الصفصاف الباكي، أزكمت أنفيهما رائحة غريبة من الجنوب، محملة بروح السهوب الشاسعة، تناهت إلى مسمعيهما أصداء قصية المنبع، امتزجت مع همهمات الخابور الغامضة، سرحت غيوم شباطية في الآفاق البعيدة، شكلت من سرحاتها في المخيلة هيئات طيور خرافية، هائلة الحجم، تطير في الجوزاء، وترسم ظلالها المرتجفة فوق الجزيرة وفيافيها، إزدادت كثافة الغيوم، انحجبت الشمس وراءها، تغير الجو في سرعة مذهلة، تبدد الصحو، ادلهمت السماء، زحفت تلك الغيوم من جهة الرقة، ارتطمت زحوفها لتكون بروقاً لامعة، يتبعها هزيم رعود أحس الخطيبان، بمذاق تلك التبرعمات المطرية، تحدث في زواج مظاهر الطبيعة وعرسها المطري، فانتابهما إحساس مجنون بأن يتناغما مع هذا العرس. شعر غيلان الجعفي بأن

موجاً من الإثارة والهيجان الجنسيين، يعج في جسمه، وأن رغبة فردية تمتلكه، وأن (أموّن بنت الغشيم) بعريها الكاسح تومئ إليه من خرائب الماضي، ليطفئ لهيبها التنوري، ويتغلغل إليها. يومئذ كان يحمل المناشير المقدسة، والمهمة النضالية تكتسحه، لم يطق صبراً كأنه أراد أن ينتقم من نكوصه، آنئذ، عن الاستجابة لذلك النداء الملهوف الذي كانت ترتجيه ابنة ضيعته في الحارة التحتانية، لن يعيد هذا النكوص ثانية، توهج عرس المطر في مخيلته نزوعاً مفترساً، أن لا يؤجل متعة قد لا ترجع ذروة استجابتها، انحسر الفستان الناري، التمعت بروق سمراء، انكشفت البكورية الأولى، وطراوة النعناع البدئي، تمزقت العذرية خشعت رابعة الشريف لهذه الطقوس المغرقة في حلاوتها واستجابت لتلك السكرة، أغمضت عينيها الناعستين، لتحتفظ في نسغ ذاكرتها بخمرة تلك الدغدغات المهوَّمة التي لم تذقها من قبل، استكان الزمن، غاب العالم الخارجي، انهمر المطر، وراح يعزف بقيثارته الندية فوق الجسدين الملتصقين في ضرواة، وينسفح بين عروقهما، ظلت الطبيعة تمطر بوقع رطيب، والاحتضان الإنساني يتجاوب مع أمه الأرض، من سمفونية عميقة جداً، يجتاز فيها الحب والجسد المتفتح، نواميس التقليد والأعراف، وهمجية الانتظار، لتتلاحم الأرض والإنسان في عناق التناغم والتوحد، والامتداد الخصب.

***

قلق مأزوم تسرب إلى السراديب النفسية، وخيبة خفاشية اللون، استنقعت في صميم الاستاذ فجر الشريف، بعدما تلمس قبل غيره، بوادر انسحاق الحلم القومي، وانفصال قادم في عروق الوحدة، خريف يزحف بممارسات خاطئة، ليغيب جمالات الربيع، ويكنس وهج الأحلام، عيون زجاجية بلون الخيانة، والتلصص، غدت تراقبه، وتلاحقه في أثناء ذهابه إلىالثانوية وإيابه منها، شعور بالمحاصرة والتضييق على الشرفاء المناضلين طفا على السطح، ليحفر في الأعماق، ميلاً إلى التقيؤ والغثيان مما يحدث من تجاوزات أبناء الأقليم الجنوبي، خرائب مستقبل مفجع تخيم بصورها القاتمة على حياة الثوريين، وتفجر فيهم خوفاً غامضاً من خنجر مسموم يطعن الوحدة في الظلام. اجتمع رفاق الأمس في منتصف الليل في الحارة الغربية من الجسر حيث امتدت بيوت متواضعة لأناس مهاجرين أغراب لملمتهم الأقدار، وحلم الثراء، والفقر الأسود في قراهم النائية، إلى التوضع في هذه الأماكن التي كانت تعتبر منفية في تلك العهود. وفي بيت غيلان الجعفي المستور عن عيون جواسيس السلطة، والذي سكنه بعد إعلان زواجه من رابعة الشريف والإسراع به، خيفة أن يكون رحمها قد استجاب بكليته إلى نداء الجنس، يوم المطرة، فعلق به وليد يحمل نذير افتضاح مشؤوم، وقد اختار غيلان الجعفي وامرأته مكان هذا

البيت لأنه يعانق الضفاف الغربية للخابور، ويتجاور مع مجموعة من جرود الساحل، الذين ينقصهم دفء الأمن والاستئناس في مفاوز الجزيرة الشديدة الاتساع. وكان بعضهم يدعي قرابة والده بدر الجعفي وأنهم سلالة أجداد قتلهم الأتراك، وأحرقوا جثثهم في ديس قرية التلاّت، كانت مصطبة الدار واسعة شبيهة بمصطبة بيتهم في عين الغار، تكللها حورة ذات ورق عريض، وشجرة صفصاف ذات امتدادات رحبة، تلامس بأغصانها المتهدلة سقف الغرفتين اللتين بنيتا باللبن المجفف. كانت قمرة تشرين تسبح فوق أمواه النهر المتدفق، تنعكس مرايا سرابية، وأشباحاً راقصة بين بساتين آل موري، وحول الضفاف الشرقية، وتختلط مع همهمات ليل الجزيرة المهيب. شقَّ أسداف السكينة صوت الأستاذ فجر الشريف واندلقت على جبهته الصلعاء، مرتسمات قلقة، وارتشف من فنجان القهوة المرة رشفات مسموعة وقال:

– حلمكم أيها المناضلون لم يؤتِ أُكُلَه، لم يترسخ في أرضية الواقع، سيحدث انفصال في قلب الوحدة، ماترونه من ممارسات خاطئة سيؤدي بهذا الحلم الذي نمنمناه في مخيلتنا صباحاً وردي السمات. عناكب الانفصال والردَّة تحوك في العتمة أنسجة سوداً، وتدفع العجلة إلى مهاوي التفتت. آن الأوان، أن أخرج من هذا المنفى، وأكون في بؤرة الأحداث، استجابوا طلبي بنقلي إلى دمشق، لنعيد تنظيم الحزب الثوري، بعد ذلك التشظي الذي حدث في صفوفه، بعيداً عن عيون مخابرات السرّاج وملاحقتهم للمناضلين.

اغرورقت عيناه بالدموع، قفزت سحنات رفاقه المليئة بالندوب من أعماق ذاكرته، راحت تلطم ذاته من الداخل، تزحف إليه من عتمات سجن الشيخ حسن ومنافي تدمر، تناديه لينقذها من لجج التعذيب، قلع الأظافر، رعشات الكهرباء في المناطق الشديدة الحساسية، خنقهم بالماء التفنن بأساليب متطورة لجعلهم يتصدعون نفسياً، ارتسمت على ملامحه صورة بوذي، يقدم على مجمرة كبيرة، ليحترق جسده بلهيبها، التقط نافع الديراني المعاني العميقة، لتلك التلميحات، وهو أحد المناضلين العنيدين الذين اكتووا بوحشية الاغتراب في السجون المنفردة، وواكبوا مسيرة النضال الأول وجأر بصوته الأجش:

– صقلنا أجسامنا رماحاً مسنونة، منذ أيام الجامعة، ومازالت قابليتنا للتحدي، كامنة في عروقنا، انغرست بذور هذه المبادئ في صميمي لما كنت طالباً في جامعة دمشق، الحرارة والحماسة والاندفاعة الأولى لم تخف رغم أني أصبحت كهلاً بعمري الزمني، ولكن شباب النضال مازال غضاً، يتحرك في داخلي نزوعاً

إلى تجاوز جسدي، ومتعي الصغيرة، سألهب سهوب هذه الجزيرة من دجلة إلى الفرات بنار الوعي واليقظة، سأمد جذوري الفكرية حتى إلى البدو السارحين في جنوب الرَّد، وحول البحيرة المالحة.

سقطت شرارة مومضة في عيني طراد الرداوي، وكان أكثر المناضلين بساطة وعفوية، وقد تتلمذ على يد فجر الشريف، وتنصت إلى كلماته المسكونة بالوجع القومي، من خلال الحوارات والنقاش، وكان في جذوره الأولى ينتمي إلى قبيلة شمر التي ترود فيافي الرَّد وجنوب الجزيرة، وتتسم بالأصالة وهتف في صوت تمسحه بحة صحراوية صادقة:

– سأحمل البذور الثورية إلى تلك السهوب، وأغرسها في عقول البداة والحضر بأن الوحدة العربية قدرنا، وأن الإنسانية غايتنا الرحبة، وأن العرب لن يعودوا إلى التاريخ كما كانوا إلا بتلاحمهم وانصهار دويلات الطوائف وذوبانها في الأفق القومي، ولن يخرجنا من عفونة عصور الانحدار إلا حزب ثوري، يرسم ميلاد حركة حضارية جديدة.

ربت الأستاذ فجر الشريف على كتفه، بانت غبطة متفائلة فوق سيمائه، وأشعل سيجارة مجها في عصبية، وأردف قائلاً:

– سأرحل غداً إلى مهمتي في دمشق الفيحاء، سنحاول أن نجمع الشتات في الحزب الثوري، ونلتقط أنفاسنا، ونعيد التنظيم إلى بنية الحزب. إن عيوناً مخاطية بلون التشفي، تترصدنا في كل مكان، وإن وجوهاً صفراً يتقطر منها السم، ترمي أحابيلها لتصطادنا، وتتهمنا بأننا انفصاليون وأعداء الوحدة، تلك الوحدة التي اعتصرنا أعمارنا عطاء على مذبحها، لا شيء أقتل للإنسان، وأشد فتكاً من اتهامه بأنه عدو لما يعبده، ويلتصق به حتى الموت، أحسُ بأني بالع موسى حادة، معلقة في حلقومي، لا أتحمل محاصرتها، لي، ولا أقدر على رميها خارج روحي.

انسربت حزمة من نور القمر الفضي، عبر شجرة الحور الباسقة، وخشخشت أوراقها أمام أنسام البوادي، وانسابت شخوص مشبوحة، على شاشة الليل، كأنها أشباح مطموسة الملامح، تقيم طقوس الوداع، وتحرق البخور الضبابي في شعاب الجزيرة، علامة الفراق والنأي. انتفض نبيل السواحلي المعلم من مكانه، مشى خطوات عدة فوق المصطبة، وتأمل الرفاق الجالسين على الحصيرة ذات التفرعات الأسطورية، وصعّد ناظريه بتلك الأبخرة النارنجية، التي تتصاعد من لفافات يمجها مدخنوها في غمرة القلق. لم يفهم لماذا خطرت في ذهنه لوحة العشاء

الرباني في العهد الجديد وصورة المسيح تتماهى في مخيلته مع صورة فجر الشريف وهمس في صوت خافت:

– يبدو أن نقلة نوعية في التنظيم تنتظر الحزب الثوري، تقويم عميق لما حدث من انقسامات وانشطار بعد حله، اختيار دقيق لنوعية المناضلين وأساليب النضال، تبديل الأسماء بالأرقام والنعوت في بعض المناطق، صنوف المخابرات وطرق ممارستها، تطورت عمّا كانت عليه في بداية الخمسينات. الحصار يشتد كحرائق الغابات، مهمتي ستكون في قرى الساحل. بعد أسبوع سأرحل من هنا، بعد السعي الدائب الذي قام به الرفاق في قيادة التنظيم لنقلي سراً بلا ضجة، سأبيع أغراضي التي لا أقدر على حملها في أسواق الحسكة، وما تبقى سأعهده أمانة لديكم. عصف بكيان غيلان الجعفي شعور خانق، بأن رملاً متحركاً يتهافت تحت قدميه، وأن طعم اغتراب قديم باللاجدوى، يطفو على سطح شعوره وأن الطاحونة الوثنية تدور برحاها محاولة اعتصاره. لم يجد تعليلاً لهذه الاعتمالات المصدوعة التي تسري في عروقه، دخل الغرفة دون استئذان، استلقى على الخوان الخشبي المهزوز، انفتحت مغاليق مبهمة، انصبَّت عليه من الداخل تساؤلات مضطربة، همس في ذاته المشروخة (معنى هذا سيرحل أغلى أعزائي في هذا العالم! كيف يمكنني وحدي أن أجذف في زورقي الممزق الشراع؟! ستمنحني زوجتي بعض العزاء والسلوان ولكن هذا غير كاف) خرج من بحران تساؤلاته، لا حظ امتداد أصابع ناعمة إلى نقرته، ودغدغات حلوة تنساب في عذوبة ريح الصبا الشرقية. شعر بأن الرمل المتحرك بالخواء واليباب يهرب من رعشة تلك الدغدغات والاغتراب الأصفر، ينقشع من صفحة شعوره، كما تمحو شمس الصباح الضباب المتراكم في قعر الأودية، التقطت رابعة الشريف عمق الأسى والصدوع القائمة في بنية زوجها النفسية، وأسرعت إلى أخيها وأسرَّت في أذنيه ببعض الكلمات، فنهض عن المصطبة، وأنار الغرفة بكبسة على زر الكهرباء الذي كان قد أطفأه غيلان الجعفي عمداً حتى لا يكشف عريه الشعوري، ويتهم بالهشاشة والوهن. حملق في الملامح المعتصرة التي مرت عليها عاصفة، وتركت بقايا من الحزن القلق، مرّ بكفه فوق جبهة صهره، وقال في عتاب وتأنيب:

– ياحيف عليك، ينبغي أن نعد أنفسنا لأشد الممارسات قسوة، وأن نتعود على الدفن الليلي لجثث رفاقنا وأغلى أعزائنا، دون أن ينكشف أمرنا، أن نصقل نفوسنا حتى تتحمل أضرى النكبات. إنَّ رحيل أغلى أحبائنا عنا، هو أبسط طرق المعاناة للمناضل، حتى الرحيل الأبدي في عُرفنا، ليس إلا بداية حياة. نموت لتولد في استمرار مبادئنا، لن أتخلى عنك يا غيلان، وسأسعى في نقلك إلى العاصمة،

وستسكنان معي في بيتي في ركن الدين وتتابعان دراستكما العليا، إذا بقيت حياً.

اعترى غيلان الجعفي حنو كاسح، واحتضن أستاذه بامتنان، وخرجا متشابكي الأيدي، تلحقهما رابعة الشريف وقد غمرتها فرحة وضحكة بادية. التفت نبيل السواحلي إلى رفاقه الآخرين وأردف مازحاً:

– لو أعلم أن الزواج الشامي يوصلني إلى هذا الغنج والدلال، لما تزوجت إلا شامية، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، غير أني لست آسفاً يا غيلان على الزواج من أختك، بعد تلك العشرة الطويلة، وأصالة الشيء باستمراره ونتائجه، ونريد أن تسمعنا أنين ربابتك التي أورثك إياها والدك، وأن تسقينا من ألفية العرق التي أرسلها إليك، مع بعض المهاجرين من بني الجعفي، العرق المثلث في مغارة بيت سويلم الدرويش. إن فيها روح عين الغار، وعبق الصنوبر، ورفات الظلال الهانئة في جفنات العنب ومساطح التين.

نهض مسرعاً، سحب الألفية المخزونة، فتح سدادة الفلين، تصاعدت رائحة ساطعة، أحضرت زوجه الكؤوس الشفيفة التي اشتراها من أسواق القامشلي بمناسبة زواجه، ووضعت السكملة الخشبية فوق الحصيرة، ووضعت المساند، ومدَّت العشاء المتنوع، والبذورات المحمصة، واندلق العرق المخزون في تلك الكؤوس، وامتزج مع ماء الخابور المصبَّر ليلاً في الخابية، والتمع حليب صاف من هذا الامتزاج، والتهب الليل بحنو الربابة ومواويل الفراق، وانصهر الجميع في بوتقة الفرح الحقيقي، وخرجوا لحظات من قعر همومهم التي تنتظرهم على مشارف مستقبل غامض، وتألقت أصداء الربابة، مع غمغمات ليل الخابور، وبصيص نجيمات سارحة في قبة اللانهاية، وامتزجت مع أجراس الرعاة، وهي تدندن في براري الجزيرة الموحشة من خلال هذه الأجواء الجليلة، وسكبات الكؤوس في أفواه المهمومين، ومع انتشار السكرة في العروق كانت تتوالد معزوفة رحبة الآفاق، تكمن فيها تجاريب الماضي، وتشوفات الآتي، ونداءات الغيب الصارخ بلسان الزمن....

– إيه ! أيها الثائرون، قد لا تجدون في أعماركم القصيرة تحقيق رسالتكم وقد يستحصد بذوركم، ونتاج جهودكم، انتهازيون أغراب عنكم لهم قوام مخاطي ولكن قدركم أن تعتصروا أعماركم، عطاء بلا مقابل، وشهادة بلا رسوم وفواتيح، وموتى بلا قبور، ولا تماثيل.

❐❐❐

الفصل الرابع عشر

الفراق

رياح الدهر هَبَّت عاتية، فطوحت بمصائر الرفاق، وتمزق الشمل بعد تلك الليلة، عاد المدرس فجر الشريف إلى دمشق، سكن في حي "أكرادجوا" في منطقة شعبية، شمال شرقي المدينة، جبل قاسيون بصخوره الكابية، يبدو شيخاً دهرياً غضنته السنون، تركع تحت قدميه تلك البيوت المحفورة في جوفه، وتطل على الغوطة ذات الألق الأخضر، كان جسر كيكية الترابي، يربط بين عالمين متباينين، عالم الخضرة، والعالم الصخري، وقد توارثت أسرة الشريف، رقعة من هذه الصخور، وبنى الأب محمد فجر الشريف ثلاث غرف في لحف هذا الجبل، لما قدم من وعر حمص وتمركز في العاصمة، وعمل موظفاً في إحدى الدوائر العقارية، وقدر بشطارته أن ينتزع تلك الرقعة الصخرية المطلة ليستوطن بها، وقد اضطر إلى بيع أقسام منها، ولم يبق له إلا هذا البيت المتواضع في تلك الأزقة الضيقة، تركه لابنه وابنته، قبل أن يعود إلى قريته، ويدفن هناك على ضفاف العاصي حسب وصيته، وفضل الابن فجر الشريف سكنى البيت، لأن ذكريات طفولته وشبابه مدفونة بين تلك الجدران، وأصابع أعزائه، مطبوعة فوق كل زاوية من تلك الزوايا، ولأن أهالي الحيّ البسيطين، يكنّون لأبيه، حسن التذكر والتقدير، لما كان يقدم إليهم من الخدمات والعون في تطويب دورهم، غير أن هذه الدار الصغيرة المرشوقة في وسط ذلك الحي، كانت تتسرب إلى حيطانها الرطوبة، وقد حدث تشقق في بعض جوانبها نتيجة عدم الصيانة، والهجران لها، ولما دخلها عصر يوم، بعد نزوحه، ليستقر بها، عصفت به ألوان غريبة من الانفعالات تداعت إليه رائحة غاب محروق، وطعم نسيان دفين، الغبار المتراكم فوق الأسرة، المواعين المسودة، الرطوبة المترشحة من الشقوق، والنازفة على الجدران، كخارطة منسية تآكلت أطرافها. الوحشة واللزوجة، وروح أشياء غير مرئية، كانت تكمن هناك في عراء الغرف، وترتطم بشباك العناكب بانطباعات أسية، لأناس رحلوا عن هذا العالم، وأبقوا لمساتهم الخفية فوق مقابض الأبواب ومصاريعها، كانت راقدة في

صمت مهيب، الأشياء التي بدت ساكنة فوق الرفوف والزوايا الغابشة، خلعت نسيجها الهامد واستعادت حركتها في حضور العائد إلى بيته بعد زمن مديد، صورة أبيه وأمه المعلقة بصدر الجدار، راحت تثقبه من الداخل، وترسم دوائر مأنوسة، وسط هذه الأشياء، المشحونة بالكآبة، أمه الشامية الأصل ذات الوجه الناصع، والرهافة في الملامح، ذات العينين اللوزيتين اللتين يخالطهما شعاع أنيس، وبشرة ناعمة، امتزجت في صنعها رقة أماسي الغوطة، وبقايا سلالات عبرت على هذه الربوع، وتركت سماتها الخاصة. أنبهر أبوه ذو المنبت الفلاحي، الذي قدَّ جسده من وعر حمص وصخورها البازلتية، بملامح أمه الرقيقة، وألق عينيها اللوزيتين، وتهدل شفتيها المكتنزتين، وهفا فؤادها إليه بالمقابل، أُخذت بصرامة سماته، وسمرته البدوية، وعضلاته المفتولة وسحر عينيه السوداوين، اللتين تكمن وراؤهما رجولة، تعشقها المرأة. تحدت كل التقاليد، تمسكت به، منحته كل مخزونها العاطفي، وتزوجته. حملق فجر الشريف بصورة أبويه الراحلين، لم يدر لماذا تتصدع مغاور الذكرى عن حسرة مفجوعة، حينما نشاهد صور أناس غربوا عن الحياة، وتركوا معالم وجوههم محبوسة في إطار فوتوغرافي، ولماذا يتمسك بنا حضورُهم الكاسح، أكثر مما كانوا في مسار الحياة؟ غاص في قيعان ذاته وارتطم بتلك التساؤلات الحائرة، وهمس في صوت شبه مسموع: (ألأن أولئك الراحلين عنا، والمُغيبين في جزر الصمت الأبدي، يوقفوننا أمام أنفسنا عراة، ويشحنون مخيلاتنا بفكرة الزوال، وهشاشة النهاية الإنسانية وبلادة مصائرنا؟! أم لأن هؤلاء يضرمون أعماقنا بأن الطريق مسدود وأن كل أحلامنا التي غزلناها تستحيل سراباً هارباً، وظلالاً مرتجفة، أم أننا نفتقد الذين لا تُرجى عودتهم، أكثر من الأحياء والحاضرين أمامنا، فحضور موتانا الأعزاء على قلوبنا، يكتسح وجودنا دوماً بذكريات مفعمة بالحنين والشوق إلى المحال)...

شعر بأنه يخاطب ذاته بصوت مسموع، فانتابه عاصف إحساس بأن أغوالاً جاهلية تنبثق من خلف كثبان الربع الخالي، ومن قصائد الشعر الموغل في القدم، لها أذناب أفاعٍ برؤوس بشرية، تحاول أن تلدغه فيهرب إلى تداعيات أكثر إضاءة، قرية العثمانية، وعليته المطلة من الجهة الجنوبية على عين الغار، والثانوية التي كان يعلم فيها التاريخ العربي، وتنقلب التداعيات إلى صفحة مُرَبَّدة، سجن الشيخ حسن ينسلّ بعتمته الداجية، إلى ذلك النزف الصوري ويتلامح ضابط المخابرات شوكت العاتي، يقفز فوق لجج تلك التداعيات، بكرباجه الأفعواني، فتصل تلك الفرقعات إلى مسمعه، وترتطم بجلده، كأنها حدثت البارحة، وتحل مكانها صورة صهره غيلان الجعفي ترف حوله، وترتسم فوق الجدار المتآكل، ويمحي الطيف

من أهدابه، وتتسلق زوايا مخيلته أخته رابعة الشريف فيهمس في أعماقه: "أين أنتما، أيهذان اللصيقان بي لصوق الشجرة بأرومتها؟ أيهذان المرفآن الأمينان إني أتوق إلى الرسو على شاطئيكما؟ أين أنت يا أختي الوحيدة؟ إني أحتاج إليك في قفري النفسي).اعتراه الخجل من ذاته، ومن وهن النوع البشري، وهشاشة التركيب في البنيان الموروث، وأخرجته من دوّامة خواطره، قرعاتٌ على الباب الخارجي، واستفاق بكليته على صوت يناديه من ثقوب الباب، (افتح، لقد مللت الانتظار)، تغلغل هذا الصوت المعهود إلى سمعه، وتشرَّبته أذنه، فتح الباب، برز شخص رفيقه القديم عمران البلوي الذي افتقده، منذ زمن سجنه معه في قاووش واحد وقد تناهى إلى عمران البلوي نبأ مجيء فجر الشريف إلى دمشق، وحلوله في الحارة التي شهدت أزقتها الضيقة شخصيهما، وأصداء أقدامهما، فوق صخور قاسيون، وسفوحه المجدورة. كانت روابط نضالية، ورفقة طويلة وتخمرات ذكريات طفولية، تشدُّهما برباط وثيق، سرعان ماتلاشى غبار السنين، ومارسمه النأي المكاني والزماني عن صفحة نفسيهما، وانمسح ماعلق على زجاج الزمن من تراكمات وندوب، وانجلت الأعماق عن صفاء عجيب، وتعانق الرفيقان في حنو ظاهر، وهتف عمران البلوي بصوته المعبر عن فرحة اللقيا، قائلاً:

– منذ خروجنا من سجن الشيشكلي لم نتلاق، شطَّ بنا البعد، طوَّحتنا الحياة في شعابها الغريبة، وأمسكتنا فكوك العيش بنواتئها، وقذفنا في اللعبة الأزلية، غدونا ندور في دولابها العتيق؛ تزوجت بعد خروجي من السجن، رُزقتُ بثلاثة أولاد، أتعرف هدى بنت جيراننا في الحي؟ كنت تمدح سماتها، لقد تزوجتها، وغصت في مطاوي اللعبة، رحلت إلى بلدان الخليج، ودّرست هناك، حوّشت مايقيني غوائل الحاجة ويجعلني قادراً على أن أزيل صدأ الحرمان والفقر الأسود، وأن أتابع نضالي من أجل أهدافنا البعيدة، بلا خوف من الجوع، وقد سمعت بأن حزبنا الثوري، سيعيد نشاطه، ويلملم شتاته.

غار فجر الشريف في ملامح رفيقه القديم، ليتقرى صدق مايقول، بعد أن تكدر النبع، ونفذت مخابرات السراج إلى ضمائر كثيرة، واشترتها، وضعت منها عيوناً على المناضلين، ليحملوا إليها أدق تحركاتهم وخيوط تنظيمهم، وسأله وهو يحس بخجل من سؤاله:

– أحقاً أن قسماً من الرفاق الذين حبسوا معنا في الخمسينات، قد استحالوا جواسيس للسلطة، وعيوناً زجاجية لا ترحم، وساقوا رفاقهم إلى المهالك، وغياهب السجون، وكونوا شللاً ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب.

أخرج عمران البلوي من جيبه، علبة سجائر بافرا، وانتشل منها سيجارتين، وضع إحداهما في فمه، والأخرى قدمها إلى رفيقه، وأشعلهما من قدَّاحة فاخرة. وأجاب قائلاً:

– الصفاء الثوري الذي كان يسكن قلوبنا، في أواخر الأربعينيات قد تكدر بعضه والاندفاعة البركانية صوب الأهداف، اعتراها شيء من الخمود فالزمن يضع بصماته على عقولنا، والصيرورة بمفتاحها السحري، تخلق فينا مخاضات متجددة وتكشف عن معادننا وأصالتنا، أنت تعرف خالد الحامدي وهيثم الجارودي لقد كانا في قاووش واحد معنا في سجن الشيخ حسن، وكانا أشد الناس حماسة، وإظهاراً للتمسك بمبادئ الحزب الثوري...

غصَّ حلقه برعشة انفعالية، بان ذعر في معالم وجهه، ساد صمت حزين وهمس فجر الشريف مستفهماً في استغراب:

– ماذا حدث لهما حتى سقطا ذلك السقوط المريع؟ مازلت أتذكرهما جيداً.

ابتلع عمران البلوي. سحائب الدخان، وأخرجها من منخريه، وأردف قائلاً:

– اقتنصتهما مخابرات السراج، وأصبحا أدواتها الطيّعة، تفننا في تعذيب رفاقهما السابقين، حرق الجسد، نسل الأظافر، التغطيس حتى الاختناق في الماء، الجَلْد الوحشي، وتحريق الأعضاء التناسلية. لقد حدث لي فصل جهنمي مع خالد الحامدي، مازالت صورته تؤجج فيَّ الغثيان، والبكاء الأخرس، والكفر بالقيم الشرقية، اقتادني إلى زنزانة تحت الأرض، اتهمني بأني من الحزب الثوري، مارس عليَّ أساليب النازية المتوحشة، مزق جسدي بمشاريطه وكلاباته الحديدية، أدخل الكهرباء في شرجي، حاول أن يبول في فمي، أخرجني من سعيره كتلة مهشمة جسدياً ونفسياً، ولولا الوسائط والشفاعات لتعفنت في تلك الدهاليز المظلمة، وقد سمعت مؤخراً بمجيئك من فجاج الجزيرة فأتيت لأشاهدك سراً.

بصَّت خيوط من دموع وغضب، في عيني فجر الشريف، ارتمت في مخيلته أرجل التتار، وهم يتسلون بقطع الرؤوس، وينتشون بحرق الأجساد والمدائن، وتسلقه دوار غريب، وتداعت إليه خاطرة غيلان الجعفي حينما كان يقول: (في البرية الخالية، لا شيء يرعبني، إلا أن أصادف وحدي إنساناً غريباً عني، كل وحوش جبال الشعرا، لم تخفني كما أخافني يوماً عابر سبيل مقطوع، ذاك الذي يسمونه، بشبيهي في النوع)....

ارتجفت يداه، ارتجافاً قلبياً، اعتمل في داخله بركان من الأحاسيس المقهورة، أمسك كأساً شفيفة، رشق بها الجدار المتآكل، تشظت قطعها، سمع صوت

انسحاق العالم الخارجي، أفرغ روعه، هدأت أمواج نفسه، تعجب عمران البلوي من هذا التصرف الغريب، التقط فجر الشريف معاني تلك التساؤلات التي ارتسمت فوق معالم رفيقه هتف كأنه في خلاء ممتد:

– لا تتعجب من تصرفي هذا في مثل هذا الزمن الضاري، تسود فيه تبدلات مجنونة، وتوقعات غير مرتقبة، تتهشم صور أعزاء لنا نؤطرهم في سويداء قلوبنا، ونتلمس فيهم بزوغاً، فإذا هم يستحيلون مسوخاً وكلاباً للسلطة، ويتردون في الهاوية، كما فعل بك من كنت وإياه رفيقي درب واحدة...

امسك عمران البلوي خصلات شعره، وراح يجرب اقتلاعها، كأنه يريد أن يقتلع صوراً كريهة من ذاكرته، يوم وقف عارياً، أمام خالد الحامدي الذي حاول أن يبول في فمه، ويضع بوطه الجلدي على وجهه، ويتهمه بأنه يعمل مع الحزب الثوري، بصق في الأرض، بان ذعر كوني في عينيه غطّى وجهه بيديه، حتى يتقي رذاذ تلك الصور، وصرخ كمن يتوخى إخراج قيح مدمى من حوصلته:

– الطاحونة الوثنية، التي أسميتها أنت، اعتصرتني بكلاليبها الحجرية، وقساوتها الضارية، ومفارقة سلوك أصحابها. لما وقفت أمام المخابراتي رفيق الأمس، وغدا يوجه إليَّ التهم بالانتماء إلىحزب كان هو فيه، وسجن من أجله، لا شيء يقتلني كالمفارقات، من كان في ذروة الجاهلية عدواً، للوحدانية ينتقل في سرعة بهلوان إلى ذروة الإسلام. ومن كان في أقصى اليمين، يركب الموجة ليتسنم مناصب أقصى اليسار، إنهم حرباويو التاريخ، يجيدون اللعبة والقفز على الحبال، ويشيمون بروق التغيير، إنهم الزئبقيون ذوو القوام الهلامي أنتهازيو الفُرَص والتسلق، وديدان المزابل التاريخية.

ارتجفت السيجارة بين أصابع عمران البلوي، وسقطت على الأرض، سحقها برجله، تقاطرت دموعه في صمت انخذالي، أحس بقرقعة دواليب الطاحونة تعصف بكيانه، تمسك بكتفي رفيقه، وقال في رحمانية:

– زبانية السلطة ذوو العيون الزجاجية يحاصرون لهاث الكلمة وثقوب الأبواب والنوافذ، ويتصيدون الحروف، ويفسرونها وفق نوازعهم، يحفرون المكائد، يضعون الشباك المموهة فوق الفَّوهات، أخشى عليك من غوائل هذه المرحلة، طلابك في الثانوية التي تدرس فيها، ينقلون كل كلمة تقولها ويضيفون إليها أحقادهم، ويقدمونها تقارير سرية، فالتمس طريقك في حذر، إني أخاف عليك، من كلاليب الطاحونة وأصحابها الذين لا يرحمون، سألتقي بك في الليالي الآمنة، في رفقة من لم يسقطوا في هاوية الفساد..

خرج لا يلوي على شيء، غاب في الأزقة الشعبية، ابتلعته منعطفات حارة كيكية الضيقة، ملتفتاً دوماً خلفه خشية أن يكون أحد المباحث يترصده، مشحوناً بقلق مبهم، شاعراً بأنه إذا وقع في الفخ هذه المرة، بعد أخذ التصريح منه فسيذوب في الأوكسيد، ويرمى كقاذورة في مجارير سرية، أو يصب في عمود أسمنتي، لا يعرف حتى الذباب الأزرق مكانه وخبَرَهَ، ونهايته المفجعة...

***

زحف كانون الشتائي، بلهاثه الصقيعي إلى سفوح قاسيون، وسفت الريح نتف الثلوج المتساقطة فوق السلاسل الجبلية، إلى المنحدرات، واستبانت دمشق في غلائلها الثلجية كعروس مكللة بالبياض، وكان الصحو الذي يأتي بعد العاصفة، يرين على العالم الخارجي، ويبدو في القبة اللا متناهية، القمر الشتوي كأنه جمجمة صفراء، يجوب أفق السماء الباردة، ويتسلق منحنيات قاسيون وصخوره الأزلية، حينما قرع باب المدرس فجر الشريف، قرعات عنيفة، تنذر بكبسة أمنية، كما كانت تسمى في تلك الآونة، انتابته الحيرة، عصف به خوف متوجس، تردد في فتح الباب، غير أن الطرق كان عاصفياً، والباب المتداعي، لا يحتمل كثيراً هذه الجزمات الفولانية، كان يرتدي منامته الصوفية ومعطفه السميك، وأسرع إلى المغلاق الداخلي وحله من حلقته، وانفتح الباب عن وجوه خمسة في زيها الخاكي، أذهلته مسدسات دولابية ترفع في وجهه ورشاشان تشيكيان صغيران، يُصوبان إليه، وسيارة عسكرية تركن في الزاوية، وتناهى إليه، أن رجلاً غابياً، مفتول الساعدين، ذا جثة ضخمة وقوة بغلية، يجره إلى السيارة، ويرمي به في مؤخرتها، ولم تجده نفعاً ترجياته بأن يسمح له بأن يغير ثيابه، ويأخذ معه أغراضه التي يحتاجها. حملق في هذه الوجوه التي تتنزى وحشية، وتتغرز الذئبية في ملامحها، شعر بأنه ذاهب إلى مسلخ عريض وعنت له خاطرة نيتشه: (إن الإنسان المعاصر هو أعرق في قرديته من القردة)، وأغمض عينيه وغار في قيعان نفسه ليبعد عنه مظهر هذه الذئاب التي تتوشه قبل افتراسه، وهمس في داخله: (لماذا احتجاجي؟ مادام هذا قدري الذي اخترته كمناضل، وهذا الطريق الصعب، هومسلك جميع الثائرين عبر التاريخ، كم قاسى الأنبياء والرسل من التعذيب والمكابدات والاغتراب الموحش حتى وصلوا إلى تحقيق رسالاتهم! وكم تقفعت جلود المفكرين والمصلحين الثائرين تحت السياط واكتووا بنيران العذابات، وحاصرتهم العزلة المميتة، وكوابيس الزنزانات المنفردة)، فأخرجته من تأملاته ضغطه على وجهه، وجؤار ذئبي يصل إلى أذنيه:

– ولك..... ظاهر عما تشتمنا في باطنك. شفافك عما تمتم بمسبتنا، والله بدنا نسلخ جلدك عن لحمك، وقت ما بتقرصك كلالبينا الحديدية، بنشوفك نجوم الضهر...

استتنقع الزمن، دوّمت فجر الشريف انفعالات مقهورة، ألمَّت به أحاسيس بأنه في الربع الخالي، تبتلعه رماله المتحركة من قدمه رويداً رويداً، وأصداء وحوش مفترسة تعوي في القفر، تتقدم إليه لتسحق عظامه، استفاق على أيد فظة، ترميه خارج السيارة ذات الغطاء الأصفر، وتسحبه إلى المقر المركزي للأمن، رأى نفسه أمام العقيد هيثم الجارودي الضابط المشهور بجلافته وحجرية قلبه، تفحصه في قلق بائن ليقابل بين الصورة التي يدفنها في مخيلته عن ذلك الشاب الذي كان متحمساً لمبادئ الحزب الثوري، وبين الصورة الجديدة التي تباينت عما كانت عليه؛ الشاربان الفاحمان يبرزان في هذا الوجه الضخم كذيل جحش صغير، والعينان الزجاجيتان الجامدتان، كأنهما عينا صقر جارح يريد أن ينقض على فريسته، من الأعلى والوجه المجدور، كأنه قُدَّ من صخر ناتئ، والشعر الكثيف صورة عن غاب نصف محروق، والشفتان المنقبضتان، تتلمظان دناءة إلى الولوغ في دم ضحية جديدة، قفزت من أدغال الذاكرة رقصات الهنود الحمر في الأفلام الأمريكية، وهم يدورون حول الضحية المصلوبة على عمود الموت والنار، ويلوحون بأقواس النشاب والرماح، ضوء النيون الخافت، أمام العقيد المتجهم، يلقي ظلالاً شبحية فوق الجدران، ويضخم من مهابة الأشياء، وسياط بلون اللحم البشري، منثورة في الزاوية، مكتب شديد الفخامة، صُفت فوقه هواتف متشابكة، يتصدر غرفة التحقيق. أنات بشرية، تتصاعد من الغرف الأخر، وترتفع أحياناً لتستحيل استغاثات ضارعة، وقع سياط خشنة تتناهى من الغرف التحتية. ولولات أناس لم يقدروا أن يتحملوا هول التعذيب، تذوب في الأقبية والقواويش، كلها كانت تضفي صوراً مسوخية، ودخول عالم أورفيوس السفلي المعاصر، حيث يستحيل الإنسان دودة كبيرة يدوسها الآخرون، بأقدامهم وآلاتهم الجهنمية، وتفننهم بانتزاع الاعترافات منها. حملق هيثم الجارودي بسمات ضحيته، ليتلمس نقط الضعف كما تتلمس الضبع جسارة من تودُّ افتراسه، نهض من وراء مكتبه، مشى في الغرفة خطوات صارمة، سمرَّ ناظريه في الفريسة، طالعه التحدي القديم ذاته، وصلابة الصخور التي لا تنسحق بسرعة، لكزه بجزمته الفاخرة، ذات النضوات الحديدية على مفصل ركبته، وابتدره قائلاً:

– سأسحق جسدك، أيها الحرذون المدرس هذه المرة، لن تنجو من زنزانتي التي تطورت أساليبها عما كانت عليه أيام زمان، أخبرتني التقارير الصادقة بأنك، تعيد تنظيم حزبك الثوري، الجدران تنطق عندنا، تخبرنا، عما يحدث بين المرأة وزوجها، عندما يضاجعها، ومايسره الوالد لابنه، والأخ لأخيه، لم تشبعك قرية العثمانية، ولا شعاب الجرود، حتى ولا فجاج الجزيرة. من دعواتك المشبوهة، إلى

التنظيم والعودة الموهومة إلى التاريخ كما تتقول مبادئكم.

انقلب على قفاه، وهو يضحك ساخراً، عاد إلى مكتبه، وأخرج من درجه ملفاً وراح يقتفي مسار حياة الموقوف.

– هل أبوك من وعر حمص، ومتزوج امرأة شامية الأصل.

– نعم...

– متى انتميت إلى الحزب الثوري؟

– منذ كنت طالباً في ثانويات دمشق.

– متى أوكلت إليك مهمة التنظيم الثوري في قرية العثمانية ومناطقها؟

– منذ أيام طغيان الشيشكلي، وبعيد زحف دباباته علينا، فوق جسر فكتوريا، ولولا أني قفزت في نهر بردى، لما رأيتني أمامك.

سافر فجر الشريف بعينيه في الفراغ، وانقذفت من رميم الماضي طيوف رفاقه الذين كانوا أمامه في التظاهرة، وهم يدفعون الحديد بصدورهم العزلاء، ويحفرون فوق ذرا قاسيون أسطورة أن العين تحطم المخرز واللحم المعجون بالتصميم يهزم الفولاذ ويفله، وانتابه إعصار من التعملق، واستحالت أعضاؤه الملطومة، رماحاً، لا تلين، وموقفاً يبتغي الشهادة، ولا يبالي بالموت وأردف مضيفاً على كلامه:

– بكل فخر كان ذلك، وكنت أنت في ذلك الزمن، تنتمّي إلى التنظيم الثوري نفسه الذي تحاربنا بالانتماء إليه، وطلبك بالانتساب مازلت أحتفظ به بين ذاتيات الرفاق الماضين.

هبَّ المقدم واقفاً، كأن ناراً قد شبت فيه، بان ذل وضيع، وخوف من ماضٍ يتوخى قبره، حتى لا يؤثر بمنصبه المخابراتي، ضرب على المكتب ضربات انفعالية وصرخ:

– أنت تفتري، لم يكن في ماضي ذلك الهراء، لم أسقط بتلك التفاهة يوماً، ماكرهت شيئاً في عمري كراهيتي لكم، ولأحلامكم الطافرة وطروحاتكم الفجة.

خيمت سكينة دبقة، اعترى فجر الشريف شعور بأن الطاحونة الوثنية تنهش في قلبه، دواليبها تعتصره بألف لون من الخيبة، يقودها حربائيو الوجوه، انتهازيو العصور الذين يجيدون تسلق الحبال، ويتحينون الفرص، ويعيدون تركيب قوامهم الهلامي، وفق مسار القوة، يتربصون بدوائر الأفاعي، ويطحلبون أنفسهم نعالاً في اقدام الأقوياء والقائمين على رأس السلطة، سرح طويلاً في شعلة النار التي كانت تنتفض في الموقدة المربعة، وردَّ عليه في هدوء غريب:

– بإمكانكم أن تسحقوا أجسامنا التي بها تحاصروننا، وتحاولون إذلالنا، إنها وسيلتكم المادية في قهرنا، أما أفكارنا وقناعتنا ورؤيانا في الوجود فلن تقدروا مهما بلغتم من القوة، أن تحبسوها في قواويشكم، وتجعلوها رهينة لكم.

مشى هيثم الجاردوي صوب الزاوية، انتزع سوطاً في رأسه مقرعة صلبة تلبُسه إحساس بالافتراس، انهال ضرباً على ظهر فجر الشريف الذي صمم على أن يموت شهيداً، ولا يطلب الضراعة والشكوى، وحاول أن يخرج جسده الكثيف من دائرة تفكيره، ويعطل تماسه معه، لكن عبثاً ماكان يحاوله.

ألمَّ التعب بالعقيد رجع إلى مكتبه، رنَّ الجرس الذي خلفه، نبق من الباب ثلاثة رجال ذوو أجسام متوحشة، وكروش مندلقة، وعضلات سنديانية يتنزى من وجوههم ميل سادي إلى التعذيب، حيوه بتحية عسكرية، وبقرقعات أحذية مستعدة، أشار إليهم قائلاً:

– جرَّوا هذا النذل الذي يحفر في الأساس، لاسقاط الجمهورية، ويعيد تنظيم ملغى في قواميس وحدتنا، اسحبوه إلى القاووش الأشد عتمة وعزلة.

اجتاح فجر الشريف غثيان أصفر، بدت الطاحونة تدومه، تزوير التاريخ يقضم إيمانه بالعدل الإنساني، أحس بأنه في نهاية التاريخ القديم يقاتل مع العبيد في سهول روما، مع اسبرتاكوس في حصاره، ويدافع عن الحسين في كربلاء، في ذروة العطش المقهور، وغاص في داخله هامساً: (لاشيء أقتل لشرفاء الإنسانية وثوارها، من أن يتهموا، ويحكم عليهم بالموت بتهم العداء والخروج عن المبادئ والقيم التي ضيَّعوا أعمارهم من أجل تحقيقها وتنفيذها. من أجل قيام هذه الجمهورية ضحى الحزب الثوري بذاته على مذبحها، وهذا المخابراتي هيثم الجارودي يدمي جسدي بكرابيجه، بالتهم ذاتها) ارتطم هيكله العظمي بجدار قاووش صلب. ترسبُ في فراغه ظلمة كانونية. كان الثلاثة العتاة، قد رموه كصندوق نفاية فوق الجدار الأسود، اكتسحه إحساس بأن رجله اليسرى انفصلت عنه، جزء من جسده خرج عن إرادته حاول أن يحرك هذا الجزء بلا جدوى، رجله اليسرى انشلت من رجة رأسه في الحائط، ورميه كنفاية. راح يتلمس منفذاً في العتمة، كوة صغيرة في أقصى الزاوية الشمالية، ينسرب منها ضوء خافت، وأشباح متراقصة حاول أن ينهض، غدرت به رجله، غار منتحباً في أغوار ذاته السحيقة، بوّابات منسية فتحت مصاريعها، فوّارات من ذكريات أيام المراهقة اندلعت من مكامنها، يوم كان في قرية والده على ضفة العاصي، تنبض في قلبه أحلام بعيدة، ينسرح في رعونة ذلك الزمن الفضي، تنشحن مخيلته بجزر بكر، لم يطأها ذكر،

وبقطيع من الحور الشقراوات يتأرجحن على رمل الشاطئ، عرايا في بدئية الحياة الأولى، يومئذ وقع في فخ حديدي نصبه الفلاحون، لاصطياد الثعالب والضباع التي تخرب المواسم، وتأكل الدجاجات والفراخ، الرجل اليسرى ذاتها، عضها الفخ، وانقبض بكماشته عليها، حاول أن يفلتها من قبضته الحديدية، لكن عبثاً، ظل الفخ يحبسها في إطاره غدا يصرخ، ويستغيث في ذلك القفر، تتناقل الأصداء صوته، نهر العاصي يغمغم، يبتلع تلك الصرخات، الأحلام تهرب بلا عودة. آنئذ عصف به غضب وحزن، بأن رجله اليسرى خانته، الرجل نفسها تسقط في الهلاك، فلاح نبيل المناقب، رآه عبر الضفة الغربية يزحف بالفخ، ينهض ويقع. تناهى إليه الصوت المستغيث، عبر المخاضة إلى الضفة الشرقية، حنا على رجله، خلصها من احبولة الفخ، انقطع النزف الصوري من الداخل، وطفا فجر الشريف على الواقع الوغد المحدق به.

وخاطب رجلة اليسرى، بصوت مسموع: (من يخلصك هذه المرة. الرحمة ماتت منذ زمنِ السفلة، أنتِ الآن في قبضة الأوغاد انفصلت عني، وأنا في المحنة، أرجوك أن تعودي إلى حضني وإرادتي، لأنني أكثر حاجة إليك من أي وقت مضى).

ظلت الرجل اليسرى صامتة، كأنها صخرة صماء، بلا حركة، رست ظلمتان ديجوريتان حول فجر الشريف. ظلمة الخارج، القاووش المليء بالرطوبة والبراغيث السود، والصقيع الذئبي، وروائح عفنة، وعزلة عن الآخرين.المحبوسين الذين نقلوا إلى أماكن أكثر أمناً واستئناساً، وظلمة الداخل المصلوب على عطالة شلل الرجل اليسرى، وعلى ضباب مستقبل مجهول لمناضل في العالم الثالث، لم يكن له من ذنب اقترفه، إلا أنه صمم على أن لا يلتوي وأن يرتفع إلى صعيد رسالته التي آمن بها، ويرسم في شعاب الحياة طريقاً مستنيراً، إن الموت في سبيل الرسالة المستخلصة من المعنى الكبير للوجود الإنساني، هو الطريق الوحيد للوصول إلى صعيد الرسالة. وتجاوز الإنسان ذاته.

❐❐❐

الفصل الخامس عشر

التخاطر

عويل الريح الكانونية، في سهوب الجزيرة الممتدة، يتغلغل إلى حارة الخابور الغربية، والليل الخنزير يجثم هناك وراء القفار، والنهر الفائض يزمجر حول الضفاف وتلطم أمواهه الفائرة شجيرات الصفصاف والحور، وبساتين آل موري. وتندلع أشباح متراقصة من امتزاج العتمة والأضواء الشاحبة فوق مدينة الحسكة، حينما كانت رابعة الشريف في غفوة، ترقد بجانب زوجها وتستفيق مذعورة على نداء بعيد، يهزها من أرومتها، فتطرح اللحاف جانباً، وتخرج إلى الغرفة الثانية، حيث طاولة الكتابة، وأريكة خشبية طرح فوقها فراش صوفي، وفي الزاوية مكتبة مخلعة، تطل منها كتب حسنة التجليد، أهداها إليها أخوها بمناسبة زواجها. المرآة المشبوحة فوق الطاولة بإطارها الشاحب، شيء غريب يلف الغرفة، ويرف، فوق السقف، صورة أثيرية تدب فوق الجدار الأبيض. جلدها يقشعر، دوائر بلون الخوف تتمشى في عروقها، امتداد غير مألوف، ينفتح أمامها، كل خلاياها قياثير مرهفة، لتقبل شيء آتٍ من الأقاصي، عقلها ومدركاتها، وقابليتها للتلقي كلها انصّبت في بؤرة ملتمعة، حدس مشرق لم تعهده من قبل، يمسح كوى حوّاسها، تكشف المخاض عن صورة فجر الشريف يرسف في قاووش شديد الظلمة يئن، يمسك رجله اليسرى المعطوبة، يرتطم بأرضية مليئة بالجرذان والصقيع والعفونة، أحست به يرف حولها، حاولت أن تحتضن صورته، بلا جدوى حال من التلباثية غير المفهومة، تقمصتها، ظلَّ يحدق فيها بعينين دامعتين لايرف لها جفن. تجسدت الصورة بصوت أثيري: (أنا في محنة يا أختي، حاولي أن تأتي إليّ) كررها مرات عدة، اختفى وراء الجدار، أصاب الانبهار التلباثي مخيلة رابعة الشريف، ركضت مرعوبة، إلى غرفة زوجها النائم، هزته في جنون، استفق استفق.. فتح زوجها عينيه، تأملها في هلع، كانت تنشج كطفل داهمته العاصفة وحيداً في برية خالية، تهمي دموعها فوق صدره، ناداها في حيرة:

– ماذا ألم بك؟ هل هو كابوس عفريتي، زحف إليك من براري خيالاتك؟

هزها في عنف، أبعدها عن صدره، مسح شعرها الإنسيابي في أنس، رفعت رأسها وهي تحدق في الجدار لعلها تسترد الصورة التي تلاحقها أجابت في ارتعاش:

– أخي فجر الشريف كان هنا منذ لحظات، رأيت صورته بعينيها، تمشي فوق جدار الغرفة الثانية، قاووش بلون الموت كان يحاصره، رجله اليسرى معطوبة، في عينيه ذعر كوني، وضراعةُ مَنْ على شفير هاوية.

ناداني بصوت أثيري: (أنا في محنة ياأختي، حاولي أن تأتي إلي)...

تذكر زوجها حالات مشابهة كانت تنتابه في سجنه الانفرادي، أناس يزحفون إليه من خلف الجدران، رأى أمه وطفا تدب مرات عدة من خلال فرجات الشبابيك الحديدية، ويسمع صوتها في وحشة الصمت الليلي تناديه: (لا تخف يابني، إن قلبي معك، وإني أراك من وراء الأبعاد) سرح غيلان الجعفي فوق تضاريس الحائط المبلل، كمن ينقب في الزمن البعيد، ويجوس في غابات بدائية طواها النسيان وقال في انفعال:

– ليست رؤاك غريبة عني، حدثت لي أمور تلباثية لما كنت في السجن. أمي رفت حولي مرات عدة، نفذ أيوب السارح إلى زنزانتي من معصاه في جبال الشعرا، تشوفته بأم عيني، صورة مجلوة فوق الجدار، خاطبته من سجني، وخاطبني من منافيه البعيدة، إن وراء مادتنا الكثيفة وحواسنا المحدودة، دنيا خفية، مترسبة في قيعان ذواتنا، ورثناها عن القرون الخالية وتبلورت في العقل الجمعي، أرجوك افتحي النافذة، لنطرد تلك الاعتصارات التي تأكلنا من الداخل، والندوب القديمة التي مازالت عالقة في زوايانا الخفية كأجراس خافتة، تدندن بالغموض، والخواء، والغاب البدائي.

ترددت في فتح مصاريع النافذة، أبحرت في عيني زوجها، التقطت أطلال قلق بعيد، كان يصلبه على عمود العزلة والوحشة، فتح النافذة في عصبية ظاهرة، تناهى إليه جؤار العالم الخارجي في عري عناصره النادبة، وصرخ كمن ملأه شعور بالامتداد، والتوازن بين عالمي الداخل والخارج المحتدمين:

– الخابور الشيخ الجليل، تجتاحه فرحة امتلاك الضفاف والنهر، بمملكة الليل الفاحم، والامتداد صوب آفاق أشد فيضاً ورحابة. هناك أرغونات سحرية، تتصاعد من جوفه الفيَّاض، وتذوب في مغاور جنوب الرَّد وتحتضن جلال الفرات في لقاء عجيب، إني بحاجة إلى جنون خارجي دوماً يتوازن مع ريح أعماقي، يطهرني من احتدامي الداخلي، ويمتص العاصفة في كياني. كلما غرت في قحف

رأسي، رأيت مخابراتياً، يقعي هناك، يتملاني بسوطه، يتهددني ببوطه ذي السوار الحديدي، وماصورة أخيك الذي تجلى لك فوق الجدار إلا مظهر التخاطر، النادر الوقوع للحاسة السادسة، التي افتقدناها نتيجة طغيان الحواس الخمس ، على مدارات مشاعرنا، ينبغي أن ترحلي غداً إلى دمشق وتستجيبي لطلبه، وتساعديه في محنته، وأذهب أنا إلى عين الغار في الفرصة الانتصافية، لأتلمس مافعل الزمن بأهلي، وأعزائي.

عصف حنين مهووس في عروق رابعة الشريف لما نفذت إليها كلمة الرحيل والبعاد، امتطتها شهوة مدمرة إلى مضاجعة زوجها، وتكوزت بشكل الخوف على غبطة راعشة، تنسل من أصابعها، وتذهب ولا تعود.

أحست بأن القدر يلتهم زهوة أحلامنا، يقوض بيوتاتنا الرملية، التي بنيناها على شطآن المراهقة، لا يمكن لنا أن نتحمله إلا بالتحام جنسي ذي طعم ناري، نهرب فيه من مجابهته، بالاعتصار والنزو، وشدَّت زوجها إليها، ونادته في تلهف حواء الأولى:

– اعتصرني، ياحبيبي، غيب شفتيك في دفء شفتي، امتلكني كما يمتلك الخابور، الضفاف بالامتلاء والفيض، غيبني لعلي أنسى كل همومي وارتطامي بطريق قد يكون مسدوداً...

ازداد عويل الخابور عنفاً، التمعت بروق، كانت تكشف أسجاف العتمة بوهجها، تراكضت غيوم داكنة في قلب الليل، انهل وابل من المطر، تأجج في مخيلة غيلان الجعفي شبق. أوصد النافذة، عرَّى زوجته من غلائلها، تشرَّب بعينيه مراياها النهرية، الرابضة، دغدغ سمرة نهديها النافرين، غمغم في فرحة الافتراس:

– روح المطر تهيج فيَّ شهوانية خاصة، أشعر أن أمي الأرض تتفتح كل عروقها، لأغمرها بجسدي، وأحمل اللقاح إلى رحمها الطينية، لأذوب رعشة فيها، وأمتلك العالم لحظات لا معة، وتتناغم إيقاعاتي مع تراجيع المطر والريح والليل الجليل، كما حدث لما افترست عذريتك فوق الضفاف، وأحابيل المطر تتساقط على جسدينا المتداخلين، قد يتجمع كل فرح العالم وحزنه في بؤرة تلك اللحظات التي تمر كالشهاب الثاقب، وقد لا يعود مذاقها أبداً، ويتكرر.

تعانق الجسدان في رحم الأرض وانصهرا في نزوة الطين، لحظات خارج الزمن، وكانت كوابيس الرحيل والفراق، تترصدهما وراء متعتهما العاجلة، لتطوح بهما في قفار المستقبل المجهول، وينوشهما قدر أبله، ويسوقهما مصير خفي ويبرز المغزى العميق للعالم، بشكل أسطورة عتيقة، أن الصلب همجي ودائم في

أسطورة الإنسان الثنائي، جزؤه الأسفل مسكون، بثور جامح، يتلاعب به فحيح الغرائز، والتوقان المجنون، إلى التمرغ في خبايا أنثى، والجزء الأعلى بشكل وجه إنسان، يحاول أن يتخلص بالعقل من عصف الجنوح، وإفراط الشهوة، وسيظل هذا الصلب، رحى دائمة الدوران، تطحن في مسارها، أحلاماً خضرا عِذَاباً، وشوقاً مخبولاً إلى متع هاربة، مستحيلة الدوام، وندماً خائباً بأن الحلم المنمنم بنوافير الكبت، أكثر جمالية من الواقع العاري المشخص، وأن الأنثى التي يستحيل الإمساك بجسدها، أعمق خصوبة، في تهييج الأحلام وإخصاب الخيال، وإغناء عملية الإلهام والإبداع.

***

غربة داكنة بلون الخواء، تغلغلت إلى صميم غيلان الجعفي، بعدما أصبح وحيداً في مفاوز الجزيرة إذ حاصرته أحاسيس ذات استطالات غولية، وصار يخشى من المكوث وحده، وسط تلك الليالي المليئة بالتوجس، والخوف من الخوف. حاول أن يخدر مخيلته بتعاطي شرب العرق الثقيل، وإملاء جوفه منه والهروب من هواجسه، لكن السكرة في أقصى مداها، كانت تفتح بوّابات غريبة في نزوله إلى تلك الأغوار السحيقة، وينتشر رذاذاً أسطورياً، أثناء تحديقاته بتلك الأشياء المتربصة في العتمة، كان كلما ازداد في السكرة قلت قدرته على إغلاق تلك البّوابات السرية، وأمست طبقات ذاته الجوانية، مسرحاً لعراك ضار. ولم يجد ملاذاً له، إلا الفرار إلى قلب الضجيج الأنسي، ولجأ إلى رفيقه نافع الديراني، فارتمى في مقهى الدير يشرب الشاي وفق الطريقة الديرية، ويدخن النارجيلة ويصغي إلى بقبقات الماء في زجاجها ويستأنس بصوتها، ويشارك في الأحاديث الشعبية، ويرجع إلى بيته بعد هزيع من الليل، ولا يكاد يستلقي على فراشه، حتى تعاوده المخاوف، وتمسي مخيلته راداراً، هائل الالتقاط، ومعملاً يفرز صوراً لا حدود لها، وتمسح الجدار بلزوجتها الخاصة. حتى نهر الخابور الذي عشق تهويماته في الدجى، استحال غولاً أزرق يناديه من وراء الشطآن ليرمي بجسده فيه، وتغيبه اللجج الهائجة إلى الأبد. وانفساح آفاق الجزيرة، الذي كان يخلق في كيانه، دوّامات تنقله إلى صحارى، وواحات الجاهلية الأولى، وحداء الشعراء البداة، وترانيم القصائد المشحونة بالوقوف على الأطلال، وبكاء الدمن الخوالي، والتذكر الضارع إلى أمسيات الحبيبة، ومضاربها الراحلة. كل هذه الأشياء العزيزة الضاربة في جذور الماضي، استحالت رملاً متحركاً يكاد يبتلعه في وحشة مدمرة، فقرر أن يهاجر إلى عين الغار بعدأن سلم مفاتيح بيته إلى نافع الديراني، وأن يبيع له مواعينه ويدفع عنه ماترتب من أجار، وسيخبره غيلان الجعفي هاتفياً إلى المدرسة

بما سيؤول إليه وضعه، وخاصة أن الفرصة الانتصافية على الأبواب ويسعى جاهداً إلى الانتقال إما إلى مدينة دمشق أو إلى مدن الساحل أو يأخذ إجازة بلا راتب بسبب حاله الصحية غير المتوازنة، لأن حاجته إلى العالم الإنساني عميقة جداً، وأن لا شفاء له من هواجسه، إلا أن يذوب في محيط هذا العالم، ويغرق في رحمانية الحنو الذي افتقده منذ مراهقته. كان في وداعة رفيقاه المعلمان، وبعض الأغراب مثله في حاره الخابور الغربية، كان صباح شاحب، يكفنه صقيع الضفاف بنقاب أسطوري شبيه بمناخ بحار الشمال، وجنياته الضبابية. لمَّا ركب في باص باهت اللون من كثرة الغبار المتصاعد من الطريق الترابي الذاهب إلى دير الزور، وألقى نظرة أخيرة على مرتسمات نهر الخابور وأشجاره التي تفيأها زمناً، وتداعت إليه نفثات الحنين وتألق في ذاكرته الصمة القشيري من روابي نجد، وحنايا الماضي البعيد وتمتم في صوت خافت بهذين البيتين:

وليست عشيات الحمى برواجع إليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا
بنفسي تلك الأرض، ماأطيب الربا وما أجمل المصطاف والمتربعا

لكزه أعرابي جلف، كان يجلس بجانبه فصحا على نفسه، وسرح طويلاً بناظريه في تلك البراري الشاسعة، التي لا شجر فيها، وكان الباص ينهب تلك السهوب المغطاة بندف صقيعي، ويتوجه إلى دير الزور، الغافية على شاطئ الفرات حينما كان غيلان الجعفي ينهب ذاته من الداخل، ويوغل في شفافية زمن بعيد، ويتقرى في مخيلته تضاريس بلاد العرب الجنوبية، ويعيد في ذاكرته قصائد الجاهلية، والحداء الليلي المشحون بإيقاع الرجز، وعزيف الجن في العراء الرحب، ونجيمات شديدة اللمعان، معلقة في أذن الجوزاء، وانثيال كثبان الرمل الناعمة، والبقر الوحشي، والظباء البيض الرشيقة، وأرداف بنات الصحراء المتموجة بالصحة، والعيون النجل لصبايا الجاهلية، والغواية تندلق شهوة من شفاههن اللعس، سمَّر نظراته في صبية بدوية ذات سمرة غاوية، تجلس في المقعد المقابل، الوشم المنمنم حمله إلى مضارب الخيام في الصحارى العربية، الشفة الممتلئة التي توحي بالاعتصار، أفعمت خياله برقصات الأقبية في الجنوب الإسباني، وتمايلات الخصور الهيف والإيقاع الغجري، والبريق الشهواني الذي كان يندلق من عينيها الفاحمتين، ملأ خواطره بالتثبت والغزل الماجن، الصاعد من حكايا ابن أبي ربيعة، ولقائه الليلي بمحبوباته. لم يدرك لماذا انثالت كل تلك التداعيات حول أعشاب ذلك الزمن العتيق، ومرتسمات الشخوص الغابرة، ونسي حاضره المفجع واغترابه الموحش. أخرج سيجارة من علبته، وأشعلها بثقاب من الكبريت وأعطى لجاره

الأعرابي واحدة أخرى مجها الأعرابي في التهام حتى خرج الدخان من أنفه، وتلمظها كمن يتذوق طعماً طيباً، وقال في صوت أجش:

–والله زين هالدخان، "أني" من أعراب جنوب الرَّد أبي عربي قح، قبيلتنا من شمَّر الأصيلة اللي مابتعرف الفاينة، أصولنا تروح بعيد إلى قيعان الجزيرة العربية، ونجد العدية، وأنت أنت حضري.

حملق فيه غيلان الجعفي، تقرى ملامحه القاسية، ليتعرف عليه. السمرة الغامقة شمرية، تعابير الوجه، والأنف ذو الأرنبة الضخمة، العين الفاحمة كسواد حب الديس الناضج في أواخر الخريف، البساطة المباشرة التي لا تعقيد فيها، الفخر التاريخي بالأصالة، كلها سمات شمرية، كان قد علّم تلاميذ منهم في مدرسة العشائر وعرف ملامحهم، وذكاءهم الفطري، ونبالة خصائلهم، فأجابه في تعاطف:

– جميل أن يفتخر المرء بقومه، وأجمل منه أن يتشبه بهم في مناقبهم، أخبرني تلامذتي عن أصولكم، ورحلاتكم المتنوعة، وحروبكم مع هجناء الجزيرة، يقتحم الأغيار مرابعكم في جنوب الرد، ويقتلعونكم من مضاربكم، ومراعيكم، ومشاربكم، كما اقتلع العرب من إسبانيا، وفلسطين وستطردون كما طردوا، وتشكل دويلة غريبة، تمتد حتى ماوراء دجلة، إنه خطر ماحق يحدق بكم وبأمثالكم، يا أبناء شمر...

خيمت سكينة، كانت تقطعها هزات الباص فوق طريق غير معبد، وصرير عجلات ورغاء إبل في تلك البوادي، أزاح الأعرابي شملته، وحرك عقاله، وتنحنح، وأبرقت عيناه في غضب، وقال بلهجته البدوية:

– دريت والله ماتعني، قبيلة شمر مايخفى على شيوخها شيء، ماتنام على ضيم، غاراتها تشهد على صمودها في الهيجا وساحة الحرب، أرض الجزيرة زين. مانغادرها ولو بقلع العيون، بموت أني والنشامى الشجعان، وأختي هالزينة وأمثالها بتبقى تصون عرض القبيلة وشرفها.

رنا غيلان الجعفي رنوات حانية الى تلك الشمرية المليئة بالوشم، والخطوط الزرق المنتشرة في تقاطيع وجهها المعبر، وبتلك الأقراط الفضية في أذنيها ومنخري أنفها. فقفزت إلى شاشة مخيلته صورة الشاعر الضليل امرئ القيس من جذور الجاهلية الأولى، يتربص في دارة جلجل عند الغدير، يتملى عري عنيزة وحواریاتها من البدويات. لم يدر لماذا قادته تلك الخطوط الموشومة، إلى عمق الجاهلية. كان جسر دير الزور المعلق، قد بدا أمامه، وهدير الفرات المتعالي يعج من تحته، كأنما الباص المترنح عصفور قد علق بقضبان الدبق، من جانب وراح

يرفرف محاولاً التخلص من جانب آخر، نهر الفرات بعجيجه الغولي ولججه الفائرة تحت الجسر، أوحى إليه بأنه يسمع أنين المحيطات في الأعالي القصية، هوى بناظريه إلى اللجة الزرقاء في وسط النهر، ونقلهما إلى الخطوط الزرق الموشومة في صفحة خد الأعرابية، فأحس أن اللجة السحيقة تناديه من الأدنى واللعس الغاوي فوق شفة الشمرية يومئ إليه أن يعتصره، وكلا التيارين يتجاذبانه في غواية جارحة، بأن يلقي بمصيره في أحدهما، فارتطم جبينه بالإطار الخارجي للباص، لفرط التحديق في تيارين مفارقين، وسال دمه، وأشفقت عليه الشمرية، فناولته منديلاً وردي اللون من عبِّها، ليمسح قطرات الدم السائل. توقف الباص، بعيد الجسر، نزل ركاب دير الزور، تلاقت عينا الشمرية بعيني غيلان الجعفي، واحتضنت رنواته الحزينة النافذة، وشعرت بخفقان قلبها، بحنو إنساني خفي، يسري في عروقها، فأشارت إليه أن يبقي المنديل معه، دون أن يلاحظها أخوها الأعرابي، لعل ريحاً من الذكرى تسفه يوماً إلى جنوب الرد. وابتلعت شخصها الراحل، البيوتُ الترابية، والأزقة الضيقة، وهمس في داخله، قائلاً:

"شكراً لك أيتها البدوية، لقد أفعمت ذاكرتي، بالموحيات القديمة، وأيقظت رؤى غافية، كنت بحاجة قاتلة للاستئناس بها، والتأرجح فوق حشائش واحات خضيلة، منشورة في براري الحياة الأولى، تعشش فيها الأحلام الناعسة والأساطير والشوق المضني إلى استرجاع أزمنة طازجة، غابت في شعاب الماضي البعيد، وأضحت أصداء حلوة لارجاء في عودة شخصاتها الراحلة.

❐❐❐

الفصل السادس عشر

عيد رأس السنة الشرقية

الطقوس القديمة بقدوم السنة الجديدة وفق التقويم الشرقي، ظلت ماثلة في عين الغار، ومحفورة في صخور التقاليد والعادات، والتمعت قبة الشيخ نجم الريحان بندوف الثلج الأبيض الذي تساقط منذ يومين وأبقى آثاره فوق المنحنيات وبين المقبرة المكللة بسدول ناصعة البياض، وفوق الجسر الكفري. كان شخص غيلان الجعفي، يتأمل أصيل شمس مريضة، ويلاحظ في ذهول، خطوط الثلج التي تطرز الطبيعة بوشاح أسطوري ويسرع الخطا صوب شجيرات البلوط والسنديان في الغابة العتيقة التي تساقطت ثمراتها الكستنائية فوق الأديم الثلجي. التقط بضع دوامات منها، فتح قشرتها مضغ لبها الممزوج بمرارة مستساغة، تداعى في ذاكرته شريط من ماضي مقبور، تذكر أمون الغشيم وهي تمارس الجنس على طريقتها الخاصة، واقتحم حواسه نشيش رائحة لحم في الحارة التحتانية، وشواء ورائحة عرق مثلث حمل إليه مذاق كلكة بني سويلم ويانسونها الثقيل، وتناهت إليه أصداء طبل رجوجي في حارة بني الخصيب، ومواويل وفروقات وتراجيع عتابا وميجانا وإيقاعات رقصات رشيقة في الأفق الشتوي، وأنين شبابات ومزامير، ومراسح دبكة في الجنوب من القرية، غدا يتذكر الأعياد الدينية والأعياد الفصلية، ويقلب روزنامة الزمن، وتوقف عند عيد شتوي كان يحدث طقسه في ذروة الشتاء. وعطَّله قسم من الجرود وغاص في داخله هامساً: (ما أبلدك أيتها الذاكرة، نسيت أجمل عيد. طقسه المتناغم مع روح كانون المتمرد، وقمة الشتاء العاصف، نسيت عيد السنة الشرقية، أقدس الأعياد على قلبي، أيها الفرح الحقيقي في قلب كانون المظلم، والصقيع المثلج، يانداء الرقص، والشواء، والسكر الحلو. والتصافي من الكدر، كم دافعت عنك، لتبقى وتستمر، رغم تعطيل بعضهم لك. كيف غيبتك الليالي من مخيلتي، وكدت لا أميزك. لا تؤاخذني إنها الغربة والنأي، والسجون، وفجاج الجزيرة البعيدة)، أخرجه من دوامة نفسه، وقع خطوات وحركات فوق سيقان شجيرات البلوط التي لم يطمَّها الثلجُ، أصاخ بمسمعيه إلى تلك الخشخشات

المتصاعدة من قلب الغابة، فطالعه شخص امرأة تشيل صبياً على ظهرها، وتمسك كيساً بيدها اليسرى، وتلتقط ثمرات البلوط الجوزية، وتجرف الثلج عنها، وتضعها في الكيس ترفع عقيرتها بالغناء بمواويل، وأغنية عليها مسحة القديم:

عالعين شمالك شمالي يا أبو الحطاطه منيَّالِ

علواه يالميت لو تحياي ويعود زماني الأولِ

ارتسمت دوائر من أسى دفين، وتمنيات خضر بالعودة إلى أزمنة غابرة وسمَّر نظراته بالمرأة التي كانت تضع منديلاً منمنماً بخرزات لامعة على رأسها، وتلف خصرها الأهيف بزنار أحمر، يبرز مخلفها المتموج، وقد توقف بنظره عند انحناءاته وتلاقت النظرات وافترَّ ثغرها عن ابتسامة مشرقة، وأنزلت ولدها عن ظهرها، وقالت في استحياء وترحيب:

– ولك هيك دوماً حظي طيب معك، بشوفك في ظل هالغابة من يوم ماشفتني تحت شجرة التين الخضيري، وعم أتمرجح فوق الحشيش الناعم، وجسمي، ياحسرتي، فاير مثل التنور، والله تزوجت بعدين، من عامر الصوان، وهالصبي ابني، واليوم عيد رأس السنة، وبدنا دوامات البلوط، نشويها عالنار، ونسهر مع الجيران والفرحة حتى طلوع الشمس...

اختفت وراء جذوع البلوط الضخمة، تلتقط الثمرات، ويترنح ابنها على ظهرها وتلتمع نمنومات منديلها أمام شعاعات الشمس الغاربة، فوق مسارب الغابة ورؤوس الأشجار العالية. امتدت غبطة كاسحة إلى أعماق غيلان الجعفي، وأحس بميل إلى احتضان العالم، والذوبان فيه، ولم يستقر على تعليل لتلك الغبطة الجارفة فغاص مسائلاً نفسه: (لعلها من طقوس الفرح في هذا العيد الشتوي والمصادفة السعيدة بمجيئه في هذا اليوم، أم لعلها من تمليه أمون الغشيم وهي تفعم الغابة بغنائها المشحون بالحنين واللهفة، أم لعلها الشمس في ذروة غروبها، تنشر بقايا نورها في الأعالي، وتلملمه عن السفوح والوهاد، في إيقاعات متنوعة شديدة اللدونة، تشترك في توالدها وخلقها، الطبيعة المغموسة بالبياض الناصع، والإنساني في أمون وغنائها المتلهف، والزمن في مخاضة الجديد، والشمس في مصرعها الغارب، ورحيلها المدنف عن هذه الأرض الأم الملوعة)..

***

تصالح غيلان الجعفي مع العالم في تلك الآونة، وخفت ذلك التصدع النفسي، وانغسلت كواه الصدئة، أحس بولاده جديدة تنتابه حينما تحلّقَ به والداه وأخته سحاب وخطيبها عنفوان بن بدر الجعفي وانسربت إليه فرحة شبيهة بفرحته

القديمة، عندما كان يتعرى في مراهقته ويسبح في دواوير بني سويلم، ويستحم في ضحى ربيعي، وتعبق أزاهير برية في منخريه، ويتنشف بضياء، شمس الأعالي، وتدغدغه مويجات النهر السيلي، كانت أحلام المراهقة وقتئذ نوافير قزحية اللون، تطيِّره إلى جزر الواق الواق، وأخرجته من سبحات أحاسيسه الماضية، يدأمه وطفا تحتضنه في لهفة مجنونة، وهي تكاد لا تصدق مثوله أمامها، وتعتصره في حنو جارف قائلة:

– يابني والله طوّلت هالمرة، سمعنا أنك تزوجت امرأة شامية وهي معلمة مثلك، ونسيتنا، ونسيت عين الغار ومرباك، ومرجة الشيخ نجم الريحان، ولولا حمدو برقروق الآذن في المدرسة اللي بتدرِّس فيها، ماعرفنا عنك إلا الأخبار القليلة...

طفت على سطح ذاكرته، صورة ذلك الآذن، وهو يحاصره في غلاظة. كم مقت تلك الفضولية السمجة التي تتأصل في طبع ابن ضيعته الذي تناقل عنه الرفاق أنه عميل، يكتب تقارير للمخابرات، وينقل إليهم كل تحركات المعلمين في المدرسة وأقوالهم، ومنذ ذلك الحين تحاشاه غيلان الجعفي وحاول أن يبتعد عنه مااستطاع، وعنَّت عليه خاطرة حلوة، فأغرق أصابعه في جدائل أمه، وشدها في رفق، كما كان يفعل في ماضيات أيامه وطفولته الأولى واشتم رائحة أزاهير برية، كانت أمه تقطفها وتشمها، وتدهن شعرها بذوبها المعطر، وتمزجها بخليط الحناء، لتغييب الخصلات الشائبة. شعر بأنه يعود طفلاً تغسله، بالطست النحاسي الذي ورثه والده عن جده الجعفي وأجاب في رحمانية:

–شخوصكم لم تفارقني أبداً، في نزهاتي على ضفاف الخابور، كنت أراك يا أمي، ترفين حولي فراشة ربيعية، وتقدمين مع اللجة الزرقاء، وتأتين مع الشفق الأحمر. وكنت أتلامحك –ياأبي– في هدآت الليل وأغساق الفجر طيفاً شفيفاً عميق التقى، يحملني إلى مغاور النساك، ومعابد الهند النرفانية، وأنت ياسحاب كنت أرمقك، سحابة غربية، تغدقين عليَّ رفارف حلوة من أشذاء غويران الوطا وطعم زهيرات المونس في حضرة الشيخ نجم الريحان....

زغردت الحطوبات وقرم الأشجار اليابسة في الوجاق الريفي، وفار الماء في الإبريق، وانتشرت رائحة نقيع البابونج والبنفسج، في أجواء البيت الطيني، وسرى دفء ناعم، في العروق وتراقص وهج النار فوق ساموك البيت المجدور، وانشالت خيالات طرية لها طعم الطفولة وسحائب الورود المتفتحة التي كان أترابه في غويران الوطا يصنعون منها قلائد وأطواقاً ملونة وأراد عنفوان بن بدر الجعفي

خطيب أخته أن يُدِّل بعلمه وثقافته وميوله فساءله في تردد:

– أتنظم الشعربأسلوب الحداثة المعاصرة ؟ يبدو أنك استوعبت مسالك هؤلاء الشعراء المحدثين، ودراستي للحقوق في جامعة دمشق حالت دون نظمي لقصائد من هذا النوع الجديد، الخارج عن أنماط الوزن والقافية.

غلى مرجل الماضي، وانقذف رذاذ أسود من كره لسلالة بدر الجعفي يوم كانوا سماسرة لأغوات العثمانية ومتعالين عن شكاوي المعترين من الجرود، ودعاة مخلصين لحركة التحرير، وسلطة الشيشكلي، وهم الذين كمشوُّه للسلطة لأنه يوزع المناشير ضدها، وحملق في والده معاتباً على هذه الخطبة. أدرك والده ما يدور في ذهن ولده، فأمسك لحيته بيده، ومررها عدة مرات، راجياً أن يكبت جماح ذلك الرذاذ من الممارسات المهينة التي اقترفتها بحقهم أسرة عمه الجعفي والتقط معاني تلك الترجيات التي يومئ إليها والده من طرف خفي، فكبس جرحه بالملح، وأردف قائلاً في أسى:

– لستُ والله بشاعر. ولم أنظم في حياتي بيتاً واحداً، غير أن عتمة السجون والاغتراب في أقاليم الليل والنهار، والإبحار الدبق في الزمان والمكان واعتصارات الهموم، صيّرت مني قيثارة مُرهفة، تعزف عليها أية نأمة من ريح الحياة والإنسان، إيقاعات وصوراً، تلامس ماتسمونه شعراً، ومأروعة الشعرإلا في انسجام التجربة الشعورية مع القيم التعبيرية التي يشعها اللفظ والعبارات، ويُموسقها الإيقاع، وتسبح فيها الصور والظلال، ونتصل بنسيج الكون الرحب، ونحس بعمق اللانهاية، في حبة رمل من مشاعرنا، وبعظمة المحيط في ارتعاشة من أحاسيسنا.

– تنحنح الأب إبراهيم الجعفي وقرَّب يديه المعروقتين من الوجاق الريفي الذي تزغرد فيه الحطوبات البليلة، وتأمَّلَ جمرات النار المتوقدة وقال راجياً:

– بالله، دعونا من النقاش الحاد في هذا اليوم السعيد، فالسهرية تنتظرنا عند ابن عمي بدر الجعفي، وستقام وليمة بمناسبة عيد الميلادية، وتنتصب مراسح الدبكة، وتشعل النار الجبلية، وسط المراسح ، وربما يشَرِّفُ المقام سيدنا أحمد الخطيب ليشارك الناس بفرحهم وقد دُعيت الأسر البارزة في هذه الناحية من حدود العثمانية حتى أقصى غويران الوطا لتشارك في هذه الوليمة وذات الشأن والقيمة.

تعالى نشيش الحطب المبلل، وعبقت رائحة الشوح وقرم الريحان في الأنوف، وأخرج عنفوان الجعفي علبة فاخرة تدرج السجائر عندما تلقنُ بالدخان المفروم وورق الشام الرقيق، ولف سيجارتين من دخانه المنقى من حواكيره المشهورة بمذاق دخانها الطيب ذي اللون الشفقي، لأنه كان يسمدها مرتين بزبل الماعز، ويعلق

خيوطها بأغصان الصنوبر، وقدَّم أحداها إلى غيلان الجعفي الذي أشعلها بمحراك متقد بطرفه، وراح يمج نفثاتها المتموجة في فضاء البيت، الذي لم يتغير فيه شيء، حتى الساموك السنديانى، والمدود المقطوعة من أحراج الشعرا مازالت على حالها، إلا أنَّ حوافيها اسوَّدت، وبان هباب نار قديمة فوق هيكلها الفاحم، والسيباط الطيني لم تتبدل هيئته إلا أنه ازداد ارتفاعاً عما كان عليه، لأن أمه وطفا تطينه كل عام، وتسدُّ الحفر التي تحدث فيه، وتضع بصماتها فوق زوايا الوجاق. عنّت في ذهنه ذكرى أيام قطع المدود وتثبيت الساموك، مع أيوب السارح الذي لم يشاهده منذ زمن بعيد، وأضاف سائلاً:

– أودُّ أن أسألك يا أبي عن إنسان كان لصيقاً بنا كثيراً ، ماذا حدث له..

– تعني أيوب السارح...

أومضت عيناه في حنو وقال:

– حقاً إنه الذي أعنيه، ماذا فعلت به الأيام؟

حكَّ الأب مؤخرة رأسه، وسوّى شملته، وأجاب:

– يغيب سنة كاملة في دنيا الله الواسعة، ولا يقرُّ عن المكان الذي يغيب فيه، ولكن تناهى إليَّ سراً من امرأته أنه يتنقل في الصحراء الكبرى، وعبر شعاب المغرب العربي وشواطئه، ويمضي هنا شهوراً، ويغيب من جديد، وقد عَمَّر غرفة واسعة بجانب ضامته المعروفة، وصار له ثلاثة أولاد. والحبل على الجرار، وقد اشترى أرضاً صخرية من أغوات العثمانية، وزرعها بالتفاح والريحان الجوي، وتحسن وضعه المعيشي، وامرأته جميلة بنت سويلم تسكن الغرفة مع أولادها، وبجانب أهلها، ويمدها بالعملة الصعبة، ويصرفها بالليرات ويسألني دوماً عن أخبارك..وهو الآن غائب منذ أكثر من خمسة أشهر، ولن يعود قبل الصيف...

أبرقت في عيني عنفوان الجعفي ملامح الغضب والكره لشخصية أيوب السارح وارتفع صوته في انفعال كأن عقرباً لسعته:

– لا يعجبني تركيب هذه الشخصية، ولا سرحاته الطويلة عبر الأصقاع. لا يستقر في مكان، ولا تضبطه مرابط الزوجية. تصور أنه يغيب عن امرأته سنة كاملة، ولايعاشرها إلا شهوراً قليلة...

تطاير الشرر من عيني غيلان الجعفي، وحاول أن يردَّ في عنف، لكن نظرات أخته الضارعة، وتمسيدات والده على ذقنه بأن يزرعها بها هذه المرة، وملامح أمه المبتهلة أن يلف الحديث، ويطوي بساطه، ورغم ذلك كله، ردَّ عليه

في تهذيب:

– معرفتي بأيوب السارح ترجع إلى أيام طفولتي، واستيعاب الآخرين لتلك الشخصية يبدو سطحياً، يكفيه أنه شحن عمره بالتنقلات، وتحدَّى في عري صادق سلطة زمانه وأغنى مساره بالممارسات، وقاتل في كل الجبهات دفاعاً عن الكرامة والقيم العليا، وله طعم منفرد، لا يُنسى أبداً...

رنا عنفوان الجعفي إلى خطيبته سحاب رنوات حانية، وأغوته ملامحها المعبرة التي انعكست عليها توهجات النار، عينان سوداوان فيهما سراج ندي بالتألق، شفتان تشوبهما حمرة لامعة، وجه أسمر حنطي، يمازجه لون خمري فيزيده بهاءً، ركز ناظريه في منقاري نهديها البارزين اللذين لم يعتصر نسغهما الفطري، تشربها كمن يتلمظ إلى شهدة من العسل لم يُتح له لعقها بعد، وهتف:

– ستكون ساحة منزولنا قد امتلأت بالوافدين، وحطوبات سفح الشعرا، وقرمات شجرها، المخبأة لتلك الطقوس، وقد التمعت نيرانها واستطالت أشباح الراقصين في المراسح، وانعجنت رئة الليل برائحة نشيش لحم الخواريف المسمنة، هلموا، هلموا، قبل أن يفوتكم أجمل المشاهد والراقصات....

اختفى وراء حواكير آل الجعفي، لبست وطفا الأم الفستان القديم الذي أهداه إليها الشيخ محمود مبارك ولا تلبسه إلا في المناسبات الخاصة. وتزينت سحاب بالمنديل المخرز ونمنوماته المبرقة، وأحاطت خصرها الأهيف بزنار برتقالي اللون فوق فستان مخملي طويل، أهداه إليها خطيبها، أما الأب فارتدى القمباز الحريري ذا الخطوط الطولانية، واعتمر بالشملة الجديدة، التي اشتراها من سوق البازار في المدينة، ولكن الذي لم يغير شيئاً من لباسه، هو غيلان الجعفي الذي تعود على البساطة، والاهتمام بالمضامين دون السطوح، وفق منهج معلمه فجر الشريف، واكتفى بحلق ذقنه، وترتيب شعره. أسْرَت العائلة ليلاً، عبرت قبة الشيخ نجم الريحان، نشر الأب كمشة من البخور في المجمرة الفخارية، واشتعلت وقدة فيها، وعبقت رائحة صوفية في مخيلة غيلان الجعفي، تسلقه إحساس غامض، بأنه في سفح النبي بِلاّت المهجور، يرعى غنماته في العراء، عند غبشة الفجر، ويسترق السمع إلى خفايا الطبيعة، وهسهسات الحركة في الغابة، لا ستقبال الشروق، والقابلية الشفيفة إلى التحليق تهيمن على حواسه، وتتفتح كواه الداخلية على الذوبان في العالم الرحب. كم كان يتمنى أن يبقى هذا الاحساس طويلاً! غير أن وقع أقدام أخته وأمه، بحذائيهما، ونضوات نعليهماالحديدية.وارتطامهما بصخور الطريق، بددا من لدونة هذا الإحساس المومض. كانت شرارات النار الصاعدة من مراسح

الدبكة، تلقي بروقاً مرتعشة على شاشة الليل المبرقع، بتمازج الضياء والعتمة، انصبَّ الجميع في مدارات تلك الميلادية وطقوسها، وكان بدر الجعفي وأولاده من الذكور يستقبلون الوافدين من القرى، ويعينون لهم أماكنهم وفق قيمتهم الاجتماعية وبناته الثلاث، ثناء، ربيعة، ماجدة، يرعين الوافدات من القرى وأهالي الديرة من النساء، تناهى إلى مسمع غيلان الجعفي زمور سيارة آتية من ناحية جسر الكفري وأشعة أضواء تتدلق منها، وترسم أشباحاً ليلية فوق منعرجات الحارة التحتانية. توقفت سيارة بيجو طحينية اللون، على مقربة من مكان الفرحة، نزل منها رجلان وامرأة واحدة.

تراكض بدر الجعفي وأولاده لاستقبالهم بعد أن خصصت لهم طاولة في الصدر، مقابل طاولة غيلان الجعفي، الذي شعر بحيرة وارتباك وهو يتأملهم، انفتحت دمامل الماضي المليئة بالصديد، والممارسات الهمجية، والفجائع المهلوسة، جزمة رشيد مبارك مازالت انطباعاتها النفسية في رقبته وفي سويداء روحه، قضبان الرمان تئز في نفسه، وتأكل جسده، مراهقته المشنوقة فوق جذع السنديانة العتيقة، أحلامه المجهضة في يباب غويران، كل هذه الكوابيس قفزت من خرائبها الدبقة، أخرجته من دوامة الماضي إلى حيز الواقع الملموس، شوبشات دبدوب القرباطي، وهو يمسك عشرات الليرات ويصرخ: (شوباش لرشيد بك مبارك، شوباش ليوسف مبارك شوباش لست النسوان خضراء مبارك شوباش لآل مبارك جميعاً) اصطخبت بحيرة الأعماق، التي كانت غافية، ارتجف قلب غيلان الجعفي، حتى كاد ينخسف، حينما رن في أذنه سماع اسمها، تلاقت نظراته بعيني خضراء مبارك، وافتر ثغرها عن ابتسامة ساحرة، سافر بعيداً إلى ينبوع الصنوبر يوم لثم هذا الثغر العذب المورد، ومرر بشفتيه فوق هذين الخدين الأسيلين، واحتضن هذا الخصر الخيزراني، وشنفّ أذنيها بنايه الرعوي، وأحس بامتلاكه للعالم، ضمن لحظات شديدة الالتماع وغاب بعدها في صقيع ظلامي لا حدود له. انسحقت أحلامه، تردَّى في السجون والزنزانات والمنافي، حدث التصدع العميق في ذاته، والخوف من الخوف. حاول أن يستعيد بريق رابعة الشريف وخلواته معها تحت ظلال الخابور، وانصهاره في جسدها المتفتح تحت أنشودة المطر الربيعي، وروح البوادي الشاسعة، تدفعه إلى أحتضان المفاتن البكر لا مرأة محبة، استسلمت لإيقاع الأنشودة في مطاوي برازخها المستجيبة، لأوتار العزف الفطري، غير أن هذا البريق بدا خافتاً حيال لمعان الشفةالمعسولة لدى خضراء مبارك ورنواتها الخضر المليئة بالوعود، المنثالة من مقلتيها، والسمرة الغجرية ذات الغواية المتفردة، كلها أججت حنيناً مجنوناً إلى الاحتراق من جديد فوق مجمرة حب

خائب، إذ استيقظت كُوىً كانت مغلقة، وانفتحت أشداق زمن غريب، تصالبت فيه غزارة الحب الأول مع ضراوة الفجائع والنكوص إلى هوات التصدع، كان كلما تشرَّبها بعينيه، ازداد هذا التصالب عنفاً، حاول أن يتهرب من نظراتها الثاقبة لضلوعه، شعر أن برقاً يلتمع في عينيها، ويرجُ أعماقه، وأن حريقاً يحاصره في غاب مقفر، أتربة الزمن وانطباعات الذكريات عليها، انصبت في مخيلته كأصداء، تتبعث من رميم الماضي، عفونة السجون، هينمات ظلال الخابور، ولائم جسد رابعة الشريف زوجته، ونعومته، امتداد السهوب وموحياتها، استغناؤه بالتجارب، كل هذه الانطباعات نسفتها بروق عينيها المرجيتين، واستبان قاع نفسه، كأنَّ فاجعة حبه لها حدثت البارحة. لاحظت الأم وطفا غول تلك النظرات، وخشيت على ابنها من تأثيراتها الساحرة، فهمست في أذنه قائلة:

– ولك ابني كفانا، والله، ماعانينا من عائلة مبارك، خايفة يصير فيك ماصار يوم زواج هالساحرة، شايفي وجهك عما ينطحن وينعصر، والماضي التعيس عما يتزاول أمام عينيك مثل الغولة المتقمصة بصورة صبية فاتنة، برضاي عليك، قوم نبعد من هوني، ونقعد بمكان لا يشوفونا، ولا نشوفهم، ونقضي هالسهرة، والله يمضيها على خير، باين عليك ماشفيت –ياحسرتي– عليك من هالمرض المخفي...

شدَّت الأم ابنها إلى حضنها، خيفة أن يغرق في رنوات موج سندسي، أمسكت بيده، وسحبته إلى طاولة تحت شجرة الجوز المعراة، بعيداً عن شخوص آل مبارك وأجبرت زوجها وابنتها سحاب أن يلحقاها إلى المرفأ الأمين، التقطت خضراء مبارك مغزى هذا التصرف، واعتبرته شيئاً يمسَّ بحضورها، فانحنت على ابن عمها، وبثته بعض الكلمات، فأخرج من محفظته كمشة من الليرات، وتقدم بخطوات متثاقلة، يتيه بشبابه، ويتباهى بأصله، نحو الطبال النَوَرَي، ودفع إليه الكمشة، ارتفعت الشوبشات تشق حجب الليل شوباش لرشيد مبارك، شوباش لخضراء مبارك لست الكل، شوباش لآل مبارك جميعاً ورددت تلك السفوح والجبال، أصداء طلقات من مسدس دولاب كان يحمله يوسف مبارك، وازدادت رجات الطبل شدة، وفاحت دنان الخمر، وألفيات العرق، ولعبت السكرة بالرؤوس، وأزيلت الكلفة بين الجميع، ودبت الحماسة في العروق. وانحطم جدار الحشمة الذي كانت تقيمه الأعراف والتقاليد الاجتماعية وانضم الوافدون إلى المراسح، كما هي العادة في طقوس الميلادية، يرقصون في شبق وجنون، بعد أن طيرت ألفيات العرق، وجرار الخمر المخزونة، وإيقاعات الطبول والغناء المسكون بنجوى الحب والتوجع، من الكبت والخجل، وتفجرت الشهوات والخيالات المكبوتة تحت ستار

التابو والمحرمات، وانهدمت صروح الطبقية وتساوى الجميع، أمام هذا الانصهار الطقسي المقدس، اندفع رشيد مبارك إلى مقدمة المرسح، أمسك المنديل الأحمر، ولوّح به، وكمش يد ثناء بنت بدر الجعفي ذات الخصر الأهيف المشهورة بجمالها ونعومة بشرتها واقتادها إلى المقدمة، وتبعه صهره يوسف مبارك واقتاد سحاب ابنة عمها إلى حلبة الرقص التي انشالت إليها خضراء مبارك وأومأت إلى غيلان الجعفي أن يمسك بيدها في المرسح، وتهادى الحفل في دوامات الرقص، وتمايلت خصور الصبايا مع إيقاعات المزامير ورجات الطبول، وفروقات لياليا وعلى دلعونا وأم الزلف. أحس غيلان الجعفي بمعانقة كفه ليد خضراء مبارك أن بروقاً شديدة الحلاوة والارتعاش، تسري في جسده، وأن ملامسته أثناء اهتزاز الرقص لاستدارة عجيزتها النافرة، وملاصقته لوجهها، وغوصه من قرب في مروج عينيها، وقد تندّت بحمى النشوة، هذه المشخصات الشفيفة كانت فوق مايتصور، وأن الأحلام المزهرة التي بلورها في مخيلته عن طيفها، عبر تلك السنين، غدت تلامس الواقع، أدرك أن مراقصته ليست جنية لا يمكن أن تلمس بل أن عرقها وطعم إبطيها، وزفراتها المتصاعدة، ورائحة أشيائها الناشزة التي كانت حواسه تتشربَّها، أرست في نفسه، وثقبت تلك الرؤى الأسطورية التي كان يسكبها عليها وتبلورها المخيلة بجسد نوراني، وأنه لو غاص مرة واحدة بعريها، وتملى تضاريسها الجسدية، لانفنت تلك الكريستالية المضيئة التي يضفيها عليها، وانهتك العري المهين للنوع الآخر، وأوصافه المكرورة، استنتجت الأم وطفا بغريزتها، أن شفاء ابنها من وله حبه الذي كاد يدمره، يكمن في تفحصه جسد خضراء عن قرب، وملامسته أعضاءها وتحسسه نهديها، وردفيها النافرين، وتشممه عرقها الزنخ، لهذا اندرجت في المرسح، تمسك بيسراها يد ابنتها سحاب وبيمناها يد خضراء وتترك المجال لابنها أن يتحسس مفاتن مولهته، وتدفعها عمداً صوبه أثناء ترنحات الراقصين الذين كانوا يظهرون حول النار الملتهبة، بظلالهم الطولانية المشبوحة، كأنهم أسراب الجنيات في الغابات المهجورة التي تتحدث عنها الحكايا الشعبية. كان كلما دار المرسح دورة واحدة شعر غيلان الجعفي أن طوقاً من حبل السحر، راح ينحل وأن جرحاً قديماً في قلبه، ومخيلته، غدت هوتاه الفاغرتان تقتربان من بعضهما، وأن غبطة مريض، انتابه صحو الشفاء من مرضه العضال الخفي، انسابت في كيانه، وأن ساحرته كانت تسترخص مفاتنها له، إما نتيجة أن اختلاط الخمور والويسكي، غيَّب وعيها، أو أن غايتها كانت إثارة حبه لها، وتهييج ما أطفأته الأيام في أعماقه، كانت نار الحطوبات تخفت، وتعم الغبشة المراسح، ويتسلل بيديه إلى أشيائها، ويمرر بشفتيه فوق ضاحي وجهها، ويشتم رائحتها الخاصة، ليقابل ذلك

مع انسياباته الشعورية يوم لقائه بها عند ينبوع الصنوبر. عصفت به أحاسيس مغايرة، إن الأشياء التي نتوله بها، واللقاءات المتفردة بمن نحب، تفقد توهجها، حينما نراها مبذولة لنا، فروعة الاختلاء بالمرأة أول مرة، وتقبيله لها، لا تتبع من مفاتن جسدها، بل إن الحرمان من لقائها، وانسداد المنافذ في الوصول إليها، وإحباطات النفس وراء تخوم المحال في احتضانها، وانطباعات الأمكنة ورومانسيتها، كما حدث في لقائه الوحيد معها، كل هذه التراكيب التي بلورتها الخيالات عن خضراء مبارك تتساقط اليوم، نقاباً إثر نقاب، مع ملامسته لجسدها، وانتقامه من سحر هذا الجسد الذي كاد يودي به في مرحلة من حياته إلى مهاوي الجنون، كانت إمارات الانتصار تمسحه بهالة من الشموخ، والتتويج بإكليل من الغار، بعدما تفحص عن قرب تلك المفاتن التي كانت تهلوسه، مسد بيديه على ماكان مستعصياً لمسه والدنو منه حتى في المنام، أدرك أن تلك الفقاعات الملونة التي طفت فوق بحيرة أيامه صارت تتبعج رويداً رويداً، لمَّا لا مسها بإصبعه، وثقبها بملامسته الحسية لها، كان يكرع من قنينة العرق التي في جيبه، وتغرقه غبطة طيرانية، يشعر في انسيابها بأنه استحال فراشة شديدة الرشاقة، تسبح فوق مروج الربيع في منحنيات الشعرا، وأن جسمه الكثيف يفقد وزنه، وأن نفق الزمن المظلم، يتكشف عن آماد رحبة الاتساع، وأن مامرَّ من الماضي لا يعادل إشراقة من تلك اللحظات.. أمواه العالم المغرقة في العذوبة، والصفاء، تنصب في شرايينه، فزَّاعات الدروب التي أرعبته تختبئ في أوجارها، ضحكات الصوت الخفي من ورائه، تهرب، الصدوع السرية، تملكه إحساس بكر بالقوة، وأنه قادر على أن يقتلع تلك الجوزة التي كانت طاولتهم تركن تحتها. تعجب من هذا الانصهار الرحماني، وهذا الصفاء الذي يتلبَّسه وهو بالقرب من مولهته التي أشار إليها زوجها أن ترجع إلى مكانها المرموق، سحبت يدها بلا وداع، وهي تجرجر ذيولها. انفضَّ المرسح، بعد أن تسرب التعب إلى الراقصين، انتبذت أسرة إبراهيم الجعفي مكانها تحت الشجرة، وأسرف غيلان الجعفي في كرع الكؤوس، وانسحب بمشاعره خارج الحفل لتمثل ذلك المخاض الغريب، والنوبات الشعورية الجديدة، ولاذ بصمت مغتبط كمن امتلك جسد امرأة، كان منيعاً عليه. لم تطق طبيعة كانون القاسية امتداد تلك الفرحة في الجانب الإنساني، فاحتدمت عناصره، وانقلبت هدآته، هبت الريح الغربية من الشاطئ البحري وحملت روح المطر بين سحائبها الكثيفة، وغلفت السماء الزرقاء القديمة بستارين، ستار الليل الذي انقضى أكثر من نصفه، وستار حبائل المطر التي راحت تغزلها الريح، وتسفُّها في الأودية وفوق حنايا السفوح الجبلية. خبت النار التي كانت مشتعلة، وفضت مراسم الدبكة، وتلاشت

الفرحة المسكرة، وعاد الناس إلى قراهم وبيوتهم، يتخبطون في مفاوز الليل الكانوني كأن شيئاً لم يحدث من قبل. عاد غيلان الجعفي إلى بيته مع أسرته، وقد امتلأ بمشاعر رحبة، وأن الصدوع التي مزقته طويلاً، خفتت حدتها، وأن بركان الحنين المهووس إلى جسد امرأة ساحرة قد فقد بريقه اللامع. وقفت أمه عند حدود المقبرة، وهمست في أذنه قائلة: (وحق هالولي لو فليت جسدها تحت ضوء الشمس وعريتها من ورقة التوت وغمدت قرنك بين طياتها، وشميت رائحة الزنخ للنوع الواحد المكرور، ماصار فيك هالفصل المجنون، الزواج يا ابني مقبرة الحب، والتوهم أكبر من الواقع، والغريزة قاتلها الله مابترحم).. شد على يد أمه في حنو وامتنان، وأغنية المطر تصدى في كهوف الليل، وأردف قائلاً:

– أحس –ياأمي– بأن الدملة التي كانت ممتلئة بالقيح القديم، قد انفقأ بعضها وأن الصدوع التي كانت شاقولية بلون الهاوية السحيقة، قد خفَّ انحدارها. ولكن لا أدري ماذا يخبئه المستقبل من تغييرات في قشرتي الروحية، وما ترسمه زلازل الزمن الآتي من تبدلات وحرائق، ومحاصرات في غابة الحياة، واجترار انطباعات مأساوية ترسبت في خرائب نفسي الشديدة التحول، والتبدل....

❐❐❐

الفصل السابع عشر

الرسو على سفح قاسيون

تبدى مسار الأيام، عن خروج فجر الشريف من سجن المزة وقواويشها المعتمة وغدرت به رجله اليسرى وانفصلت عن إرادته من هول الضرب على الرأس.

انطرح في زاوية من حارة كيكية، يلسع نفسه بعقرب الخيبة، بعد أن انطوى حلم الوحدة، وانحسر المدُّ إلى كهوف دويلات الطوائف والإقليمية، وسرت روح الخريف في أواخر أيلول القاتم، وتعانقت كآبة الطبيعة مع حزن الإنسان. وعلى الشرفة الصغيرة المطلّة على الغوطة، وبساتينها المتشحة بالصفرة والذبول كان فجر الشريف يتلمس في مأساوية لوحات الغروب التي ترسمها يد الخريف فوق الآفاق، وينهش أعماقه غول غريب مقذوف من خرائب الميثولوجيا العتقية، ويرشُ في عينيه نزيف دموع خرساء تسمرت في الجفنين، وكان غيلان الجعفي وزوجته يحملقان بهذه المرتسمات التي تنزُّ منها المأساة، وينتابهما شعور بالصلب الهمجي والأسف على صرح وحدة، أَزْرَتْ بها عدة مصحفات، وقوى ضئيلة، كأنه أكوام من القش والهشاشة. لم تطق رابعة الشريف ذلك الصمت المطبق، وتلك الانتحارات الشعورية، وهتفت قائلة:

– يحملني هذا الغروب المريض إلى نفق التاريخ، يوم سقطت غرناطة الأندلسية، وتفتت شمل العرب، واندحروا إلى ماوراء جبل طارق، ومن بقي منهم، ابتلعته محاكم التفتيش، وغيبّه أنين المجازر التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، لماذا سُوسُ التفرقة ينخر في جذورنا، ويمزقنا دويلات متصارعة؟؟ أتساءل هل هناك خلل في عقلنا الجمعي، واستلاب خفي في شخصيتنا؟ يدفعنا إلى أن نلجأ إلى الأغراب، نتحصُّن بها ضد أبناء جلدتنا، وحتى هذا الزمن لم نصل إلى أية وحدة فيما بيننا. تلاشت كل نداءات الوحدويين في القفر التاريخي، كأنها أصداء ميتة.. أشعر بأن هناك رَصَدَاً فتاكاً يحول بيننا وبين الوصول إلى أية وحدة...

تفرست في ملامح أخيها المقهور، طفرت دمعتان من عينيها، ارتعشت ارتعاشة عصفور علق جناحاه على خِلْفٍ من الدبق، واكتسحها الغروبان معاً، غروب الشمس الآفلة، وغروب الوحدة بين القطرين. تزيت فوق ملامح فجر الشريف، ارتسامات من يعتصر بين شقي رحى صوّانية، نقل نظراته بين وجه أخته المنزوف حسرة، وبين رجله اليسرى المعطلة، وهمس في توجع:

– سر أزمتنا كامن في تضخم فرديتنا، وتلوين هذه الفردية بشعارات الفرادة والتأله، والوحدانية، في خفايانا نزوع جاهلي إلى تقديس الفردية، والانضواء تحت معالم السطوة، ولثم مواطن أقدام الأقوياء، حتى تسللت إلى روحنا الجماعية، أمثال بغيضة عامية (اللي بيتزوج أمي أسميه عمي. واليد اللي مافيك عليها بوسها وادع لها بالكسر).منذ ألف سنة، والأغراب يسيطرون علينا، ويتحكمون بنا، ويفترسون قيم الصحراء القديمة، التي ضجت بنا في مرحلة بعيدة، ونزوعاً إلى الحرية والمروءة والذود عن حياض الكرامة، حتى ابتلينا بحكم السلاطين الأتراك الصفر الذين دمروا حضارتنا ودنسوا تراثنا، ورمونا نفايات في متاهات التاريخ.

ملأ غليونه المعهود من الدخان المعطر، راح يُكَبِّسُه بملقط خاص مسطح في رأسه وأشعله بثقاب، وسحب منه سحبات متواصلة، تعالى منه الدخان النارنجي، نفث نفثات في فراغ مقيت، أخرج غيلان الجعفي لفافة من التبغ الجبلي الذي يحمل في طياته الشقر المفرومة بدقة، روح عين الغار، وحواكير المقبرة، وأشعلها بقداحته في التياع بائن، انتشر عبق خاص. سافر بعينيه وراء تلك الدوائر الدخانية، فارتطم بشباك عنكبوت في زاوية الشرفة، وانقذفت صور المأساة العربية إلى مخيلته، عبر التاريخ، وشباك الأغراب تتساقط فوق الرؤوس لتقتنص كل بوارق أحلام الوحدة، وجمع الشتات،وتأوه كالملسوع:

– متى.. يا إلهي نخرج من نفق التاريخ؟ ونثقب الشباك التي تحاصرنا، وتحيلنا أقزاماً واعداداً صماء، أمام الصيرورة وآفاق الكتل الكبرى...

طن جرس الباب طنيناً راجفاً، تزايل شخص خلف ثقوبه، ركضت رابعة الشريف صوب العين الساحرة، دقَّ قلبها دقات متسارعة، تراءى لها شخص لم تعرفه من قبل سألت في تلهف:

– من الطارق..

– أنا عمران البلوي...

تراجعت إلى الشرفة، همست في أذن أخيها باسم الطارق، أومأ بالإيجاب أزالت المصاريع، توجهت بالطارق إلى الشرفة، احتضن الرفيقان أحدهما الآخر

اغرورقت عيون بالدموع، انتشرت رحمانية لدنة في الأعماق، تبرعمت غيمة وادعة فوق وجه فجر الشريف، مدّ جسور التعارف بين الحاضرين، استعاد رنة صوته، وسأل:

– ما الأخبار الأخيرة يا عمران؟

– غشيتنا في البداية ظلمة حزن مقهور، ولكن الوحدويين امتصوا الصدمة، اعتبروا أن المناخ أصبح أكثر مناسبة للتحرك ورتق الهوة التي حدثت، وذلك بمنظور مدروس وأشد واقعية، وبشروط أبعد عن العفوية، الحقيقة أن الانفصال كان في قلب الوحدة، وإلا لما أوبعِدَ الوحدويون، وأقصوا عن مواقعهم، وقُذِفوا إلى غياهب السجون والمعتقلات وحرقت أجسادهم، وما رجلك المُعَطَّلة إلا شاهد صدق على ما أقوله...

رنا فجر الشريف إلى غبشة المساء، التي يغزلها الطقس الشمسي الغارب، ويبث فيها غسقه المهيب، ويلقيه مشخصات راجفة فوق الغوطة وجبال حرمون، وحكَّ مؤخرة رأسه كما هي عادته عندما يوغل في التأمل، ونشر كلماته الملونة بالانفعالات:

– لاشيء أرعبني، واعتصرني على رحى "باطوس" حجري، وخريزته الصوانية الصلدة، إلا عدم إتاحة الفرصة لي بأن أدافع عن دولة الوحدة، كنا جميعاً غائبين عن حمايتها.المخاض بولادتها كان عسيراً جداً، قضينا زهوة أعمارنا في خلق المناخات المناسبة لإقامتها، ضحينا بتنظيمنا من أجلها، تحدينا في كل عري المعوقات والأعاصير التي كانت تعصف ضدها في هذا العالم، وابتلعتنا السجون والمنافي قرباناً على مذبحها، عذرية الوحدة في لدونتها الأولى واندفاعات الجماهير العفوية، صوب تكوينها، أكبر الصروح التي أقامها العرب في هذا العصر، يصعب أن نعيد تلك العذرية في المشاعر إلى سابق عهدها الأول، والمرء لا يقطع النهر مرتين.

أطبق بأسنانه على شفتيه حتى كاد يدميهما، وخيمت سكينة متوجسة، وانسحب غسق حزين فوق أكتاف قاسيون، وارتسمت جدائل هندية فوق التلال المتعرجة، نفض الرماد المنطفئ في غليونه وأملأه من كيس الدخان، وأشعله بقداحته المفضضة القديمة العهد ومجَّ مجسات طويلة، والتقط بعينيه سرب طيور مهاجرة،وسافر في فراغ اللانهاية وقال:

– هذا قدرنا، سنظل نحمل صخرة رسالتنا إلى الأعالي، وتتدحرج كصخرة سيزيف إلى الوهاد الإقليمية، لن نيأس لأنه لا يأس مع الحياة والثوري الأصيل

حركة دائمة، يحفر بمعاناته، بصمات التطور فوق أقسى التقاليد والأعراف المتقوقعة، يقبض الجمر ويطفئه براحته، يصير محجر عينيه منفضة لسجائر الأوغاد، ولا يقهر. يخونه جسده بالشلل في بعض أعضائه ولا ينهزم، تقول الحكمة: السمك لا يفسد إلا من رأسه،

قفزت في مخيلة غيلان الجعفي تداعيات من جب الزمن: سقراط وهو في ذروة الصحو، يشرب كأس السم، ويرفض الهرب. الحسين يقدم إلى الشهادة برضاه وهو مدرك نهايته، ويزرع رأسه الكريمة في تربة الشهادة، لتولد أجنة وحياة أجمل قيماً وإنسانية، وسميه غيلان الدمشقي، يُقطع إرباً إرباً، ولا يبيع قناعته وإيمانه في سوق النخاسين والسهروردي، وبرونو، وغيفارا وآلاف الضحايا من المتميزين يصفعون الموت بمواقفهم لتتناسل الحياة الإنسانية الأكثر إشراقاً وسطوعاً وتقدماً. حملقت امرأته رابعة الشريف بعينيه، اقتنصت نجوماً تلمع مبحرة في الآماد التاريخية، ومركباً شبحياً يسبح في تألقات الدموع، وينسحق بين جفنيه المقرحين بالفجائع. أمسكته من يده بعصبية راعشة، قادته إلى الغرفة الداخلية، وهمست في أذنه:

– رأيت النواقيس المفجعة، تقرع في عينيك، حملتني إلى البراري، صلبتني على مفارقات غريبة، مرَّ مركبك الشبح الذي حدثتني عن رؤاه طويلاً، بلجج تخيلاتي، تكونت تلباثية مريعة بيني وبينك، أدخلتني إلى نفق التاريخ، ومأساة المتمردين المتفردين بقيمهم ومواقفهم، لم تكتفِ بالدخول إلى جسدي، ولكنك تدخلني إلى تداعياتك القاسية، أخاف أن تمحي شخصيتي فيك، وأصبح أصداء في قفارك.

خرجت إلى الشرفة، تسفح دموعها، تشدُّ شعرها، تنزف صورها في مسمع أخيها، وقد اعترى الاندهاش غيلان الجعفي، وتعجب من جنون تصرفها. ربت فجر الشريف على كتف أخته، نهنه من دموعها، أوغل في زرقة سماء لازوردية، سقطت في بؤبؤ عينيه المتأملتين، ومضات من المستقبل البعيد، تألقت في روحه شفافية الآتي، بدت كلماته كأنها آتية من ضباب الغيب وحدوسه، نفخ في يديه، وغمغم:

– ستأتي خرائب أزمنة، تتفارق أنفسكم عن بعضها، ويتلاشى التخاطر الشفيف، وتحل الكثافة الصفيقة، ويدب السأم، وترفع أفاعي الشكوك ألسنتها السامة، وتبتلع حنو الحب ورحمانيته، وتخيم ليالي بلا نجوم على أيامكم، يعصف بكل اغتراب أسود،وقتئذ تذكروني...

انزلق وحل رخو، في كيان غيلان الجعفي، أصابه دوار بلون الهُوى الفاغرة، شعر بأن قدميه تتخبطان في الوحل الرمادي، تحت سماء خاوية من النجوم، وأن زوجته تطارده وقد حلت شعرها، ومزقت سترتها، فاعتراه ماكان قد اعتراه يوم زواج خضراء، من هبات مهووسة، وأحس بحاجة إلى التنزه في المكان، ليتخلص من هذا الانحصار الخانق، استوعب فجر الشريف، مرتسمات هذا الانحصار فوق وجهه، وقال:

– اسرح في المكان، وتقرَّ أزقة هذه المدينة، واذهب مع عمران البلوي فهو خبير بعريها، وتضاريس أحيائها....

نهض الأثنان، انصبا في الأزقة، وافترقا عند ساحة أكرادجوا، وغاص غيلان وحيداً بلا هدف، كان كلما أوغل بعيداً في قلب المدينة، تسلقه شعور، بأن هذا الانحصار النفسي، تمتصه الضجة الخارجية، ورائحة الصخب البشري، وتخفف من غلوائه غبشة المساء الشاعرية، التي اندلقت سحائبها الراحلة صوب جبل الشيخ الذي يشخص ظله البعيد فوق خارطة المساء، ككائن أسطوري عملاق ينفخ من رأسه دخاناً مدمى، وغمائم مسافرة إلى جبال لبنان وأرزه الأبدي الأخضرار.

❐❐❐

وصلة تاريخية:

صراع على السلطة، مسح مسار الستينات، تقلبات حادة كمساقط جرف شاقولي، زحفت إلى إنسان ذلك الزمن، أسف مقهور على صرح دولة الوحدة، اعتمل في وجدان الجماهير العربية، واستحال حركة دائبة لإعادتها، صار الانفصال خشبة عائمة وسط موج من الغضب والسخط، تتلاعب بها التيارات العاصفة، اغتنم الحزب الثوري تلك المرحلة المترنحة لملم شتاته، أعاد تنظيم قواه، برز حرق المراحل في المخيلات، استعاد لدونة نضاله مع القوى الوحدوية الأخرى، تسارعت الأحداث في دوّامة نهر الحياة الصاخب، انتشت البذور التي انغرست في تربة الجماهير، تقوقع الانفصال في سراديب ضيقة، محاولاً لجم تلك التيارات الوحدوية، ولكن عبثاً، غدت الصيرورة تحفر في أقصى صخور القطرية، متغيرات، والانفتاح على آفاق أكثر رحابة واتساعاً، ومع معزوفة الربيع، وتباشيره، أثمرت نضالات الثوار، وتفتحت الأجنة التي غرسها المناضلون، وسكبوا دماءهم وتضحياتهم في أرومتها التي أينعت، وأمسك الحزب الثوري دفة السفينة وسط أعتى الأمواج والتكلسات الاجتماعية المتحجرة. وكان العراك ضارياً والمعوقات التي أفرزتها عصور الانحدار والظلامية التاريخية، عاتية وعنيفة. وشهدت تلك المرحلة، مآثر نضالية، ومواقف شامخة، قلَّ نظيرها في تاريخ الثورات، ووفق معطيات قوانين الجدل تسرب الصراع على السلطة، إلى بنية الحزب التنظيمية، والنظرية، وانشطر إلى أجنحة بين يمين ووسط ويسار، وطغت الهزيمة الحزيرانية، على جميع الأحداث وانصعق الوجدان القومي من هول تأثيراتها، وترسبت في العمق مشاعر الاحباط والغربة والنفي، وقفزت الاتهامات من أوجار الخيبة، محاولة إيجاد التسويغ والتحليل لما فجع به العرب من ارتكاس إلى الخلف، والردة إلى خرائب عقد النقص المعتمة، حتى نفذت هذه الأحاسيس الهمجية والإحباط الرمادي إلى المرهفين قومياً. ووقعت الهزيمة، كالصاعقة في صميم فجر الشريف، وانسحق جسده أمام تلك الفواجع التي أصابت الإنسان العربي، ولم يقدر أن يحتمل برجله المعطلة، وأعصابه المنهكة الانهدامات غير المتوقعة، فآثر الرحيل عن هذا العالم، ومات مسكوناً بالأسى والخيبة، ودفن في مقبرة ثاوية في جبل قاسيون.

وانتقل غيلان الجعفي مع زوجته إلى المدينة الساحلية، واشترى حديقة صغيرة على مقربة من البحر، بنى فيها قبواً، واستلم مهمة نضالية. كان صلباً في مواقفه كصخور جبال الشعرا التي أنبتته، لم يشم بروق الأحداث ووجهاتها، ولم يستوعب مقولة التاريخ، إن الثورات كالقطط تأكل أبناءها، وأن الصيرورة في قوانين الجدلية، تمسح الناس والأشياء، وإن من طبيعة المسارات السياسية، المرونة، واتخاذ المواقف المناسبة لحركة التاريخ، فتصدى في كل عري، للمتغيرات الجديدة، وراح يجذف بمركبه الممزق الشراع عكس التيار، فانطرح في عتمة السجون مع عمران البلوي، وهرب صهره نبيل السواحلي إلى شمال أفريقيا، ليقضي أيامه في التعليم، متنقلاً بين مدنها وواحاتها. واستقر الدكتور الأخضر العربي في باريس، ينفخ في الرماد، ويتعكز على ماضيه، ويترصد الأحداث. وهبط غيلان الجعفي إلى الزنزانات المقيتة، بعد أن وقع في أحبولة لا فكاك منها في الواقع المنظور، تاركاً عين الغار وأطلال ذكريات محفورة في شعاب الشعرا وهسهسات ينبوع الصنوبر، والأنساق الشاعرية، ووالده الشيخ الذي أخنى عليه الزمن، وأمه المفجوعة بغيابه، ومخلفاً وراءه زوجته رابعة الشريف وحيدة على شط الأيام في ذلك القبو مع ابنه ناصر تنوشها الغربة والحاجة، وتحوم حولها الذئاب لتغتصب طهارتها، وتحرك أحلام العودة، مصلوبة في الخواء، والقفر، لا يلتمع في مسالكها أي شعاع يخبرها متى يرجع زوجها إليها ومتى ينقشع الليل السحيق في ظلمته، بعد أن فقدت أخاها وزوجها ومرفأها وأضحت قشة عائمة تتلاعب بها أمواج الحياة وتسفها الأقدار إلى مصير مجهول، وهوات صفر فاغرة الأشداق والمفاوز.

□□□

الفصل الثامن عشر

الخروج من السجن

تقيأته عتمات السجون، بعد عشر سنوات ونيف من القهر المريض والعزلة الكابية، ومما لا يحصى من مراقبة الأيام، وعدها من كوى ضيقة، تكسَّر على قضبانها الصدئة لهاث الزمن المكرور، الشروق الفاجع، والمغيب الداكن، والليل ذو الاستطالات الأخطبوطية، تقشر كل شيء في كيان غيلان الجعفي شعاراته العريضة التي اعتصرت خضرة شبابه الأول، انكفأت إلى دهاليز الإحباط في القفر النفسي، ثقته بالعالم الخارجي، تسربت إليها الهشاشة، مثل برعم غض لفحه زمهرير شتاء قاس. وأحلامه المنمنمة بوهج نيسان، ارتدت إلى مغاور الحسرة والفجيعة. لم يصدق أنه أفلت من الشرك العنكبوتي الذي هوى فيه. وتلاقى خروجه من السجن مع نفثات أيلول في شجيرات الميشة البحرية ذات السمات الأستوائية، بضخامتها، وتدلى جذورها. الأوراق أرغن بحري منزوف، يصدى بطعم الأشياء الراحلة. البحر الذي ركع في محراب أمواجه التي كانت تحتضن فروع الأشجار الضخمة، وتغتسل الصخور بزبدها، خُنق نداؤه بعيداً بحاجز من الاسمنت والحديد، وتكلست زرقته تحت ركام الحجارة الكبيرة المقتلعة من سفوح الجبال الصخرية، أحس بالاغتراب المضني، ينفذ إلى مسام جلده كله، وإلى زوايا نفسه التي تترشح منها عفونة الزنزانات الرطبة والرتابة الخانقة، كل شيء تغير في غيابه، خلال تلك الدورة الزمنية المديدة، كالأبد القطبي. حيث حشر بين أربعة جدران عاتمة، مدة عشر سنين، لأنه لم يتكيف مع اللعبة، الغروب الذي أحبه منذ مراهقته الكئيبة، كان ينشر وشاحه المتوهج فوق زجاج البنايات الجديدة التي طلعت بعد غيابه، ويهيج فيه الحنين القديم، أمسك بصرة ثيابه، التي أبلاها تقادم الزمن وعفونة الزنزانات، ووضعها بجانبه على المقعد الخشبي، تحت ظل الشجرة الاستوائية، وراح يراقب حركة الحياة التي افتقدها في الجانب الإنساني، مراهقات بلون الأحلام، هيف الخصور، تتدلق مناقير حمامات برية بين صدورهن المشرئبة، وتتموج أردافهن في غواية ساحرة، يقشرن البذور، ويرمين قشورها فوق

البلاط الحائل. شباب تتأكلهم نوازعهم، وينتفض أوار رغباتهم اللاهبة، وهم يسمرون أنظارهم بين طيات تلك المرتسمات الشفيفة التي تتألق بين الردفين والنهدين، وتضفي عليها المخيلة تبلورات كريستالية مسكونة بلهب التنانير المثيرة للدفء الراعش، وفوق المرجات الصغيرة انطرح لفيف من المسنين والمتقاعدين الذين نشرتهم أنواء العمر كنفايات مرمية في زوايا النسيان والإهمال. حاول أن يتعرف على أحد من هذه الوجوه الماثلة أمامه، ولكن عبثاً بلا جدوى، كان يرتطم بجدار الزمن ورتابة الساعات الرملية. غار عميقاً في حزنه، لأن زهوة عمره، أضاعها في الخواء والوهم. التهمه عاصف من الغضب والتعاسة لما آل إليه وضعه المزري، شعر بالصوت الخفي يقهقه خلفه، هذا الصوت المريب، قفز من غابات لا شعوره، وظهر كشبح خرافي في عتمة السجن الكهفي يوم كان وحيداً في زنزانته المنفردة، يلملم كل أوراق ماضيه، يُقطع بها الزمن، ويتسلى بنشرها حتى لا يصاب بالجنون المطبق، قبل أن يخرج إلى السجن الجماعي، وقتئذ وفي تلك الفراغات المرهفة كحد خنجر مسنون، أحس بأن تصدعاً غريباً كلون الهاوية حدث في قيعان نفسه، وغدت صور وسواسية تنز في الأبعاد المجهولة، تموجه بألف ناب من الخواطر المليئة بحطام الحنين، والحب الخائب، والإحباطات المرتكسة في القفر النفسي، وغدر الآخرين ونهشهم لماضيه النضالي، ونقائه. وانتابه خوف من الخوف، وهمس في داخله، مشيراً إلى الصوت الخفي (اغرب عني قليلاً، أيها المسكون في طيات ذاكرتي، أيها الشبح المحاصر أكاد أهلك سأماً منك. ليتني أقدر أن أمحوك من هوات الأعماق وأنظف كواي من قهقهاتك، أنت سر جنوني، والشرك الذي أوقعني به الأوغاد، أرحني منك، سأعود إلى واحتي البيتية، لعلي استرد بعض ذاتي الواثقة بالغد الإنساني، مهما كانت الظروف)، تلفت يميناً وشمالاً خيفة أن يكون أحد الناس يلاحظ حواره في باطنه، غاب الصوت الخفي من ورائه، كعفريت قمقم في ألف ليلة وليلة. ونهض مسرع اللخطا صوب قبوه القديم الثاوي تحت البناية التي كانت مؤلفة من طابقين، يوم أودع السجن. واجتاحته الدهشة، لما وقف أمام البناية الجديدة التي ارتفعت إلى سبعة طوابق، فاعتراه غثيان مريع، وغضب مقهور، بأنه كان خارج الحياة، وأحس بيدين بربريتين تشدان على خناقه، وبأن قلبه مطرقة صدئة، ترن في الضباب الكثيف. كانت رجلاه النازلتان إلى القبو وحديقته نصف المسورة، كأنهما نبتتا سلبين تلهث فيهما ريح الشمال الباردة، براكين لايعلم مداها، من الانفعالات والمشاعر، وعصفت به، حين تلامح زوجته رابعة الشريف جالسة، على الأريكة الأثرية التي اشتراها في ماضي أيامه، ترفأ ثوباً طفلياً تفتق من وسطه، وفي الزاويتين المتقابلتين بين طرف

الحديقة وداخل الشرفة المقبية، كانت طفلة في الثامنة ، تلهو بدحرجة كرة صفراء متوسطة الحجم، تقذفها برجلها إلى فتى في الثانية عشرة من عمره، الذي يتلقفها، ويعيدها إليها. بحيرة الذاكرة ارتجت من قيعانها، حطام الأحلام والرؤى، ونفثات الحنين التي سبح فيها غيلان الجعفي وكررها، وعاش على أطلالها في سجنه الكهفي، ارتطمت على غيرما كان يتصور بصحراء الجفاف، واللامبالاة. كأن النأي الغريب، وآلاف الممارسات المريضة، وليالي الترصد المديدة، والحاجات اليومية التي يفرزها الجسد، والكبت الجنسي، والمأكل والملبس، وطفلين مرميين في مخالب العوز كلها برزت مهاوي ومتاهات شديدة اليباس، امتصت حرارة اللقيا. كل الدموع التي احتبسها غيلان الجعفي في سجنه، وتأبَّى على سكبها في الزنزانات المظلمة، انفتحت دمامل مآقيها في صورة مأساوية قلَّ نظيرها، أدهشت رابعة الشريف الزوجة التي عرفته في ماضيه النضالي، الشجرة الصلبة ذات الأرومة التي تتكسر على صلابتها محن الزمن، حملقت بعينيها إلى ملامح زوجها، لتقابل همجية المؤثرات التي انطبعت فوق سيمائه، الشعر الأسود ذو الخصلات المنسابة، والذي كان مركز غواية، تتشهى البنات أن يمررن بأصابعهن بين تموجاته، كما كانت تتشهاه على ضفاف الخابور، قد تساقط خريفاً راحلاً في عتمة الأقبية، ولم يبق منه إلا صلعة، وأطلال شعيرات جانبية، تنعكس عليها أضواء النيون الحليبية، والعينان اللتان كانتا تلتمعان بالشاعرية، ودروب الأحلام الواعدة باعتصار الحب من خوابيه الجنسية، استحالتا ذبالة حباحب تمضي في الدجنة، وتلوحان بشباب غارب، والوجه الذي كان ينضح بالرجولة والتعبير، تحول تجاويف عظمية، تترشح منها، عفونة الأيام المكرورة، ورائحة الترصد اليائس، واعتصارات الطاحونة الوثنية وراء القضبان الصدئة، والقامة الرمحية، تشوهت بعض فقراتها تحت السياط والجلد، فانحنت حدبة بائنة التشويه، سحقته نظرات زوجته المليئة بالشفقة، فأطرق إلى البلاط الحائل، كأنه اقترف ذنباً كبيراً لا غفران له، وأراد أن يخرج من هذه الدوامة، فسافر بعينيه إلى الحديقة التي غرسها بأصانيف الورود والشجيرات، وحاول أن ينقل بها ريف الجبال، وهينمات الظلال الجبلية، إلى أرضية القبو ومسكنه المدني، غير أن مارآه كان فاجعة له. فالورود اختفت بغالبيتها والشجيرات كادت تتقرض، إلا مابسق وارتفع من أشجار السرو.

ران صمت بلون المقابر البعيدة، وتوخى أن يبدد من وحشية هذا الصمت، فأمسك بيد ابنه ناصر الذي تركه ابن عامين الذي عزت رحم أمه أن تلده بسبب ضيق تلك الرحم، وأمراض العقم المتنوعة، جثا الأب العائد على ركبتيه، وراح يتمسح به، ويشتمه في حنو الناقة على فصيلها، حاول الفتى أن يتملص من هذا

الغريب عنه، تدخلت الزوجة لتفتت ضراوة تلك المأساة التي تردى بها الأب السجين وانعكاسها على العلاقة الأسروية، وقالت:

– هذا أبوك يا ناصر وقد غادرنا منذ عشر سنين في السجن المقيت..

– لا أتذكره يا أمي إلا مثل الضباب، ماذا فعل حتى حبسوه كل تلك المدة.

ارتسم في أعماق غيلان الجعفي غول من الحزن الأخرس، ونظر إلى عروق التينة البنفسجية التي غرسها قبل سحبه إلى السجن الكهفي بعامين، وكان ميعاد غرسها متوافقاً مع عام ميلاد ناصر ابنه. وتحشرجت غصات في حلقه، وأجاب:

– حتى الآن ياابني، لا أدري لماذا سجنت، ولم أستجوب حتى أدرك الأسباب القانونية الموجبة لحبسي طوال هذا الزمن المديد.

أمسكت رابعة الشريف بخصلات من شعرها وراحت تشدها في عنف، وتعتصر دمامل ذاكرتها، المليئة بالممارسات الهمجية التي أسقطها الآخرون على حياتها، وتفجرت أنات طويلة مشحونة بالقهر، والاستلاب النفسي، وجأرت قائلة:

– لأنك تجذف دوماً ضد التيار، ولا تحسن اتخاذ القالب الذي يطلب منك، إنك لم تتعلم كيف تتكيف مع الظروف لو لم تكن عنيداً، "تنحاً" لما أصابتنا هذه الفواجع كلها. تصور لو لم أتقاضَ راتباً، ماذا كان حدث؟ أوذينا بغيابك، وموورست علينا أصناف ضارية من المنغصات، حتى ابنك ناصر البكر لحقه اسمك كوصمة عار، نال الشهادة الابتدائية، وانغلقت أمامه السبل، وتعقد نفسياً ولم يقدر أن يتابع دراسته، رغم أني بذلت كل جهودي، واضطر إلى أن يعمل في مرآب، لتصليح السيارات...

أحس غيلان الجعفي بأنه مرمي في اليباب، كجيفة نتنة، تأكل من لحمها النسور، تحت سماء حاقدة، وأن ماحاق بأسرته فوق ماكان يتصور. وأن مراجل الحقد التي صبها الآخرون هي فوق ماتوهمه، وأراد أن يغير من دوران هذه الأحاسيس المفجعة، فأمسك بالطفلة عفاف التي ولدت بعد دخوله السجن ومرر أصابعه في طيات شعرها الأحمر. اعتراه خوف من أن يكون الأوغاد، امتلكوا زوجته في غيابه، واستغلوا ضلعها القاصر وظروفها الصعبة، فقذفوا بطعمهم المسموم بين فخذيها، وراح يحملق في الطفلة. الشعر الأحمر، العينان الزرقاوان، البشرة الفاقعة البياض، السمات البعيدة عن مرتسم الأبوين، كلها تنبئ عن خيانة حدثت، وهو بعيد في غياهب السجن. سأل في لهفة:

– كم عمرك يابنتي؟

– ثماني سنوات، كما قالت والدتي...

استدركت الأم في سرعة بائنة، وارتجفت شفتاها قائلة:

– بل تسع سنين ونيف ياعفاف...

حاول غيلان الجعفي أن يتجاوز هذا الشرك الزمني الذي نصب له. انتابه غثيان أصفر، تداعت الأحداث إلى ذاكرته، وتذكر أن مقامه في السجن كان عشر سنين، وشهرين متكاملين، استقرت نظراته بين فجوات جسد زوجته، وتوقف عند التضاريس، فعصف به إحساس بأن أغراباً مطموسي الملامح، تأرجحوا بين تجاويف الجزيرة، وتملوا عريها وسدوها. لم يدرك ماذا يفعل؟ رأى زهرة عبيتران ذاوية، قطفها، غدا يتمسح برائحتها المتبقية، تلامح وريقات خريفية ميتة هابطة في أرضية الحديقة، راح يذروها في مهب ريح المساء، ويتنصت إلى خشخشتها المسكونة بطعم الزوال والعدم. خشيت امرأته من تصرفاته غير المفهومة، وزعقت كحيوان ملسوع:

– أخاف أن تكون عتمات الحبوس الطويلة، قد التهمت توازنك والليالي المكرورة كمذاق الحنظل الصحرواي، جذبتك نحو المهاوي السحيقة وغيبت وعيك، فتكون فجيعتنا أضعافاً...

ركض صوب اللفة القماشية الممزقة الأطراف، وفك عقدها، وأخرج رزمة من الأوراق المتكدسة التي صبغتها الرطوبة وتكدس الأيام بلون رمادي قاتم، وتحولت الخطوط الرصاصية إلى خارطة حائلة، يصعب قراءتها إلا بعد تمعن وجهد، ورمى بالرزمة الورقية بين يدي زوجته وناداها قائلاً:

– اقرئي بعض صفحاتها، تخبرك بأني ازددت غوراً في التجربة الإنسانية، وغصت في أضرى المسالك الشعورية، ووقفت على جرف الهوات الفكرية ولامست رائحة الخواء، وألوان الحصار الذي انسدت فيه كل دروب العالم، وارتسمت ألف فزاعة في سجني الانفرادي، ووقفت أمام الموت وجهاً لوجه. فلم يرتجف جسدي الذي كان مثخناً بجروح السياط والجلد بأية هزة من وجل وخوف، بل هرعت إلى الموت بكل ثبات، ليحصدني بمنجله المرهف، ورغم هذه الهوات الشعورية والظلامات المتراكمة، لم أفقد توازني وقدرتي على الاستمرار والتفاؤل. غير أن اختلاطاً ريبياً بالعمر بين تسع وثمان رماني في جب الاختلال، وأفقدني حماستي على الاستمرار.

سافرت رابعة الشريف في مرتسمات وجهه، عبر التجاعيد التي تتضح بالأسى الصامت، وأفزعتها تلك التعابير النابعة من هذا الوجه الذي مرت عليه

آلاف الليالي الرتيبة، وتكرار الإحباط النفسي، وتوهج الحنين وانطفاؤه في دوامات الحسرة والقبض على الفراغ الأجوف، شعرت بشفقة قاتلة إزاء هذا الرجل الذي أضحى غريباً عنها، وندَّت عنها آهات محترقة بالخيبة:

– ملامحك الخارجية، خارطة وجهك الجديد، عيناك المترشحتان بكل أحزان العالم، شعرك المتساقط الذي حولته الغربة، والترقب المحصور، كل هذه التضاريس المتآكلة والجُرف المنزاحة عن مواقعها الأصيلة أعلمتني بما حدث لك، وساقتني إلى أنفاق نائية في الألم الإنساني. ولستُ بحاجة إلى أن أقرأ ما في حزمتك الورقية من معاناة وبراكين متفجرة من المشاعر، لقد شبعت قراءة المآسي والحروف والتجاريب المغموسة بالدم والإذلال من بعدك، فدعنا نبني حياة جديدة، بلا شكوك مريضة وعقد وهواجس سود...

هبت نسيمات بحرية، وراء الغروب الشمسي، ونفذت روح الليل إلى القبو الأرضي، وتسرب دفء بالأمان إلى نفس غيلان الجعفي، واعتراه شعور بأن العتمة الجاثمة في زوايا بيته لها طعم خاص، يختلف عن طعم آلاف الليالي الفارغة التي كانت تسقط عليه في سجنه، وانقذفت في عروقه أحاسيس مطمئنة، حينما اختلى بامرأته، ودخل المخدع الزوجي الذي غادره منذ زمن بعيد، شعر بأن العالم ليس كله قفراً، بل هناك دوماً شعاع من الأمل، يثقب دجنة اليأس، وينفذ إلى صميم العتمات النفسية، ويرسم مقولة تعبق بالضياء، إذا لم تعجبك حياتك فغيرها، وتصالح مع ذاتك، يظهر العالم أمامك أقل قبحاً، وتختفي ضخامة التشويهات التي رمتك في جب اللا جدوى والضياع.

❐❐❐

الفصل التاسع عشر

انشطار الأسرة وتمزقها

نفث أفعوان المحرمات والتابو الشرقي عن الشرف والعفة، سموم شكوكه في أرومة غيلان الجعفي. ولم يقدر أن يتكيف مع الواقع الجديد. وازدادت الفجوات اتساعاً. وتنزى وحل الخيانة في مخيلته، وتصور أن كثيرين من الأغراب نفذوا إلى عري زوجته، وضاجعوها في استجابة منها. وراح الصوت الخفي يسرح في أقصى مداه، ويقهقه من خلفه، وينهش كومات الأمان والاستقرار، ويفتتها ذرات من الارتياب بكل شيء. وأضحت فكرة الرحيل في المكان، وتقصي المدينة بأزقتها وشوارعها وحدائقها، الميل الكاسح الذي غدا يجتاحه ويريحه، ويبعده عما ينغل في قلبه من وساوس وقلق مبهم. وكان أصدقاؤه القدامى الذين عايشهم في غابرات أيامه، ومدَّ إليهم يد المعونة، وبثهم أفكاره المتمردة، يتهربون منه، ويخافون من السلام عليه، والوقوف معه، خيفة أن تقتنصهم العيون الزجاجية التي تحصى كل حركة ولهاث كلمة. كانت حديقة المنشية بشجراتها الضخمة ذات الرفات الاستوائية ملاذه في الأصائل والأصباح الخريفية. أقعى ذات يوم على مقعد في الظل، واسترسل في تأملاته، غاص في بحران الماضي، جلس الصوت الخفي وراءه، متلفعاً بالسواد، اشرأبت الطفولة الأولى من مكامنها، ولحقتها نزوات مرحلة المراهقة ومحاولة قطف نجوم المحال، وتراءت غابة الشيخ إسماعيل في الأعالي تغني بها الريح، وتنشر رائحة صوفية من الغضارة التي تتوقد ببصات النار، وحبات البخور البلورية، وقفزت غويران الوطا من أوجار المخيلة ومغاورها، وبرزت الشجرة.. التي ربط بها يوم محنته الأولى، وأزَّت قضبان الرمان فوق جلده وأكلت منه شقفة ، وامتزجت بهمهمات، والد خضراء مبارك وزعيقه المنتقم. وانزاحت أتربة الماضي، وتداعت الصور كأنها شريط سينمائي حدث البارحة، وتساقطت وريقات من الشجرة الضخمة، التي تبدو شروشها الحلزونية كأنها ما موث ما قبل التاريخ، واستفاق على أقدام رشيقة تدوم صمت الميشية في ذلك الصباح الخريفي، وتلامح امرأة كهلة تمسك بيدها اليمنى سلسلة لامعة، ربط بها كلب ذو فرو أبيض

نظيف، يبرز في شكله الدلال والعناية الفائقة. جلست على المقعد الخشبي بجوار الجذع الكبير تحت الشجرة الفارعة، كانت تضع على عينيها نظارتين سوداوين، وترتدي فستاناً هفهافاً ورسيَّ اللون يحاكي سنابل القمح في طقس الحصاد، وتغطي رأسها بشال بنفسجي، وكانت معالم جمال غارب ترف على وجهها الغجري السمرة الذي ينتهي بشفتين عنابتين ما زال اللعس القديم يكتنفهما بشهوة التقبيل. حدَّقت إليه المرأة الكهلة، وأزاحت نظارتيها عن عينيها الخضراوين اللتين ما زالتا تومضان بغسق الأيام البعيدة. اهتزت بحيرة الأعماق، تكشفت المرتسمات كلها التي كانت في غيابة القاع، زحفت غويران الوطا وغابة الشيخ إسماعيل إلى قحف رأسه بشكل فاجعي، وغمغم ينبوع الصنوبر، وأصدت بحار الناي القصبي، وتجمع الماضي في بؤرة مكثفة، ولاحظ أن شفتيها ترتجفان، وعينيها تغيمان في دموع مسمرة، والزمان تكدس في رعشها، والمكان أنفنى في حضور مدهش. انفلتت السلسلة من يديها، أعتقت كلبها من قبضتها، ليسرح في مرجة الحديقة وبين المقاعد الخاوية، نهضت في ولهٍ بائن، لم يكن يخطر ببالٍ غيلان الجعفي، وتلاقت الأصابع في سلام دافئ، وهزَّت يده في حميمية غير مرتقبة، وغادر مقعده، وجلسا معاً، كلٌ على طرف المقعد الخشبي، تحت ظل الشجرة الاستوائية، التي غرست منذ أكثر من نصف قرن، غدا يتقراها عن كثب، يفلي تضاريس وجهها، يقابل بينها وبين خضراء الماضي، التي غادرها منذ زمن ترامى إليه سحيقاً كالهوي المصلته، ليتملى ما يتركه الزمن فوق ملامحنا وأوعيتنا الجسدية وتراكيبنا النفسية، ويجهض فينا ما نسجنا من خيوط الأحلام الفضية، وما حكناه من الأماني المتوهجة التي أطفأتها رياح الحياة وتصاريف الدهر، وأكداس المعاناة. وأوغلت عيناها في خريطة وجهه المنزوف؛ هالها الرعب الكوني المترشح منه، وانحطام الوعاء الجسدي الذي كان يتباهى به؛ الشعر الأسود المسترسل على جبهته استحال صلعة ربداء، لم يثبت عليها إلا بقايا من شعيرات، كأنها وريقات تين في أواخر الخريف، العينان الصحراويان الشديدتا الحوّر، صارتا بصيص حباحب في عتمة كابية، والجسد المراهق الذي كان ينزو قابلية للعشق، واحتضان العالم، ويضج نايه بنغمات المحبة والامتداد، عصفت به شيخوخة مبكرة. جالت بعينيها الخضراوين في الآفاق، والتقطت البحر الذي تراجع عن شاطئه، وتحجرت ومضة خضراء مسكونة بالحزن، وندَّت عنها حسرة وقالت:

– إنك تغيرت كثيراً يا غيلان، استحلت رسماً آخر، ما كنت أتصور أن الزمن يضع بصماته على وجوهنا بهذا الشكل المخيف، حتى نكاد لا نعرف بعضنا.

واختارت ضمير الجمع حتى لا تفرده وحده بهذا التغيير الضاري، وتمدَّ النصل أكثر عمقاً. شعر بعطف شديد على نفسه التي استطاعت أن تتحمل كل هذه الفظاعات والممارسات السادية التي مارسها الآخرون عليه. نشر من حوصلته المقيحة بالقهر والقمع عبارات متوجعة:

– أتسمعين بأيوب النبي المنشور في الحكايا الدينية العتيقة كرمز للمحن والصبر والبلوات.

أحنت رأسها بالإيجاب قائلة:

– حكاية بلواه ومحنته، تشربتها ذاكرتي منذ كنت يافعة، ولقنني إياها عمي الشيخ محمود مبارك مرات عدة من كتبه الصفر، وما زلت أذكرها بتفاصيلها.

تنهد غيلان الجعفي تنهيدة طويلة، مذبوحة بالمعاناة التي لا تحد؛ وهتف:

– أنا أيوب هذا العصر، لكنني لست بنبي، تقشر جلدي تحت جلد السياط، حدثت صدوع متغورة في بنياني النفسي، تصوري أني مكثت عاماً كاملاً وحدي في زنزانة منفردة. الليل أبدي العتمة، والرطوبة والصقيع الشتائي، والعزلة، كوابيس همجية قلما يتحمل قهقهاتها الذئبية النوع البشري، إلا ويصيبه المس. كنت أمضي الليالي والنهارات التي لا أميزها، في استعادة ما احتوته ذاكرتي من أشياء وتركيبه من جديد بملايين الصور، اعتصر من الجدران السميكة، والكوى الضيقة، والضجة الخارجية لصوت الإنسان في الزنزانات الأخرى، قابلية للتحمل، والاعتقاد بأني لم أفقد كل عقلي، ووعيي بأني موجود من خلال تداعياتي.

اجتاحت رحمة إنسانية، عروق خضراء مبارك، شعرت بأن يد بدائي من عصور ما قبل التاريخ، تعتصر قلبها، وتمتد إلى خناقها، وأن جسدها يستحيل ريشة في مهب ريح سوداء. أرادت أن تخرج من داومتها ومن نفق الأحاسيس، فأخرجت سيجارة من علبة مارلبورو أنيقة، ودستها في فمها، وأشعلتها في حركة عصبية بائنة، وأخرجت أخرى وناولتها إلى غيلان الجعفي الذي اقترب منها ليشعل سيجارته، حتى أوشك أن يلامس خديها، راحا يمجان الأبخرة في صمت الرنوات، ويتبادلان النظرات المحمومة. تغلغلت مشاعر هائئة إلى شرايين غيلان الجعفي أحس بأنه يتصالح مع العالم لحظات وامضة، ويستحم في ضحى ربيعي بأفواه ينبوع الصنوبر، ويعرج على مروج فاقعة الحمرة من شقائق النعمان تلتمع شفقاً مدمى، وخضراء مبارك تقطف باقات من هذه المروج الممتدة، وتتمسح بشفتيها اللاعستين فوق تلك الوريقات الناعمة، وتمررها على خدها الأسيل، أوغل في مؤقي عينيها من جديد، تأمل مدى الغواية التي بهما؛ ليلتقط جزيرة وسط خضم

الحياة المضطرب القلق، حاولتْ أن تسكب رنواتها الحانية فوق روحه المعطوبة، لعله يسترد شيئاً من إيمانه بالآخرين. كانت تحاول بتماديها معه أن تنتشله من دوامة الطاحونة الوثنية التي عركته على دولابها أزمنة لاهثة بالعزلة والتصدع والارتطام باللاجدوى، قشة طافية لا وزن لها، أحلام يقظة مرتدة إلى المهاوي السحيقة، فسألته تساؤل العارف:

– أتسكن القبو الأرضي في العمارة ذات الطبقات السبع، الراكنة هناك وراء المندوبية؟

وأشارت إلى البناية التي تتراقص فوق شرفاتها المطلة، شعاعات الشمس، ويلتمع خط الزرقة الذي يزنرها، ويظهر من أفاريزها الأنيقة. أجابها بصوت مرتعش:

– إنه قبوي الأرضي الذي اشتريته مع حديقته، أيام العز قبل دخولي السجن، ولم يكن قد اشيد فوقه إلا طابقان غير مُليسين، وبعد عودتي، فوجئت بهذه الطوابق السبعة التي طمَّت بعلوها قبوي، ونفذ صخبها الدائم إلى كياني. لقد تعودت على الانفراد والعزلة المتوحشة– يا سيدتي.

افتر ثغرها عن ابتسامة حزينة، وقالت:

– إن شجراتك الكازورينا، التي ألاحظها تنمو كل عام، وتمتد رؤوسها حتى تلامس شرفات طابقي الثالث، وتلقي بترنحات ظلالها في الظهيرات وأشباحها في الليالي المقمرة، فأشعر بروحك تنساب في الخفاء وتلامسني.

– هل تعلمين أني زرعتها منذ اثني عشر عاماً، وأتيت بفسائلها من مزرعة خاصة. وكانت آنئذ رغبة تتآكلني، لأنقل الغابة الجبلية إلى هنا، وكان هذا محالاً، فاكتفيت بغرس تلك الفسائل والورود التي ذوى أكثرها، وبقيت شجرات الكازورينا رمزاً لحضوري الدائم بعد غيابي، بين الجدران السميكة طوال هذه المدة.

أوغلت بنظراتها في الصفحة البحرية البعيدة، التقطت مرتسمات زوارق صيد عند حد الأفق، غرغرت عيناها بدموع مسمرة، ولهجت قائلة:

– أعلم كل شيء عنك، المراكز التي تسنمتها في الحزب الثوري، والوظائف التي تنقلت إليها، وأيام عزك الغارب، وامرأتك المدّرسة الشامية الأصل، وترديك في عتمة السجون، أنا اخترت السكنى بجوارك منذ سبع سنين، وأترصدُ عائلتك من الأعلى. زوجتك التي تنهض باكراً، وترتب البيت، وتذهب إلى مدرستها، وابنك البكر الذي يعود آخر النهار متسخ الأثواب، يظهر أنه يعمل ميكانيكياً وينغمس في الزيوت والشحوم. إنني أحصي أيام سجنك المديدة، وأتفحص الوجوه الغريبة

التي تدخل قبوك وتخرج بعد منتصف الليل. وبخاصة وجه شاب أحمر الشعر ذي عينين شديدتي الزرقة، كنت أصادفه أحياناً على عتبة البناية، وأشعر بمقت له لا أدري سببه.

انتفضت كل غربان الشك من دهاليزها مع كلمة الوجوه الغريبة تدخل قبوي أثناء غيابي. وامرأتي وحدها، تنهشها العزلة، وترعى بين فخذيها شهوة عارمة، وتتكوى على جمرها الغريزي. سمع قهقهات الصوت الخفي، ترن في دماغه، فتقوقع مثل حلزون في دائرة صدفته وهمس في داخله (الأوغاد انتهزوا فرصة غيبتي في العتمة، حاصروا زوجتي بهداياهم ومعسول كلماتهم، عرفوا نقطة الضعف، نفذوا بلهيب غرائزهم إلى صدوعها، تملوا عريها المشبوب، اعتاد جسدها المحاصر على هذه الأنماط، صارت دمية بين أيديهم. ومن سقط مرة في مستنقع الخيانة تعود تكرار هذا السقوط). تعالى صوته الداخلي حتى تناهى إلى آذان خضراء مبارك التي أدركت من العبارة الأخيرة عاصف هذا العراك الذي يصطرع في أعماقه، وأرادت أن تخفف من شكوكه وحيرته القاتلة.

– أرجوك. لا تلق بنفسك إلى الجحيم، ولا تشوه ثقتك بزوجتك، حاول أن تحلل ظروفها، وتتسامح معها في قسرية تلك الظروف، وقديماً هتف السيد المسيح أمام رجم مريم المجدلية (من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر). تسمر الجميع أمام خطاياهم. والتفت إليها مكملاً انهضي يا ماري، لقد غفر الرب لك لأنك أحببت كثيراً، إذا احتجت إلى مساعدة، فزوجي يوسف مبارك وأنت تعرفه، قد أصبح يمسك زمام المسؤولية، ويمنح التقويمات السياسية وبواسطته تدار الأمور.

نادت كلبها فوكس، أمسكت بسلسلته الفضية بيدها اليسرى، وصافحت يد غيلان الجعفي في رحمانية. راح ظلها يغيب وراء شجرات الحديقة، ووقع خطوات حذائها الجلدي، يرن فوق الحجارة المرصوفة، وكلبها ذو الشعر الطويل يهتز فوق الحشائش، وأردافها الإجاصية ترسم دوائر غواية وترف زائد. اكتسحت غيلان الجعفي خيبة ممزوجة بالقهر، تداعت إليه حكمة قديمة (أغنياؤكم وذوو الشأن منكم في الجاهلية هم أغنياؤكم وأولياء أمركم في الإسلام، ولا بديل لذلك). وأحس في تمزق بأنه في منافي الربذة مع أبي ذر الغفاري تأكله الغربة وتحوش جسده رياح صفر ذات مذاق رملي. تدفقت دموعه في صمت، أخرج سكينه الحادة من جيبه. غدا يحفر فوق المعقد الخشبي في هيجان مأساوي (الطاحونة الوثنية خرائب الأزمنة) ويكرر قراءتها مرات كثيرة وفي كل مرة يبرز حرفاً كان مطموساً. ولما انتهى من طقسه التراجيدي المشحون بالأسى والأسف على نضاله الطويل الذي

قطف ثماره الأغراب ووجدوا أوان الحصاد، فاستحصدوا ما زرعه بدمه، وشقائه. رجع إلى قبوه، يجرجر أقدامه وأطلال عمره. وقد صمم أن ينهي هذه المهزلة، ويعود إلى قريته عين الغار يبني حياة جديدة، يتوازن فيها مع الطبيعة والجبال، ونهر السبع، ونجيمات المساء، وقبة الشيخ نجم الريحان. التي لم يغمرها التلوث، ويحتضن أمه/ وطفا/ التي تنتظره هناك على مطلات الشيخوخة وشعابها، ويهجر العالم البشري الذي مدَّ خناجره إليه، وأخلف بوعده له، وعركه بسجونه الطويلة.

***

انسلت أفاعي الشكوك، إلى البنيان النفسي لغيلان الجعفي، وغدت تنبش بأنيابها السود كل ومضة من الثقة بامرأته، وقبعت غولة مترصدة، وراء كل حركة تثيرها رابعة الشريف. المرايا التي تنظر فيها لتتملى وجهها، وترش عطوراً أنثوية فوقه، صارت تثقبه من الداخل، بارتعاشات مريبة، وتساؤلات محاصرة. وقلم الكحل الذي تجيله في أنيس عينيها وأهدابها، ليرسم آفاقاً من الغواية التي كانت تحلو له في ماضيات الأيام، أمسى خنجراً يحزُّ في لحمه، ويثير أعصابه حتى الجنون. وانحسار الفستان عن فخذيها السمراوين، اللتين كانتا تسحرانه فيما مضى، تحول ضحكة صفراء، تتقذف خلفه، وتتداعى خواطر محزنة، تنزلق في شرايينه حوارات داخلية هامسة: "كم على برزخ هاتين الفخذين تأرجح أناس ، أثناء غيابي، وعروا ينبوعها البدئي، وأنا مطروح في الزنزانات المقيتة وترسبات العتمة، أمثال ذلك الوغد ذي الشعر الأحمر والعينين الزرقاوين). خرج من حواره الداخلي، ضرب على رأسه ضربات مجنونة، هرب إلى غرفة النوم، تمرغ بوجهه في اللحاف، راح يجهش ببكاء صامت، ويرتفع صدره بزفرات لاهبة، وانقلب على ظهره، وأغرق نظراته في الحوار الحائل. طالعته خيوط عنكبوت في الزاوية، وفي الشق الرطب، تلامح عنكبوتاً تدور فوق الزاوية، ترسم خيوطاً واهية لتجد صيدها. تصور أن الآخرين عناكب يزحفون إليه، والعالم شرك من الفخاخ المنصوبة في غابات الأحياء، لاصطياد ما يمتلكه، وأنه يستحيل مسخا، ويتقمص رتيلاء تزحف فوق أطلال مدينة مهجورة، في صحراء لامتناهية الأطراف. سافر بعينيه المتعبتين إلى صورة مسمرة فوق الحائط، صورة زوجته في بواكير شهر العسل، يده اليمنى تحتضن الخصر الأنيق، ووجهه المغرق بالسعادة، يتشرب ملامحها، ويطوف حول شفتيها الممتلئتين بشهوة الاعتصار، وانبثاق غريب بلون الشوق كان يسطع في الصورة، يضفي عليها غواية مستحبة. كم غرق في جمالية هذه الصورة الممزوجة بزمن الخابور، وهينمات الضفاف، ووقف أمام عريها الجميل، يوم كانت رابعة الشريف تسكن مخيلته طيفاً عذباً، يقيه غوائل ما أبقته مأساة حبه الأول. بيد أن

إبحاره في هذه الصورة غدا يفتق حسرات لا قرار لها، ويخلق دوامات من خيبة، وفزاعات دروب مظلمة. نظر الصورة كالملسوع. غار في داخله، مترنحاً كالقشة اليابسة في مهب ريح شرقية. وحاور نفسه في تمزق: (لماذا أنت أيتها الصورة تحملين إليَّ اليوم، مذاق الأشباح المفزعة، وكشكشة الأفاعي الملساء في شجيرات الديس البري، وتبثين في مخيلتي تصورات فحمية، عن السقوط الإنساني، وتنشرين أمامي رذاذاً موحلاً يتنزى في عروقي طريقاً محاصراً حيال المستقبل، آه- آه! كم كنتِ- أيتها الصورة - عزيزة على قلبي!؟ كم كان يسكنك الوجد الخضير، والحب المولِه، وترف في ثنايا جسد صاحبتك، الأحلام المترفة، والمواعيد الخضر باقتناص الجسد الفائر، ووليمة نوافير فجواته البضة السرية، وملامسة رواسبه وسفوحه الناعمة. كيف استحالت عينا صاحبتك الغويين، وأشياؤها، الساحرة، إلى خواء صقيعي، تعشش فيه كوابيس الشك؟ وكيف تحولت رمزاً لشقائي. ووسيلة لتعذيبي). لطم رأسه بالجدار لطمات قاسية، انفجر دم دافق من بعض جوانبه. نهض كمن تلبَّسه شخص ممسوس، خلع الصورة من موضعها، راح يحطمها في انتقام دفين، ويسكب دمه المفجوع فوق مرتسماتها، ليغيب كل ملامحها. سمعت رابعة الشريف أصداء ذلك الحطام، أذهلتها المأساة، شعرت بأن ليل الشكوك ابتلع كل المعالم، وكنَّس بعتمته كل ضوء للمعاشرة ومتابعة الحياة. انحنت في إشفاق مهلوس على جروحه الدامية ورأسه الذي كان يقطر دماً، وأحضرت شاشاً أبيض، وضمدت تلك الجروح، ورمت بالصورة المهشمة في زوايا الغرفة حتى لا تصب الزيت على الحريق، وانبرت تمرر بأصابعها خلف رقبته كما كانت تفعل في الماضي يوم كان يثور ويتفجر غضبا. أنهضته من كتفه، أو سدته في السرير القديم الذي شهد شهر الزواج الأول، وصرَّبر فَّاسه تحت إيقاعات جسديهما الفائرين اللذين كان قيثارهما يرسل أجمل أنغام الرضى، وإغماضة اللذة. حملقت بعينيه المشحونتين بكل الألم الإنساني، وقالت في تحسر:

- يبدو أنك لم تتصالح مع نفسك، وتتكيف مع واقع جديد. خيالاتك السود تدور في رأسك، بأني اقترفت جريمة لا تغتفر أثناء سجنك، ولنفرض جدلاً، أن ظروفاً خارجة عن قدرتي على الاحتمال، حاصرتني، وأسقطت من طهارتي أليس هناك كفَّارة بألا تخنق كل بريق للعيش معاً، وتجعل ظلمة راسبة تأكل كل توهجات عزيزة علينا، ماضينا ليس ملكك وحدك حتى تشوهه. إننا غزلنا خيوطه معاً في زمن عصيب، منذ تعارفنا في قرية العثمانية. وكان أخي الذي قضى نحبه، بمثابة الجسر الذي أوصلني إليك، وتحدى كل الأعراف. وتعرف إلى أي مدى كان يؤثرك - غرغرت عيناها بالدموع، غطتهما براحتيها حتى لا تظهر كلَّ وهنها

وانسحاقها أمامه. خيمت سكينة قبرية. طفا تصميم صخري على إنهاء مأساة غيلان وتسلقته إرادة مصممة على التغيير، وتجاوز واقعه الانتحاري، انحسر فستان رابعة الشريف إلى الأعلى، ولعلها فعلت هذا الانحسار، لأنها تدرك نقطة ضعفه ولم تكن ترتدي شيئاً. واستبان زغب الفجوات الطرية الذي كان يثيره. غير أن قرفاً بلون الغثيان والتقزز قفز إلى مخيلته، وتخيل الأحمر العينين الزرقاوين، يدغدغ هذه الفجوات، ويتملى حناياها في غبطة من يختلي بامرأة جديدة عليه. لم يطق صبراً، دوّامات بشكل الهوس هوّات فاغرة ورمادية تناديه ليرمي بنفسه في قاعها الصخري المدبب. خنجر بدائي يلطو في قعر ذاته، يتربص به. شيء قذر يتنزى حيوانية، يلطخ شرفه، ويعتصر امرأته، ويشغل غيابه. المخيلة راحت تضخم الأبعاد، والحركات والأنات، وصرير السرير يحمل تواقيع جسدين سقطا في الخطيئة. لم يقدر على حصر تلك الصور في قارورة، بل انفجرت كقيح أصفر في دملة خبيثة. صرخ كالمجنون. قهقهات الصوت الخفي، صارت نواقيس جنائزية ونعيب، غربان في فلوات مهجورة، اندفع إلى رقبة امرأته ليخنقها. ولكنها غادرت السرير، ووقفت في الزاوية، مذعورة. وجأر كذئب جريح:

– آن الأوان، أن ننفصل، لا حيلة لي في هذه الأشباح التي تلاحقني، سأنحر زرقة العينين المنغرزتين كنصل لئيم في أعماقي. حاولت أن أجد مسوَّغاً لتلك الشهوة التي سكنت جسدك، وأنا في غياهب السجن، غير أني ارتطمت بتكلسات مدلول الشرف الشرقي وتابو المحرمات، وفكرة أن استحيل ديوساً، ومسخاً ذليلاً. كوابيس بطعم الحنظل تتآكلني. من سوء الحظ أنك ظللت عقيمة طوال هذه السنين التي كنت تداوين عقمك، ولم تنجبي إلا في هذه الفواصل الزمنية القذرة. وابنتك لا ابنتي حصيلة تلك المأساة، وغرابية سوء الطالع. وليست المرة الأولى التي أطعن بها. طعنت في حب قديم، وغدرت بي صاحبته. طعنت في نضالي وأودى بي إلى الهلاك والتمزق، وخانني أعز الناس وتخلّوا عني، وابتلعت ظلمة السجون كل بريق تفاؤلي بالتغيير، أنت طالق ثلاثاً، ثلاثاً، ثلاثاً، فارحلي عني وخذي ابنتك معك. وآخذ ابني ناصراً معي. وسأعود إلى أمي وطفا ومرابع عين الغار. وأبيع هذا القبو، وأحاول أن أتكيف وأتوازن مع بقية البراءة في الطبيعة الحانية، وبين سفوح الجبال البعيدة.

□□□

الفصل العشرون

التمركز في عين الغار

انشطرت الأسرة بلون الأشداق الفاغرة إلى شطرين ممزقين. وعادت رابعة الشريف إلى لحف جبل قاسيون، لتمضي بقية عمرها هناك مع ابنتها، تحركها دوَّامات الذكرى. وغادر غيلان الجعفي المدينة الساحلية التي كانت شاهداً على المأساة في الجانب الإنساني. بعد أن باع قبوه وحديقته وذلك بصحبة ولده ناصر. وألقى بعصا الترحال وثقل الماضي في مرابعه القديمة في عين الغار، عند أمه وطفا التي تخبو شمعة عمرها نحو المغيب. ووضع كل ما جمعه من أساس بيته وفرشه في سيارة بيكآب. بعد أن منح زوجته كل أدوات الكهرباء والأشياء الثمينة. وأزمع على أن يتقشف، ويبعد إفرازات المدينة عن حياته، ويعيد صياغة ذاته، ويحاول أن يرتق تلك الصدوع العميقة التي أحدثتها صروف الزمن في كيانه، وينظم بوَّابات لا شعوره، ويغلق سراديب تلك الهواجس الخفية التي تتسرب بشكل كوابيس مخيفة، تدفعه أحياناً بلا إرادة إلى أقرب هوة سحيقة ليرمى بجسده فيها. تتلاعب بمصيره أحاسيس انتحارية، لا يدري كيفية انقذافها كحمم نارية تسري في دماغه. كانت لهفته إلى مرابع عين الغار تطفو كرغوة صابون ساطعة، فوق تلك الأحاسيس الداكنة، فتغسل من عفونتها، وتخفض من حدتها الانتحارية. بعد أن مرت عشر سنين ونيف، لم يتمرغ بعتباتها، ويشمّ رائحة سفوحها وأحراشها، ولم يُتح له أن يحضر وفاة والده الشيخ الذي تناهى إليه نعيُّه مؤخراً وهو في ظلمة السجون، راحت البيكآب تنهب الأرض، وتتراكض خلفها القرى الساحلية، والطرق الإسفلتية تلتوي أفعوانية. والبنايات الجديدة تتسلق السفوح والتلال ويلتمع قرميدها الأحمر أمام شعاعات الشمس، ويمتزج مع تمايلات الظلال الخضر في سنفونية منقولة من الأرياف الأوربية. تملكت الدهشة غيلان الجعفي وهو يلتقط مرتسمات التطور في البناء الحديث وظهور طبقة جديدة من المترفين والتجار الذين اغتنوا على حساب الشعب، حتى عرَّج على قرية عين الغار، واجتاز الجسر الكفري فطالعته الأبنية العصرية في الحارة التحتانية. آل الغشيم تمدمدوا في المكان واختفت بيوت الدش، وحلت محلها المباني القرميدية الزاهية بلونها الخمري. وغابت المزابل، لتبدو محلها حدائق مزروعة بحقول التفاح والكرز، وبرزت حارة

بيت الصوّان في أزهى جمالها، قصوراً ذات طابقين بشرفات ذات أنماط غربية، تسورها حدائق من الورود، وغابات من الأشجار المثمرة والممرات المرصوفة بالبلاط والحجارة الناصعة البياض والواجهات المرمرية التي اقتلعت إما من مقالع إيطاليا، أو مقالع البتراء الأثرية في الأردن، وامتدت عائلة بيت برقروق حتى موازاة النهر، السيلي من الجهة الغربية. وانتهزت كل من العائلات الثلاثِ الفرص السانحة لكسب المال غير المشروع، من تهريب البضائع من لبنان، والمتاجرة بالمخدرات، واستخدام المنصب والثراء العجول كآل الصوان. كانت سيارات فخمة تجثم أمام تلك البيوت وسلالم فضية اللون تلتمع مزهوة بأناقتها. والطرق الإسفلتية تلتوي كخيوط سود توصل القرى فيما بينها. وأصابه الذهول من أن غابة السنديان التي كانت تحيط الحارة التحتانية قد اقتلعتها الجرافات وانغرست مكانها مزارع الفواكه والتفاح بأنواعهما المتعددة، وكانت قصور رامز الصوان وأخوته، أكبر المباني زهواً وامتداداً، كأنها في تصميمها طائرات شديدة الضخامة، تريد أن تطير بأجنحتها الصخرية، صوب الأودية والأماكن المنخفضة، وكان رامز الصوّان قد ذاع صيته في الناحية، وارتفع في سلم الشهرة والغنى فأغدقت عليه الدنيا بالأموال والمهابة. والدنيا إذا أعطت أدهشت وإذا أخذت فتشت، وصارت الركبان تقصده، تداولُ اسمه، وقد شق الطرق الجبلية في معاصي الشعرا، وارتبطت عين الغار بغويران الوطا. وتقاربت المسافات بين القرى التي كانت مقطوعة، ومشرورة في تلك الشعاب. وأقيمت الاستراحات على مطلات مشرفة، وازدحمت ضياع الجرود بالوافدين. وخلعت نساؤهم الزي القديم واللباس الطويل وطغت موضة العري في تقصير الملابس فوق الركب. والتمعت الأفخاذ النسوية في وجه الريح والشمس، بعد أن كانت مغطاة بالاحتشام. وحملت فتيات الجرود الأزياء الأوروبية إلى نهودهن وأردافهن، وتزيين وجوههن بالمكياجات الغامقة، وتظليل أهدابهن ورموشهن، وتكحيل عيونهن وإبراز مفاتنهن وشد خصورهن بلا وازع ولا خجل، وسرت تقليعة العري الغربي إلى تلك المناطق التي كانت نائية عن الحضارة، ولكنَّ التغيير بقي على السطوح الخارجية والمظاهر القشرية دون أن يتغلغل إلى الجذور، ومكث على السطح كتقليعات طافرة في تنويع الطعام والتباهي به، وفي الألبسة التي كانت تأتي تهريباً من الخارج. وزحمت السيارات بموديلاتها العصرية كل واجهة قصر واستراحة في عين الغار ومطلات فاتنة في مناطق الجرود. ظلت ثلاث نقاط من هذه القرية، لم ينفذ إليها التغيير لا في السطح ولا في العمق إلا قليلاً؛ حارة المشائخ في أقصى الجنوب، والبيت الترابي الذي يجاور المقبرة، ومغارة سويلم الدرويش وجوارها ضامةُ، أيوب السارح الذي لم يضف عليها إلا غرفة

منحوتة بالصخر، ومطبخاً مقبباً بالتوتياء، كان الوقت عصراً. وتشرين الخريف ينفخ بنايه بين الشعاب، حين أقعى غيلان الجعفي وابنه ناصر على المصطبة الترابية، وأنزل أمتعته وفرشه وأغراض بيته، التي لملهما بعد عراك طويل مع الحياة، كان الباب مقفلاً، ورائحة بخور تتصاعد من المقبرة فهيجتْ فيه هذه الرائحة ذات الطعم الغيبي دوائر الحنين إلى مقابر الماضي، وسطعت ذكرى والده المتوفى مع رفات تلك الرائحة، وأسرع صوب المقبرة كالمهووس الذي غابت عنه الجهات، فتراءى له قبر ترابي وشجيرة ريحان نامية، تظلل القبر وغضارة حائلة مكسورة من طرفها، يتصاعد منها البخور، وامرأة كأشباح المقابر في المخيلات الشعبية، تعتمر بإزار أسود، وبثياب سود، تركع بجانب القبر، تقطف أغصان الريحانة الغضة، وتغمسها في تراب القبر، وتحرك بعود صغير جمرات الغضارة ليندلع عبق البخور في تلك الأجواء الجنائزية، كلما خفتت دوائره النارنجية. سمعت وقع خطا وراءها، حملقت بابنها القادم الذي لم يشاهدها منذ عشر سنين ونيف. اهتزت بحيرة الأعماق، ارتعشت أمواج الأيام في الداخل، ارتجفت يداها ارتجافات الظلال المشبوحة في الليالي المقمرة، صعقت من هول المفاجأة، فتحت ذراعيها الناحلتين، ارتمت في حضنه، انهمرت الدموع المحبوسة، بللت الخدين، راحت تعتصره، تشمه، تدور بأصابعها حول وجهه، تتقراه في حنو مجنون، تضمه في لهفة، تشعر بأنها تلده من جديد وتتمخض به. أنات كاوية بلون الهجران البعيد، والنأي الممتد كالليالي الكانونية، تفجَّرت من صميم الأم وطفا، ولامست تراب القبر هامسة:

– هيك يا ابني– بيموت أبوك ولا تشوفو، ولا تحضر موتو، وحق هاالقبة، شفت نجوم الضهر بغيابك، لولا أختك سحاب القريبي مني، واللي تسعفني بكل شيء لكنت هلكت من زمان. وبنتي التانية رباب هاالبعيدة، الساكنة بلاد المغرب، مع زوجها، نبيل السواحلي: بتمدني بالمال، بواسطة أيوب السارح اللي رجع من مدة، وصار عندو، شلعة أولاد، واشترى حاكورتين بلحف الجبل، ودوماً بيسألني، عنك. وأبوك، الله يرحمو– اشترى ها الحاكورة الشايفا من المساعدة، والزكاة. زوجتك وين هي ما شايفتها معك؟

سافر غيلان الجعفي بعينه في تعاريج جبال الشعرا، وارتد بطرفه إلى مرتسمات عين الغار الجديدة، تلامح شعاعات شمس الأَصيل تنعكس فوق زجاج قصر رامز الصوّان وتشتعل براكين أسطورية من اللهب، فانتابته عاصفة من البكاء والإشفاق على نفسه، شعر بأن القرميد الأحمر الذي يسقف بنايات الحارة التحتانية، ينفذ إلى دماغه شرارة حمراء، تغلي في قلبه حسرة كاوية، على أنه

ناضل من أجل رسالة، زرع أجنتها، سكب فوقها نجيعه لتنمو، وارتمى من أجلها في غياهب السجون، وتصدع بنيانه النفسي في غيابة الجب الانفرادي، وترك امرأته، وابتلعته الشكوك ببراءتها، وانتهز الآخرون شجرة الرسالة وتسلقوا عليها، وقطفوا ثمارها، واستلبوه كائناً مهشماً، مرمياً في خواء الغربة، والحصار الدائم، كنفايات عفنة لا جدوى منها. أحس بدواليب الطاحونة الوثنية، تدور به، تدوَّمه، وأن الصوت الخفي ينبق في أوجاره المعتمة، ليلسعه بسياطه المحرقة. خشي أن تلاحظ أمه شيئاً من حاله الغريبة. فكَّ ذراعيها عن رقبته، نهض كمن به مسٌّ، حملق في صفائح القبر الداكنة، وقال في غضب مفاجىء:

– عودي إلى البيت يا أمي. أدخلي أغراضي إليه هناك ابني ناصر ينتظر فوق المصطبة. سأخلو إلى نفسي قليلاً. وأنخل همومي في صمت خاص. وأصفي الحساب مع ذاتي..

انفتل يركض بين القبور، يحاول أن يبعد تلك القهقهات الضاحكة من خلفه، والصوت الخفي يلاحقه في شراسة ليمسك بتلابيبه العاقلة ويدمرها، لم يعهده من قبلُ بهذه الذئبيّة والنفوذ إلى وعيه، ليغيبّه، تمسح بجدار قبة الشيخ نجم الريحان، فتح الباب العتيق، وركع أمام الحضرة، احتضن القبر المقدس، انسكبت دموعه، في غزارة، أغمض عينيه، خشخشت نسمات في وريقات شجرة البلوط المتساقطة بين القبور. صرَّ باب القبة صريراً مهيباً، وانغلق، محدثاً صدى، زمزمت بعد ذلك سكينة عميقة. انسرب إليه إحساس أمين بأن روحاً أثيرية تحنو عليه، وأن التصدع العميق، يخفت شرخه الشاقولي، وأن الشيخ نجم الريحان يرسم دارة من الشفافية والوهج الروحي، تكنس الضبابة السوداء التي كانت مخيمة على ظلمة أعماقه. صفاء عجيب يغسل الرذاذ القاتم. وصحو متفرد يتمشى في شعاب ذاته، فيهمس في داخله: "سأغير من هذه التراجيع المفجعة التي قذفني بها واقعي المُنهَك، المرتبطُ بنسغ ماضيَّ، وممارساته المرعبة، وصدوعه البشعة، سأفتح كوىً أمام عوالم أشد نصاعةً، وقابلية للامتداد الروحي، سأجربُ بوارق فوق جسدي، وماديتي الكثيفة، لعلي أجد فيها منارات ملمعة تقيني غوائل التصدع النفسي". تسلقته أحاسيس جديدة ذات مذاق صوفي، تلمَّس حوش القبر المغطى بأثواب خضر، فسرت فيه قشعريرة آتيةٌ من أبعاد خفية، وشعر بأن القبر يستحيل قلوباً تنبض تحت أصابعه، وأن شيئاً يمسه، وناراً غير محرقة، تنتفض في عروقه، وميلاً إلى معانقة الوجود الرحب يتأكلُه، استقرت في خفاياه إغفاءة هادئة، لم يذق طعمها منذ زمن بعيد، وهبط في نوم عميق، رأى نفسه غارقاً في حلم: صحراء مترامية الأطراف، يعتصرها جفاف بلون العطش، لحوم بشرية متفسخة يخرج منها

الدود، عظام منخورة برزت فيها تجاويف اليباب، وفي واحاتها نسوةٌ عارياتٌ، يضاجعهن أناسٌ بأشكال القردة، ويلحسون بألسنتهم حلمات النهود الذابلة وفي جوانب أخرى، رجال قرقا شيّون ينضحون بالقسوة والهمجية، مدججون بالسيوف والسياط، يجرَّون كائنات بشرية، تظللهم البراءة والضراعة، ويضعونهم فوق الخوازيق المسننة كالحراب التي تخترقهم من الأسفل إلى أعلى رؤوسهم، وفي الزوايا الرملية، أقبية سجون معتمة، ذات أبواب حديدية مطلية بالسخام، تخرج منها نداءات مستغيثة واختناقات لزجة، وفي الوهاد التي أغبشت آفاقها قليلاً انطرحتْ قطعانٌ من البشر، نساءً، ورجالاً، يتداخلون مع بعضهم كما الطقوس القديمة في السفاح الجماعي. فانقبضت أعماقه في الحلم، واعتراه كابوس مرعب، وغثيان مقرف، من الكهوف البدائية، واجتاحته شفقة قاتلة على النوع البشري، وهو في طيات النوم. وأحس أن اختناقاً فاحماً، يتحشرج في نسغه ويكاد يخنقه، وهو يستجير ويطلب العون ممن يفكه من هذا الكابوس الخانق، فتلامحَ ذاته تطوي هذه الصحراء المغروزة بالقردية، ومسوخية الإنسان، وتقف على شاطىء آخر نهر مغرق بالصفاء، تترامى خلفه جناتٌ شديدة النضارةِ، وعوالم مدهشة لم يرها من قبل، وتراءى له الشيخ نجم الريحان بلحيته الثلجية، تبرق في عينيه نجمة المساء الزاهرة، ويلتمع محياه بمهابة دهرية، ويمسك بعصا بيضاء، يرتدي مسوحاً أخضر، يبث في المكامن الخفية كلمات لها مذاق تراجيع الأجراس البعيدة في الغسق الغابش: "لن تجتازَ يا ابن الجعفي هذا الجسر الأزلي، وتعرجَ على تلك الجنات التي تتشربها عيناك وراء النهر إلا إذا نظفتَ كوى حواسك، وأعَدَت صياغة ذاتك وانسجامها، وتطهرتَ مما علق بك من رواسب تلك الصحراء والتواءاتها الهائلة". استفاق على صرير الباب تفتحه أمه في لهفة، قفز إلى بوابة نفسه شعور اغترابي، كمن ينام غروب الشمس في برية ولا يستفيق إلا على همهمات الليل تصدى بها البرية الخاوية. وقفل راجعاً مع أمه، وهو يحتضنها في حنو عجيب، ويهمس في مسمعيها كلمات كبيرة لم تفهمها ولكن أحست بقيمتها: "ولدتُ من جديد في نومي يا أمي، اكتشفتُ عوالم رائعة البهجة وراء حواسي. وأنا في حضرة الشيخ نجم الريحان، سأجربُ الوصول إليها، لعلها تمنحني المصالحة مع نفسي وتقلباتها المريعة.

***

صمم غيلان الجعفي على التعامل مع الحياة بمنظار جديد، بدأه بالحوار مع الأرض، وشرع بتعزيل الحاكورة التي اشتراها والده أثناء غيابه، واقتلع الصخور المبثوثة في تربتها، وأمسك بفأسه في همة بائنة، ينتزع الحصا الصغيرة، يكومها

في الوسط، ويأتي ابنه ناصر ويلمها في قفة مطاطية، ويرميها خلف السياج الخشبي الذي أقاماه معاً من الأغصان التي قصفتها الريح في الشتاء المنصرم. تناهى الخبر إلى أيوب السارح فجاءه عند شروق الشمس، وهو يتعكز على عصاه المعقوفة في أعلاها، تلحقه ابنته الصغيرة عفراء وهي تتمسك به في غنج. قرقَع عصاه فوق صخرة السياج، لينبِئه بقدومه، أصدى الماضي بتراجيعه، قفزت الصور القديمة من مدافنها، شبَّت حرائق الذكريات في غابة الماضي، راحت تحاصره، تلسعه بألف لون، وتخبزه في العراء، تسمر في أرضه، رمى بالفأس من يده. فتح أحضانه بكل اتساعها، ليضم رفيقه إلى صدره، انسكبت دموع متآخية من آفاق عينيهما، وبللت خديهما المعروكين. صاح أيوب السارح في لوعة قاتلة كمن يمزق لحمه:

– الطاحونة الوثنية، ضرَّستنا هذه المرة، بأنيابها، طحنتنا تحت دواليبها أنشبت كل سطوة كلاليبها في بنيانا النفسي والجسدي. مرت قرون من الزمن النفسي، ولم التق بك، ارتميت في الصحارى الكبرى لاعتصر منها الأمن واللقمة، تنقلتُ مع الطوارق، ارتحلت في المكان، ضمتني مملكة أوباري التائهة في السراب. سكنت مرحلة في "سبها" وعملت متعهداً، وتعايشت مع صهرك نبيل السواحلي في أقاليم المغرب العربي، بعد أن هرب، وحكم عليه بخمسة عشر عاماً، وهناك في المدينة الأثيرية /صبراته/ قد استقر معلماً، وصار له أربعة أولاد، واستساغ مرارة الغربة والارتحال في شعاب المكان، بعد أن نبذه الوطن، أما أنت فوقعت في غيابة السجون، ودفعت الضريبة غالية بلامقابل.

اعتراه سعال جاف، اهتزت أصابعه، بصق في الأرض، أحنى رأسه في كآبة، استبان شعره الأبيض. تفرس غيلان الجعفي في ملامح وجه أليفه، خد معصور كهفي السمات، شارب أشيب بكامله، شفتان ذابلتان، فم حزين يغطي أسنانه الصفراء، جبهة مثلومة شققتها محاريث الزمن، ظهر هزيل أخنى عليه مرور الأيام، فترك فوقه حدبة شائخة كان كلما تقرى ملمحاً من ملامحه، قفزت صورة من مسار العمر ورجع السنين إلى خاطره، أراد أن يفتت من عاصف الأحاسيس المقهورة التي ألمت به، فالتقط بعينيه وهج أشعة الشمس فوق قصر رامز الصوَّان وتألق القرميد الأحمر فوق المباني الحديثة في الحارة التحتانية، وغدا يقابل في مخيلته القصور الشامخة الماثلة الآن مع بيوت الدش الترابية التي صارت من مقابر الماضي، ويقارن الأسمال البالية التي كانت ترتديها بنات الحارة التحتانية مع الفساتين الباريسية ذات الألوان الصارخة والموديلات الحديثة التي تلتمع فوق "الفير ندات" المرمرية، وتضم أجساداً نسوية، وتبرز التماعات بضة

وإفراطاً متكلفاً في إظهار المفاتن. أخرج من حوصلته المقيحة وانبهاره الشديد بما حصل من طفرات، كلمات ممزوجة بالغرابة والتساؤل المضني:

– سبحان مغير الأحوال! كيف صارت الدنيا في عين الغار غير الدنيا، وتحولت أشياء كثيرة في غيابي، وأثناء سجني وقد فاتتا القطار، وأصبحنا رسوماً من الماضي. لكن يميناً لن أهزم. ما زالت إرادة الحياة منبثة في عروقي كمخالب نسر يريد أن ينقض، سأتابع الشوط ولو على بقية رماد احتراقي.

ربت أيوب السارح على كتف غيلان الجعفي، نفض الغبار الذي علق به، أشار إلى الجسر الكفري وهتف:

– إنه الحبل السري الوحيد الذي يربطنا، ويشدنا إلى التعايش المكاني، وتبادل المصالح، وأن التطلعات الثورية التي نشرناها في قرية العثمانية وعين الغار، استحالت أصداء خافتة، وتفاقمت عقد التعصب والحقد، وحلت غريزة التجمع القطيعي محل التسامح والانضمام إلى الوحدة الوطنية، ونبقت خفافيش التاريخ الأسود، وفتاوى الذبح والقتل على الهوية، من أوكارها المظلمة. وانطوى شعار: الدين لله والوطن للجميع في غياهب الكره للآخرين وتكفيرهم.

بان ذعر وأسف في ملامحه. لهث من هول الانفعال، كفنته خيبة. التقط غيلان الجعفي رهافة هذا الخنجر المترصد الذي يطعن به الجرود، والفاجعة المغولية الآتية، التي تنتظرهم، والمصير الداكن الزاحف من وراء جبال الضغينة، والعقد المتورمة، وفتاوى التكفير التي تنبث في أحشاء العتمة لتسوغ إبادتهم وتهجيرهم. وأردف في حزن:

– معنى ذلك أن جماعة الجرود العرب لم يستفيدوا من تجارب الذبح والقتل الجماعي، والتهجير إلى معاصي الجبال، والسبي العاري لنسائهم والمجاعات أو مذابح التفتيش، والحصار التاريخي، والخوازيق العثمانية. ما زالت تلك الجبال الوعرة، والمغاور المخيفة، والسناسل المقامة في تلك السفوح شاهدة على مآسيهم القريبة. أتنطقْ تلك الحواكير كم اعتصر فيها من الجهد الإنساني لتجمع كومات من التراب الصالح للزراعة. سلْ بيوت الدش كم من الأعمال الشاقة والتعب الإنساني والموت انسكبت في أساسها! إذ نقلوا سواميكها ومدودها من الرعوش الجبلية الحادة الانحدار، حملوا طينها من موشات نهر السبع، جروا حجارتها الغشيمة من سفح المجنونة وانسحقت عظام بشرية تحت أعباء ثقلها. كل شيء في هذه الشعاب ينطق بمسلسل العذاب والشقاء. ورغم كل المحن والمعاناة لم ينتزع الجرود التعساء العبر والعظات، التي تقيهم غوائل المستقبل.

شفطت سيارة مرسيدس سوداء في الحارة التحتانية أمام قصر عُقاب الجبل رامز الصوّان الناهي في الديرة وتعالت ضجة ثاقبة ونزل مرافقة له، طوال كشجيرات الحور الفتية، من سياراتهم المرافقة، وهم يحملون الرشاشات حول أكتافهم، والمسدسات حول نطاقهم، يزمجرون زمجرة وحوش الغابة، فتح اثنان منهما الباب الخلفي لسيارته. خرج عقاب الجبل رامز الصوان يتباهى كطاووس بعباءته المزركشة، وخطوطها المذهبة. كان أميل إلى القصر والضخامة، عرفه غيلان الجعفى منذ كان يافعاً، يقرأ في المدرسة التي افتتحت في عين الغار، ويمر بصهره المعلم نبيل السواحلي ويستعير منه الكتب التي لا يقدر على شرائها من شدة الفقر، ويأتي بصحبة أمه "عجوره"، ليحل له المسائل الحسابية المستعصية عليه. تسارعت لوحات الزمن الماضي في نقلاتها، توقفت اللوحة عند رامز الصوان الفتى؛ برأسه الصغير، وعينيه الواسعتين العسليتين، وأنفه الناتىء كصخرة في رعوش الشعرا، وفم أشبه بأشداق الذئاب، تتراخى فوقه شفتان زنجيتان، تتقطر منهما رغبات سادية مؤجلة. وكان أكثر ما يميزه عن التلامذة عرض منكبيه، وقدرته على التحمل. كانت "عجورة" الأم من الملزق الشرقي؛ طويلة ممتلئة ذات عينين ماكرتين، ووجه شديد السمرة، اكتوى بشمس سهول الغاب والعاصي، ووهج الأرض في آب المحرق، ترود في صفحته الكامدة شامات ثلاث كحبات العنب الأحمر. وكان أنفها البارز ذو المنخرين الواسعين، يظلل فتحتيه دغل من الشعر الفاحم. وكانت تلمظات مكبوتة، ومؤجلة لاقتناص الآخرين، تظهر فوق شفتيها السميكتين اللتين توارثهما عنها ابنها. كان جوع عام، يرقد في كيانها، جوع إلى التسلط، والابتزاز وعبادة المال، وجعل الغاية تبرر الواسطة، وقد بثت في أبنائها الذكور الثلاثة، مسار هذا السلوك: رامز راجح رامح، وبصقت في أفواه بناتها: نورا- كوثر- عندليب. فجئن صورة عنها. وكان زوجها غالب يخضع لتأثيراتها، ويعتبرها فهلوية في ممارساتها، فهي المسترجلة وصاحبة الحل والربط. ارتفعت زخات من الرصاص أمام قصر آل الصوان، ودوّمت الصمت الخريفي في ذلك الصباح، وجفلت الصور في مخيلة غيلان الجعفي، وأخرج سيجارة من علبته الممهورة بكلمة حمراء، وناولها إلى رفيقه، ودسَّ الأخرى في فمه، وانقاد الاثنان إلى المصطبة الترابية، وجلسا على كرسيين من الخشب بلي قشهما وأتت الأم "وطفا" بإبريق الزوفا المغلي، على الصينية القديمة التي أهداها إليها الشيخ محمود مبارك، تعلوها أربعة كؤوس صغيرة، ووضعتهما أمامهما وأقعت فوق إطار المصطبة، وعبقت بها نيران الذكرى، وجرى في عروقها حنين متوهج إلى براري الزمن الخالي، ومسارب غويران الوطا، وأطلَّ من قعر السنين شبح الشيخ محمود

الذي امتلأ الآن فمه بتراب الهجران، يزاحمها في الغابة المنعزلة، يوم كان الشباب يضج في شرايينها، قابلية لاحتضان الوجود، وانخطافاً نحو المغامرة والتجدد، وطفرت الدموع من عينيها، وعادت إلى واقعها الماثل، وحدقت إلى الشخوص المترامية أمامها، ونقلت نظراتها في سماء مغرقة بالصفاء، وغمغمت قائلة من وراء دموعها:

– شكراً لك، ياها السماء البعيدة– ياها الكامن وراءها. شكراً لك، يا جارنا المقدس الشيخ نجم الريحان – عاد الغريب بعدها السجن الطويل إلى بيتو، والتقى الحبايب بعد طول غياب.

ضمت حفيدها ناصرَ إلى صدرها، عانقته في وَلَه ظاهر مسَّدَ أيوب السارح شعر ابنته عفراء تلمس نضارة وجنتيها، طبع قبلات على وجهها، طفت على سيمائه حسرة موجعة وقال في حرقة:

– ياه! ياه! ما أغرب مفارقات هذه الحياة! أأنجب أولاداً قاصرين وأنا في هذه السن؟! عفراء ابنتي كان ينبغي أن تكون حفيدتي. أولادي الخمسة: سامر، سوسنة، سعاد، سمير وهذه العفراء، ما زالت أعمارهم مشرورة بين السنين السبع وما بين العشرين، يعتصرني دوماً شعور مقهور، بأن التقادير تلعب بنا، ترمينا في متاهات التحسر على ما فات. ماذا يفعل هؤلاء القصار بعد موتي.؟ لولا أني حوشت لهم كم دينار في غربتي واشتريت لهم حاكورة بجانب المغارة.

أحنى رأسه في ضراعة، انقبضت أساريره، ارتعش فكاه، تداوله سعال جاف، أبرقت عيناه في غضب، رمى ببقية السيجارة تحت جزمته، سحقها في ضراوة، كأنه يريد أن ينتقم من شيء خفي، لاحظ غيلان الجعفي الانتحارات الصغيرة التي تلم بصاحبه، وبقبقات السخط التي تغلي في مرجل نفسه، فنهض من مكانه وجلس بجانبه وربت على كتفه، ومرر كفيه فوق شعره الثلجي، وخفف من غلواء زمنه المحاصر، وناداه كمن هو في القفر:

– لاتخف مما لم يأتِ بعد. أفعمت ذاتك بالتجارب، التقطت دروب العالم بسيرك المتواصل. طويت مرايا السراب، وأخضعت معاصي الجبال حتى الأطلس ومغاور اليمن، وأكلت قدماكَ من نواتىء الصخور، وتقشر جلدك مثل الأفاعي، وما زال الطريق أمامك يحمل عدة اختيارات، غايتنا اليوم أن نمنع الانهيارات، ونردم الهوات بيننا وبين أهالي العثمانية ومناطقها، ونقرع أجراس الخطر في مسامع الجرود لما يحيق بهم من مخاطر، وبما يرسمه لهم زبانية رامز الصوان وأعوانه المتاجرين بمستقبلهم، وبقائهم الذاتي، والمستفيدين من تلك اللعبة الخطيرة

وننفخ ببوق التآخي، ونعيد ما قوضته ممارسات التجاوز والخطأ، وندعم الجسر الكفري حتى لا ينهدم التواصل فيما بيننا.

بان خجل كريه فوق ملامح أيوب السارح، سرى نبض الشباب القديم في ذلك الجسد المعصور. أشعل سيجارة، تأمل شعلة قداحته ملياً. ألصق شعرات ذقنه الشائبة في جدائل ابنته الصغيرة، اشتم غرارة الطفولة، سافر بنظراته إلى تغضنات وجه الأم واحتضانها حفيدها ناصر في رحمانية حتى لا تريد أن تفلته رغم تململه من موقفها وأردف قائلاً باستحسان:

–ما قلته بلغ حد الروعة، إنك غير قابل للفساد. آلاف الليالي كالسهوب الآسيوية، أمضيتها في السجون والزنزانات، ولم تنل من رؤياك المتفائلة بالإنسان، ولم تبعدك عن إنارة الزوايا التي أنت فيها. ما تراه من ممارسات ذئبية، ومفرزات عقد النقص لدى أبناء الحارة التحتانية سيقذفك إلى المهاوي والكفر بالقيم العليا ولو إلى حين.

زمرت سيارة لاندروفر في المنعطف الصاعد إلى المقبرة، توقفت أمام بيت غيلان الجعفي. نزل منها أربعة رجال مفتولي العضلات يحملون رشاشاً، وثلاث بندقيات روسية، بادروا بإطلاق رشات، من الرصاص في الفضاء إرهاباً، تتلمظ وجوههم دناءة وعبثية، يصرخ أحدهم في همجية:

– من منكم /غيلان الجعفي/؟

– ماذا تريد؟

– لتحضر فوراً معنا إلى قصر الأفنديُ.

ولولت وطفا الأم ضارعة، وناحت مستجيرةً:

– بوس أيديكم ما تجرجروه. تفقع جلده من عتمة السجون والقتل. ما لو مدة طويلة خارج من السجن.

أبعدوها عن أقدامهم، دفروها حتى سقطت على حافة المصطبة، نزف فمها المشروخ، حاول غيلان الجعفي أن يدافع عن أمه، لبطوه بسنابك أحذيتهم، نزلوا عليه لكماً، جروه من ثيابه المتسخة، رموه في السيارة، حاول أيوب السارح أن يتدخل راجياً منهم أن يطلقوه لكن عبثاً. درجت السيارة حتى القصر، اقتيد الأسير البريء إلى قاووش تحت الأرض، حيث يسجن رامز الصوَّان من يشاءَ من مناوئيه في الناحية. كان القاووش زريبة للبقر، تحل فيه العتمة حتى في الظهيرة، لم يكن له متنفس إلا كوة في الجدار الشرقي. رائحة مزبلة تنفذ إلى خياشيم غيلان

الجعفي، وصوصة جرذان نتنة. لزوجة كريهة تخدش، إحساس بالتقيؤ انتابه، غثيان أصفر اعتراه من خلال هذا المكان الجحيمي، تنقل في سجون الشيخ حسن، وتدمر، والمزة، ولم يشاهد مثل هذا القاووش المرعب، تلمس الجدار اللزج، شعر بأنه في بوابة العالم السفلي مع أورفيوس في أساطير الأولين. غمرته تعاسة وغضب مقهور. سمع قهقهات من خلفه، الصوت الخفي، يعادوه من جديد هامساً في داخله. يا للغرابة! ماذا فعلت حتى حاقت بك كل هذه الفجائع. أقرطت بخور كل المقامات المقدسة؟! أمزقت أكفان كل المؤمنين الموتى؟! أأوغلت في المحارم والمويقات، أحفرت القبور لتنال من الميتات؟! أشاركت في مقتل الحسين بكر بلاء؟ أهتكت عري المحصنات؟ أتعاملت مع الموساد واللوبي الصهيوني. وخنت القضايا الجوهرية، أبعت نفسك ورسالتك في سوق النخاسين والخونة"؟. تصاعدت ها، ها، ها كقرع جنائزي في الدفن الليلي، أحس غيلان الجعفي ببحيرة أعماقه تصخب، وأن وطاويط ممسوخة تطير فوقه، تحاول أن تغرقه، بجلودها السود، وأنه يلطم جدران القاووش، لطمات عنيفة، ويصرخ في الخواء، متحدياً:

لن أكون حذاءً يتخذ القالب المناسب لأقدامكم. لن أكفر بالإنسان الطيب البسيط، لأنه غاية الحياة وهدفها البعيد، قسماً سأظل أركض وراء شمس الحرية، وأفتح أحضاني لريح الإنسانية والتقدم، واستشف كوى النور والتفاؤل.

تعالت الأصداء في القاووش، تناهت إلى المرافقة الذين لم يفهموا من هذه الكلمات إلا أنها استغاثة، اختفى الصوت من ورائه خلف العتمة. سمع صوت أمه وطفا تقرع باب القاووش بابتهالات ضارعة، ونداء أيوب السارح فوق درج القصر. فتح بابُ القاووش، جرَّ المرافقة جسد غيلان الجعفي المنهك. طرحوه في غرفة واسعة سموها غرفة التحقيق، في وسطها طاولة جوزية فخمة وعلى كرسي ابنوسي لامع، أقعى رامز الصوّان في عنجهية جاهلية، تبرق عباءته المزركشة على كتفيه، وتزهو بأشرطة مذهبة، وأمامه عصا معقوفة. قلب شفتيه بازدراء وقرف، كأنه يشم رائحة كريهة، حملق بتعالٍ في سحنة غيلان الجعفي الحائلة، وثيابه المتسخة، وجسده المعصور واثلام الزمن المحفورة فوق جبهته وقال:

– يظهر أنك شخت قبل أوانك، وصرت رثاً كخرقة بالية. وخريج الحبوس، سيظل مراقباً تحت أنظارنا. لنا عيونٌ ثاقبة تحصي كل التحركات، كل من يجذف خارج تيارنا، ومعاكساً لنا، سأسحقه بجزمتي هذه، كدودة حقيرة تنمو على المزابل، لم تتعلم دروس المرونة، رغم ما نزل بك من مصائب وتشريد، ولولا أنك جاري في هذه القرية، لطرحتك في حبس لا تخرج منه أبداً.

حاول غيلان الجعفي أن يرفع رأسه الجبل، تدنو من رقبته والكرباج المرقش كأفعى رقطاء تركن في الزاوية، فتداعت في ذاكرته صورة رشيد بك مبارك يجلده بقضيب الرمان، ويربطه بالسنديانة الهرمة، والخطوط المغموسة بالدم، تنطبع فوق ظهره النحيل، ونسوة غويران، وجمع غفير من الأهالي، يتملون تلك الدراما المفجعه، تراكضت الصور من رميم الماضي كأنها حدثت البارحة، أبوه المعتر الذي امتلأ فمه بتراب المقابر، كان يدني برأس ابنه ليقبل الجزمة العونية لابن مبارك كما تحاول أمه وطفا أن تقوم بالفعل نفسه وإن اختلفت الشخصيات– مولولة:

– دخيلك– يا سيدي– إحفظ لي ابني الوحيد. وها الشيخ نجم المقدس ما قاسى أيوب النبي أكثر منه، ونحن جيران من قديم زمان، وقرايبين، كم مرة زرتنا في بيتنا، يوم كان أبوه على قيد الحياة. أنا واقعة عليك وبوس تراب رجليك وها الدنيا غرورة غير لله ما دامت.

عصف إحساس مقيت في أرومة غيلان الجعفي، إنه استحال دودة كبيرة يتسلى بها الآخرون، ومسخاً هابطاً عن صعيد إنسانيته، فبرز له وجه العالم مليئاً بالقبح والعدوانية، وأصابه قرف وميل إلى أن يتقيأ ذاته. فخانته عيناه، وانسكبت دموع غير إرادية فوق خديه. إنه كان يتقيأ الإنسان المعاصر، أمر عقاب الجبل بفك وثاقه، وإطلاق سراحه. أمسكته أمه بيمينه، وأيوب السارح بشماله وصار يتعكز عليهما، بعد أن خارت قواه من الخيبة ومظهر التردي في المسوخية. وراحوا جميعاً يُعرَّجون صوب المقبرة. كان الشفق الشمسي الغارب ينشر نبيذه الأرجواني فوق قمم الشعرا، وقبة الشيخ نجم الريحان تبدو مركباً أبيض يبحر في المساء. سرى الانتعاش في عروق غيلان الجعفي، استعاد بروقاً في كيانه، وهتف عندما حاذى بيته وحواكيره، صارخاً:

– إنه الغروب عينه الذي يحمل إليَّ غروباً دائماً، وفجائع تترى. قسماً سأبدله بطلوع مشرق، تلتمع فيه بوارق حياتي وسط الدياجير وممارسات الأوغاد، وأرسم قدراً جديداً، أشد سطوعاً وتفاؤلاً، يستشرف الإنسان الحقيقي المسكون بالتحدي، والحرية، والثورة الدائمة على كل المعوقات والجمود، وذئبية الغاب، وعقد النقص التاريخية.

❐❐❐

الفصل الواحد والعشرون

الحوار مع الأرض

انكبَّ غيلان الجعفي على الحوار مع الأرض، نفذت إليه حكمة ناضجة: إن الحوار معها أجدى، وإنها تمنحه من ترابها التعامل الصادق، والعطاء المقابل، بزغ هذا التعامل معها، بتعزيل الحواكير كلها من الحجارة، وبناء /السناسل/ الحجرية لحفظها من الجرف والسيول، وابتدأ يغرسها بفسائل التفاح والكرز، وحفر بئراً ارتوازية، بجانب المقبرة، وتدفق الماء من قعرها، ووضع "خابية" على عتبة قبة الشيخ نجم الريحان وأملأها ماءً، ليشرب الزوّار الذين يفدون من القرى؛ ليقدموا القرابين والنذور على اسمه. واشترى سيارة سوزوكي صغيرة، بثمن بيته الذي باعه في المدينة، وانبرى ينقل نتاج الأرض والخضروات من قرى الجرود إلى أسواق /العثمانية/التركية، ويمد جسوراً مع أهاليها، ويبني الثقة التي زعزعتها تجاوزات حديثي النعمة في مناطق الجرود، وتشفيطات سياراتهم الفخمة، وممارسات المراهقين منهم. اكتشف في أحد تنقلاته الجنوبية، استراحة رائعة الإطلالة، تغفو على المنحنى المؤدي إلى غويران الوطا. على مقربة من نبع الصنوبر. أوقف سيارته، حملق في المكان الذي كادت معالمه تندثر، أوغل بعيداً في مرتسماته، اشتم رائحة النعناع البري بين فجواته، تراكضت الأيام في ذاكرته، راح ينبش الماضي يتقرى غيابة جُبِّهِ، شخصت من رماد السنين صورة خضراء مبارك بوشاحها البنفسجي، لما كان العالم انسيابات حلوة تجري في عروقه، والمراهقة نزوعاً ملتهباً لاحتضانه، وامتداداً بريئاً إلى الإبحار صوب المستحيل، يومئذ كان يرعى غنماته في غابة الصنوبر، وينفخ بنايه القصبي، فيفجر رؤىً بعيدة وحنواً ناعماً إلى الانصهار في حضن دافىء، وروح الخريف توقد تنانير من المشاعر الغامضة، والتصالب العنيف بين الموت والحياة. وقتئذ داهمته ابنة مبارك حمامة أُنسية وادعة، شعَّت عيناها الخضراوان بألق عجيب، تهدلت شفتاها بكرز الجبال، تكوَّز نهداها المراهقان بلهيب الاعتصار، فار تنورها وانساب ظلالاً لامعة، ورحيقاً مُعتقاً فوق شفتيها، حينئذ قادته إلى جفنة الغار، سقته من دنها خمراً غريباً،

أطعمته ثمرات مدهشة العذوبة، فتّقت فيه براعم كانت مغمضة، أبحرت به إلى جزائر جنيات العرائس في ملاحم الإلياذة والأوديسة وأساطير بحار الشمال، تركت في بحيرة أعماقه مغاور سحيقة من الحنين والشوق إلى أعشاب ذلك الزمن. استفاق من رؤاه وأحلامه النائية، صعد إلى بوّابة العالم الخارجي وملامسته الحاضرة، فطالعته دموعه، وهي تسّح على وجهه، بكاء أخرس بطعم الرحيل المدنف، والإيغال في خرائب أزمنة لا تعود إلاَّ بومضاتٍ المخيلة. سمع قهقهات من خلفه، وصوت الشبح الخفي، يدنو منه، هامساً في الصميم: "ستظل تبكي في القفر، تندب أطلال الذين غادروك، وأبقوا قرع أجراسهم في عنقك، ستبقى مصلوباً على الطاحونة الوثنية، حتى نهاية عمرك، كيف تفر من قدرك الذي يحاصرك؟. عتمات الزنزانات التي أناخت بكل وحشيتها وغربتها، في شرابينك، الآخرون الذين كدَّروا نبعك، عرّوا امرأتك أثناء غيابك، وغاصوا في رحمها. البؤس الذي حفر أوجاره في مخيلتك، نعال الأوغاد داست رقبتك في غياهبَ سُودٍ بلا نجوم، ورموك في الفيافي تلهث وراء اللقمة، كيف تهرب من حظك التعيس؟!، يا مثيلي". تسلق غيلان الجعفي ببصره إطلالة الاستراحة، انتابه الخوف القديم من الصدوع، درج بسيارته الصغيرة، صوب الاستراحة الأنيقة. صعد الدرج الحجري، جلس على كرسي من الخيزران، عبقت في أنفه رائحة القهوة التي يشغف بها، وبنكهة حب الهال الممزوج بنقيعها. لفَّ سيجارته من العلبة التي ورثها عن والده، ولا زالت حروف اسمه الأولى مطبوعة فوق طبقتها العليا، أشعل السيجارة، مجَّها في لهفة، نبقت أبخرتها من أنفه. دنت منه امرأة، ذات ردفين متموجين، كالبطات المسمنة، حملق في تضاريس وجهها، تداعت إليه أشياء مرت في ماضيه، رجع إلى نفسه يسألها في خفوت: (يا إلهي! ليست صاحبة هذا الوجه غريبة عني، أكاد أعرفها ولا أتيقن، تباً لك أيها الذاكرة! كم صرت تخونينني، يظهر أنني هرمتُ). عاود سبره لملامحها، شدَّ شعر ذقنه الذي خالطه الشيب، التمعت في قرار غيلان ذكريات كانت منسية، تذكر الرابع من نيسان، دقات الطبول في أصباح الربيع الوليد، سباق الخيل في ساحات المزار العالي، يوسف مبارك ينال قصبة السبق. خضراء مبارك في زهوة شبابها تمسك بزمام حصانه (عبيَّان) وتقدم له باقة من ورد بري، يومئذ لسعه ثعبان الغيرة، انتابته أحاسيس الدونية، هرب إلى نبع الوادي، يجتر آلامه بعيداً عن الضجيج، وها هي ذي صاحبة الوجه، الماثل أمامه، تنبق من الماضي صورتها، وقد تعرى فخذاها، ومدَّ شاب عسكري يده إليها يداعبها، وقرب فمه من حلمتي نهديها النافرتين، وغدا يمتص منهما رحيقهما المتفتح في إغماضة الغريزة. بعد أن استرخت أعصابهما، عن صدى تأوهات، وتنهيدات،

ورعشات مسكونة بالشهوة، تذكر اشتهاء بنت هلوك الغاوية التي شردت مع عسكري لا رتبة له، وترجته أن لا يخبر أهلها بذلك الفصل الداعر، إلا بعد المساء. قطعت سلسلة تداعياته بقولها:

– شو بتريد تشرب؟

– فنجاناً من القهوة المرة. من فضلك.

– وجهك ما هو غريب عني. وين شفتك؟

– أوه! هل نسيت عيد الرابع من نيسان، وفصلك العاري، يوم حفظت سرك عن أمك حتى المساء.

اعتراها خجل مقيت، احمرَّ خداها، عضَّت بأسنانها على شفتيها وقالت:

– ولك أنت ابن إبراهيم الجعفي، وأمك وطفا.

أومأ برأسه، إلى الأسفل بالإيجاب، صرخت مندهشة:

– أمي. أمي. تعالي شوفي من ها الشخص.

خرجت امرأة طاعنة في السن، من الباب، ترتدي تنورة شفقية اللون، وقميصاً أصفر فاقعاً، وتنتعل حذاءً فاخراً، وقد صبغت شفتيها ووجهها بحمرة قانية، ومسكرت أهدابها، وكحلت عينيها، وقصَّت شعرها الذي كان يسترسل في جدائل وضفائر أربع، وربطته بشكل ذيل حصان، واستبانت عجيزتها المكوزة كما كانت في سابقات أيامها. وبدت عليها إمارات النعيم والرفاهية. كانت سلاسل ذهبية شديدة الأناقة تطوق جيدها، وأقراط زنجية، غالية الثمن، تهتز في أذنيها، وكانت سيجارة مارلبورو تحترق بين أصابعها. صافحته بحرارة حميمية، شدَّت على يده، ومرت بكفها فوق شعره الذي خالطه الشيب، وأردفت قائلة:

– حسرتي عليك! شايفتك هرمان قبل الأوان، وجهك مغضن مثل قشرة التفاح الدبلانه. وشعرك الجميل اللي كنت تفتن فيه النسوان، أكله الشيب والصلع، ما بقي فيك من الحر الماضي غير عينيك، سمعت بموت والدك، ورحتُ للعزا، وما شفتك، والحمد لله صرنا أغنياء، وخلعنا ثوب الفقر. صهري نعيم المرزوقي ابن ها الزمن، تاجر بكل شيء حتى المخدرات والتهريب من تركيا ولبنان، وحالتو اليوم فوق الريح، واشترى أراضي في غويران الوطا وبنى ها الأستراحة الي شايفها الآن.

جلست قبالته، تَمّلاها عن كثب، تلامح في عينيها بريق الشهوة القديم. تذكر حكايتها مع الضابط الفرنسي يوم عراها حتى من ورقة التوت، ومسّد عجيزتها المترجرجة، وأراد أن يمتطيها من الخلف، فتمنعت عن هذا الطقس الجنسي الشاذ،

وهربت من العلية. كان كلما تفرس في ملامحها، تداعت له صور غافية في أتربة السنين، لاحظتْ نظراته الساهمة، سحقت سيجارتها في النفاضة الزجاجية الزرقاء، وزعقت:

– ولك غيلان شايفتك عما تفليني، وتنغل في جسدي، سمعت أنك طوّلت في الحبس، ومضيت زهوة شبابك بين قضبانو الحديدية، ولك شو بدك من ها السياسة، وقلة العقل، تركت أمك وطفا الأرملة وحيدة تجابه المصايب، ويلي عليها كم قاست في غيابك وبعد موت والدك. وحق ها الشيخ إسماعيل لولا بنتها رباب لشاع فيها الذكر، وسارت على حروف الدروب، تشحذ بلا معين. لكن الله مابيقطع بأحد، بيرزق الدود في قلب الجلمود. وبدّي حضّر لك فنجان قهوة ماصاير متله في هالديرة.

نهضت من مكانها كظبية نافرة، لم يضع الدهر عليها بصماته القاسية، غابت خلف الباب، حدَّق غيلان الجعفي في عمق ذاته، يسوطها بتأملات حزينة، قهقه الصوت الخفي من ورائه، وهمس في داخله: (هل تساءلت عن علة الإخفاق في حياتك، لماذا يسير الأغبياء، والجاهلون، إلى الأمام، وتحسن أوضاعهم، وأنت تسقط في المأساة العريضة، أبحرت في دنيا العلم، وأمضيت ميعة شبابك في الكوابيس والفجائع، ولم تقبض إلا على الخواء. وشققت الصخور الصلبة وكوَّنت أسباب النماء والنهوض في أقسى الظروف، وزرعت أفكارك الثورية في الأدمغة، وانهدَّ كاهلك من العطاء واستحصد الآخرون زرعك، وقطفوا ثمرات جهدك، ولفظوك جثة في العراء). أصاب الدوار غيلان الجعفي، شعر بأنه يتقيأ نفسه في عالم ذرائعي، يمسخ كل فرد فيه الآخر، ويسقطه في إطار التشيؤ، ويجعله وسيلة للصعود على رماده، وتشويه تاريخه. انقطعت سلسلة تأملاته، بمجيء هلوك الغاوية وهي تحمل صينية القهوة، وبرفقتها ابنتها اشتهاء، وصهرها نعيم المرزوقي، ووضعتها أمامه على الطاولة، واقعى الثلاثة، وأردفت الأم قائلة:

– بعرفك على صهري. وها دا ابن جيران الرضى في غويران الوطا، سابقاً، وبظن هدي المرة الأولى اللي بتشوفوا بعضكم فيها.

حملق غيلان الجعفي في معالم وجهه، عرفه منذ الوهلة الأولى في جفنة ينبوع الوادي وهو يعري اشتهاء من خطها المُحرَّم، وتبرق في عينيه نزوة القطط في فصل تلاقحها. أخرجت ابنتها سيجارة مذهبة بأطرافها، ودستها في فمها وأشعلتها بقداحتها الغالية الثمن، وغمغمت:

– ما بظن– يا أمي– أنها المرة الأولى اللي تعرَّفوا على بعضهم، شافنا

غيلان يوم شردت، وفاجأني يوم الرابع من نيسان في الجفنة.

خيَّم صمت متقطع، انداحت زقزقات عصافير في البرية، خشخشت أوراق الخريف المتساقطة فوق أديم الحراج، عبقت رائحة عدمية في نظرات غيلان الجعفي، وهو يغوص في خارطة غويران الوطا التي غادرها منذ زمن بعيد، وتراءت له الأبنية الجديدة، بسقوفها القرميدية الخمرية اللون، تلتمع في حارة آل مبارك، وبعض بيوت الدفش في غويران الوطا ما زالت على حالها منذ تركها. لاحظت هلوك الغاوية تطلعاته، قادته إلى سطح المتنزه، حيث بانت مرابع طفولته عارية وأشارت بإصبعها قائلة:

– شايف ها القصر بطوابقه الثلاثة، بجانب غابة الشيخ إسماعيل بجنب المدرسة القديمة، هادا قصر يوسف مبارك وزوجتو خضرا الله زاد في غناهم. شايف ها القصر المزروع حد السنديانة اللي أكلتَ عليها الفلقة، هادا لأبناء رشيد بك مبارك اللي أصابه الشلل النصفي، والعياذ بالله. بعد كل الجاه والعزة، وهادي الدنيا الغروره، غير لربي ما دامت. أما صاحبك الشيخ محمود مبارك منذ زمان صابتو الفزعة، ودار على الحروف، وآخى جنيات السواقي، وصار في الرعوش يصرخ، ويخوَّف النسوان، حتى اختفى أثره. آل مبارك بيقولوا التحق بعالم السماء وطلع نجمة. وناس بيقولوا، طار مع الريح، إلى بلاد مجهولة. وبدو يعود ثانية والنسيّات اللي بيبعدو صوب مغاور الشعرا، بيسمعن صدى جعير مقلوب مثل صوتو، وناس شافوه مع أربعة مجانين، عراة، زوج من الذكور وزوج من الأناتي، يدورون في معاصي الشعرا، والعياذ بالله. ورغم هذا كلو، راحوا سوولو قبة ذات طنة ورنة، شايف هادا الملمّع مثل بصبوص في قلب الليل، بجنب التكية القديمة. والله هي ذاتها.

احتسى غيلان الجعفي فنجان القهوة، درج سيجارة من علبته، أشعلها في عصبية، انزلق وحل أسود في شراييه، الماضي ينتفض، يتنفسه في الهواء، يتلمسه في الغابة التي كان يرعى فيها، يتشربه في الينابيع المنعزلة التي كان يستحم بها في ضحى صيفي، بعيداً عن الأعين، ويسبح في مخيلته شخوصاً دخانية يصعب لمسها حاضرة كل الحضور. هزَّته هلوك من كتفه، ودمدمت:

– ولك، شو صار لك؟! وين كنت؟! شايف ها البناية بحدّ مغارة النمر، هي لقرعوش الخليط، نسيت ليالي الزمهرير، وفحمة كوانين، يوم كانت تحمينا من لزبات المطر، وطبول الريح، والبرد بيهري اللحم، يوم كنا نشعل النيران داخلها، ويجتر أيوب السارح حكايا سفر برلك وشرب القات في بلاد اليمن والقرود اللي

تنط فوق الشجر، ومغامراتو الحلوة مع النسوان، والله ها الشخص طريف. ولك وين قذفو الدهر؟!

حملق فيها غيلان الجعفي، تداعت له صورة قرعوش الخليط ذي الاندفاعات الجنسية العنيفة، والعضلات المفتولة، والميل الكاسح إلى امتلاك أية امرأة يطأها، كما حدث معها، كما في غابرات السنين، ليلة كانت جدته بريبهان تلفظ آخر أنفاسها، وتحتضر، كان ينجحر مع هلوك الغاوية في جوف صخرة خارج المغارة، يستنزفها رعشات وانتفاضات شديدة الحلاوة، وينزلق بجسده إلى رحمها الملتهبة. وأجاب قائلاً:

– لا شيء ينسى، الماضي قطعة منا، يزيده النأي لمعاناً، وحنيناً إليه. هل نسيت أزواجك الذين قبرتهم؟ وغيرهم ممن حفروا في عروقك وذاكرتك أشياء جميلة. أما أيوب السارح فقد نتف ريشه الزمن وسرحاته في المكان، واستقرأ خيراً بالقرب من مغارة سويلم الدرويش.

سقطت لمعة وامضة في عينيها الفاحمتين، وبان تأثر فوق سماتها وجالت دموع في عينيها، وهمهمت:

– والله، ما زالوا هنا في قحف رأسي، ها اللي ذكرتهم، وليالي مغارة النمر عما تُتمِّل في شروشي، وصورها هوني مقبورة، يا حسرتي على ما فات. والفحل من الرجال هو اللي بيترك أثر في الذاكرة ما بتمحي، ما بدي غمق أكثر أمام صهري وبنتي. ولك ابن الجعفي هل عمرك بتنسى خضراء مبارك اللي طلَّعت عقلك من رأسك، ولولا حلم ربك لدرت مثل غيرك على الحروف والجنون.

تذكر غيلان الجعفي ليلة زفاف بنت مبارك، وقرع الطبول الجنائزية والصدوع النفسية التي انحفرت في داخله، كادت الأحاسيس ذاتها تطفو من متاهات الماضي، وتهدم ما بناه من سدود النسيان، خاف أن ينفجر السيل المحبوس، كما حدث فيما سلف، فنهض مودّعاً، هبط الدرج كمن أصابه مسّ، أوشكت قدماه تنزلقان، غير أن هلوك الغاوية أمسكته، وودعته حتى باب سيارته، وهمست في أذنه:

– ولك إذا بدك تشوفها، وتملي عينيك منها، تعال عصر كل جمعة إلى ها الاستراحة، حتى أجعلك تتلاقى معها. سلامي إلى أمك وطفا وجيران الماضي.

أدار المحرك، تلوى بسيارته السوزوكي بين المنعطفات، التهم في جنون المرئيات التي كانت تسوطه من الخلف، والجوبات السحيقة، وأوغل في تأملاته، فتزايل له شخص شفيف دخاني، على رأس شير صخري يومىء إليه. اقشعر

جلده، أحس بأنه يمتد في عالم غريب، تكشف له الشخص عن أبيه إبراهيم الجعفي الذي مات منذ زمن بعيد، بقمبازه الناصع البياض، في إشراقة عجائبية لم يرها من قبل فيه. نزل من السيارة، ركض وراء الطيف، ليحتضنه، لم يلمس إلا الفراغ، سمع صوتاً كأنه آت من وراء الغيوم:

– يا بني– برضاي عنك، لا تنبش الماضي، وتحفر حفراً تقع فيها، ولا ترجع إلى غويران الوطا، حتى لا تبتلع الغيران، والرنوات الخضر، توازنك، وتسقط في مهاوي اللاوعي، ومفاوز الجنون إلى الأبد.

اختفى الطيف الرحيم، في شعاب الشعرا، درج غيلان الجعفي راجعاً إلى بيته في عين الغار، محملاً بتهاويل الظلال، والطيوف الشفيفة، بأن لا عودة إلى نبش الماضي، والنفخ في الرماد الخابي، الذي لا جدوى من توقده من جديد، لأنه يحمل إليه في طياته، جنون القلق والهلوسة، والتردي في حمأ مسنون، والنزول إلى المهاوي المعتمة، وبوَّابات الأعماق المستعصية على الفهم، واندفاعاتها اللاشعورية في غياهب النفس، البعيدة الأغوار التي لا قرار لقيعانها التي ما زالت مجهولة.

❐❐❐

حاشية تاريخية ثانية

- التحولات-

كما موج المحيطات العاتية، هبت أعاصير التحولات على الإنسانية، وحاول العرب أن يثأروا للهزيمة الحزيرانية، ويزيلوا عقد النقص التي تربت في العقل الجمعي نتيجة لها. وزحف الجيشان السوري والمصري إلى أرض فلسطين ليحرروها من ربقة الصهيونية، ويرسموا شفقاً حطينياً آخر. وكانت حرب تشرين، التماعة المروءة في الوجدان العربي، ومنارة في لجج تاريخنا المنكفىء. غير أن ثمارها أتلفت في حينها، أرادها أسدُ دمشق العظيم تحريراً وحاكم مصر آنئذ تحريكاً، وانكشف عري المواقف وجوهر الأنظمة، وارتمى السادات في أحضان اتفاقية كامب دايفد، وانسلخت مصر عن شقيقاتها بعد التماع المد الناصري فيها. واستعر بركان حرب مدمرة بين العراق وإيران دام تأججه ثماني سنوات، وحرقت الحممُ ووسائل الدمار الشامل، معالم حضارة البلدين المتجاورين واستنفدت، قواهما، وغطَّتْ جثث القتلى أهوار البصرة، ومستنقعات الجنوب، وعَمَّت الخرائب منطقة الصراع، وأحدث حاكم العراق شرخاً شاقولياً، ينز صديداً بمسلسل الألم والتمزيق، والضغينة، وكان كلا الشعبين المسلمين ضحية تلك الحرب الظالمة. وظلَّ العالم يتفرج على الديكين المتقاتلين بلا جدوى، لقد هشما بعضهما بعضاً في مأساة عريضة، أوقدتها أحابيل الغرب وجشعه الهمجي في بيع الأسلحة، واستنفاد ثروات دول الخليج، وإيجاد السوق المناسب لتجارته الحربية. ولم يكد اوار الحرب يخمد بين الجارين التاريخيين، ويكفكف كل منهما جراحه، ويعيد بناء ذاته، حتى سوّلت عقد الاستعلاء المتورمة، ووسوسات، شيطان الغرب إلى حاكم بغداد، أن يحتل أرض الكويت في زمن غير مناسب، وسط أجواء عالمية مضطربة. ووقع العراق في الفخ، ودمرت آلته الحربية، وهلك جنوده البواسل في صحراء الجنوب، عطشاً، وجوعاً، ومذلة. وفرضت ضريبة باهظة على كل شيء فيه. مات أطفاله من فقدان الأغذية والحليب، وتفسخ مرضاه أنيناً وضراعات، واحتضارات مزرية، دون أن يجدوا الدواء لهم، وعمت كارثة الحصار، وانقذف شعب بكامله في مهاوي الجوع،

والعض على البطون، والسقوط في براثن المذلة، والنفي والتشريد. وواكب هذه الرحى السوداء، تغيرات جذرية في عمق العالم الشرقي وثوابته، إذ حدث زلزال في البناء السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الاتحاد السوفياتي وفي المعسكر الاشتراكي، وسقطت مرتكزات الماركسية فيها، وانطفأت أكبر منارة كانت الشعوب المستضعفة المقهورة، تلجأ إليها، وتنال منها الدعم والصداقة لمجابهة الغرب الاستعماري، انحطم هذا الصرح العنيد، كأنه من الكرتون الهش، وهوى لينين عن عرشه، وانسحق تمثاله، الرامز إلى انتصار البلشفية، وانحصر المد الماركسي في زوايا /كوبا- الصين، وفيتنام الشمالية وأمسكت أمريكا الرأسمالية بمصائر الشعوب، وغدت قدراً أحادي البعد، وعصا غليظة، تهرس بنبوتها النووي، وتهديداتها المرعبة، إرادة الإنسان، وامتدت ضغوطها في المنطقة العربية إلى إبرام اتفاقية سلام إرغامي بين اليهود والعرب، وأتيح المجال للصهيونية، أن تدخل من الباب العريض إلى الدويلات العربية، الممزقة الشراع في بحر لجي من المفارقات، والتصدعات في المواقف العربية المتباينة، وانقذف من جديد مبدأ التطبيع إلى رحم الأمة العربية، واعتصار وجودها وخيراتها وتقزيم دورها ووحدتها، وإعادتها إلى حظيرة الغرب، وجيتو اللوبي الصهيوني. وكانت الصراعات الطائفية، قبل هذه الأحداث، بعشرين عاماً قد التهبت في أرض لبنان وأحرقت ملامح حضارته وأودت بمئات الألوف، من أبنائه تشريداً، وذبحاً على الهوية، وتهجيراً إلى أقاصي الدنيا، ودفع شعب لبنان الثمن غالياً، وامتدت الحرائق والنزاعات إلى البلقان وتمزقت يوغوسلافيا إلى دويلات طائفية وعرقية، وتهدمت وحدتها الوطنية، وسقطت في لعبة الأمم، والانحيازات الدينية، وتكدست الجثث في الجبل الأسود، و افتضحت كل المحرمات، وسادت شريعة الغاب، وكشر الإنسان عن ذئبيته وتعصبه، وتوقدت المشاعر الدينية والقومية التي كانت راقدة في شعب الشيشان المسلم، وسالت الدماء في القوقاز. وزحف الروس بعددهم وعدتهم، ليبيدوا شعباً صغيراً، بعدده. أراد الاستقلال عنهم. وأبدى من ضروب المقاومة والصمود ما أبهر العالم وأعاد إلى المخيلات حكاية قرطاجنة الفينيقية، وتصديها للرومان، في أخصب ملاحم البطولة والفداء، وانكفأت الأحزاب الثورية في العالم الثالث، لتعيد توازنها بعد الحرب الباردة، وتلتقط أنفاسها، بعد أن باغتتها التحولات السريعة، وتعيد صياغة ذاتها، وبناءها التنظيمي، في ترقب وترصد، لما تخبئه خرائب الأزمنة القادمة من تقلبات مصيرية، وإرهاصات مصلوبة على جدر المستقبل، وآفاق الصيرورة التي تطحن بين براثنها، كل وهم الثوابت، وقدرة الأنظمة على الاستمرار. لأن كلَّ شيء إلى تغيير وتحول. والإنسان في زمن ما هو غير

الإنسان في زمن آخر، إلا الذين، صهروا ذواتهم في رسالتهم العليا، وقليل ما هم، وأصبح معنى وجودهم كله مستخلصاً من روحها ومسارها، ومرتبطاً بها حتى الموت. وبقيتْ سورية الأسد كوة الضياء في ليل الاستسلام والتطبيع، تدافع عن شرف الأمة العربية، تأبى الخنوع رغم الضغوط الشرسة، تومىء بالخطا الصامدة، تميز بين سلام الشجعان واستسلام المهرولين، وترسم دوائر راسخة. إن إرادة الشعوب على المدى الطويل هي القضاء والقدر ولا مرد لهما.

❐❐❐

الفصل الثاني والعشرون

انعكاسات التحولات.

أخطبوط الزمن بأرجله السبع، غدا يشكل الأيام والسنين، ويعتصر أعمار البشر، ويلوّن حيواتهم، انعكاسَ تحولات، وارتكاسات في المسار البشري، حتى تقشرت اعتصاراته ومفارقاته عن تغيرات في الواقع الحياتي والسياسي والديني، تكشفت عن ظهور طروحات، مشدودة إلى الخلف، ومستلهمة من عهود تاريخية بعيدة، وممارسات متعصبة، وقُطعت الأشجار المثمرة إلا في الأعالي، وهلك الناس جوعاً. حتى أن الفتيان من الجرود كانوا يدورون كالمسعورين، ويرتقون الأماكن الوعرة، يلتقطوان ثمرات البلوط والسنديان، ويجعلون لبابها طحيناً وخبزاً، ويقتلع بعضهم الحشائش البرية والجذور، يمرشون أوراق الشجر ليسدوا رمقهم بها، ورمق أسرهم، وكانت أجساد المسنين والعجزة والمرضى، تموت في عراء جبل الشعرا ومعاصيه. وتحت رعش دهري، لماموت ما قبل التاريخ، انحشر غيلان الجعفي وابنه، وأيوب السارح وأولاده، وأبناء سويلم الدرويش وعائلته، وفي وسط الفسحة التي شكلها الرعش من الداخل، كانت وطفا الأم، تحتضر، ويتحشرج صدرها بزفير الموت، وكان وجهها الترابي، ينزف بحزن مقهور نهايتها. وعيناها تشخصان في جوف هذا الرعش الماموتي، وتمسحان الغبشة الصباحية التي ترود الأفق الشرقي، وما وراء نهر العاصي، والسهوب المترامية الأطراف. اقترب منها ابنها غيلان الجعفي، احتضنها في أسى، أسند رأسها على صدره، وضمها في حنو متمزق، ومسدَّ شعرها الأشيب، وهمس في أذنها:

– أمي.. أمي لا تتركيني، أنا أحوج الناس إليك في هذه الفترات العصيبة. سنعود إلى بيتنا بجوار المقبرة. نبني ما دمره البغاة، سنجدد الحياة، ونعيد كرة العمر، أرجوك لا تموتي في هذه الأيام، حتى أقدر أن أعمر لك قبراً بجانب والدي، جديراً بك، وأحفر شاهدة مرمرية، تبقى شاخصة، تعبر عن اسمك ومسار حياتك، وأوفي النذر عنك للشيخ نجم الريحان وأدعو الناس إلى أسبوعك.

تسمرتْ عيناها في جوف الرعش الكامد، رفعت يديها الواهيتين، أمسكت

برقبة ابنها، واحتضنته، انغمر وجهها المنزوف بوجنتيه، اعتصرته في حسرة، طبعت قبلات فوق جبينه، غمغمت بصوت ضبابي مخنوق:

– خلصت حياتي، يا ابني– ولن تطلع الشمس علي، وصيتي هذا المعتر ناصر وبناتي اللي ما بعرف تحت أي سماء عايشين. وصيتي تعود إلى مزرعتك، وترمم ما هدم، والدنيا ما انتهت بعد، يا ابني.. وتخلي جسور المودة والرحمة مع جيران الرضى الحاضرين معك. وحتى لا تتعذب بنقل جثتي عبرها الجوبات والسناسل الوعرة. اقبرني في ظل ها الرعش، وسط جفنة الريحان اللي بتسكن ريحته في قلبي من يوم كنت، ظغيرة.

راحت وطفا الأم في غيبوبة. نعب بوم فوق شجرة بلوط عالية، سرحت ضبابة خريفية في الأودية والشقوق المنخفضة، وأخفت وراءها المعالم، وتركت ذيولاً أسطورية، تموج فوق أعالي الأشجار، وتنحسر عن أشباح تركض بين المنحنيات. أحس غيلان الجعفي أن يدي أمه استرختا عن رقبته، وأن برودة صقيعية سرت في جسدها، وأن أنفاسها التي كانت تتحشرج، قد سكنت، تقرى نبضات قلبها، أدرك أنه توقف إلى الأبد. نظر في عينيها الشاخصتين الجامدتين، فلفتحته ريح الموت، واعتصرته انتحارات صغيرة، ذات ميسم عدمي فصرخ:

– لقد ماتت، لقد ماتت.

انهلت مدامعه، في أسى غير مجرب، حتى كاد يشرق بها. تجمع حوله كل من كان تحت الرعش. ندبتها نسوان بني سويلم بفروقات مليئة بالأسف، وغنت جميلة من قلب مجروح أغانيها الحزينة، وذاب صوتها الرخيم في ضبابة الخريف. ورددته الجبال الغافية على حلم كئيب، وتناغمت التراديد مع همهمات الفجر، وغنى شحرور فوق شجرة زعرور بري كان يلتمع ثمرها الأصفر تحت نوافير الضياء الآتية من الشرق، وتجاوب الندب الصباحي، مع مواويل أمهات الجرود اللواتي فقدن أولادهن أ ثناء زحف أرجل الجراد وارتسمت في الآفاق المحروقة، وعبر الجانب الإنساني، مأساةُ شعب، قضت الأقدار، أن ينسكب دمه أنهاراً، ويذبح بلا رحمة.

***

وقدم الدكتور الأخضر العربي ونبيل السواحلي، المنفيين خارج البلد منذ زمن بعيد إلى المشرق، ليطلعا عن كثب على ما حدث فعلاً. وفي صوره متخفية. وتحت جنح ليل آذاري الملامح وفي مكان منعزل في جبل الشعرا، يسمى نبع الصفا، وعلى فسحة معشوشبة، ومستورة عن الآخرين، وخلف مغارة سويلم

الدرويش في الجهة الشرقية منها، اجتمع الدكتور الأخضر العربي برفاقه القدامى من قرية عين الغار ومناطق العثمانية. وكان اللقاء حاراً ومأساوياً، امتزجت فيه دموع الفرح والتساؤل عن الأحوال ومجريات الأمور. وكان أيوب السارح يتعكز على عصا معقوفة، ويدق بها الأرض، وقد بدا بلحيته الثلجية الطويلة التي تتوسد صدره الناحل، وبجبهته العريضة، وعينيه الغائرتين اللتين ترودُ فيهما عِبرُ الأيام ومآسيها، كأنه نبي توراتي آت من أتربة العهد القديم. مسد لحيته بحركة عصبية، وتنحنح قائلاً:

– ذكرني هذا الاجتماع. بالسيد المسيح. وهو على الجلجلة، والمسامير دقت في جسده، وارتعاشات الألم، بلغت ذراها، فتوجه بنظراته الفارعة إلى السماء قائلاً:

(إلهي لماذا تخليتَ عني؟). وأنتما لماذا تخليتما عنا؟! ونفيتما نفسكما إلى الخارج، ودفعنا نحن الثمن. وهذا التعيس الحظ – وأشار إلى غيلان الجعفي– أمضى زهوة عمره في الزنزانات، وانصبَّت عليه رجوم من العذابات، وانقصف شبابه بالتصدعات والريب، وقهقهات الماضي من خلفه. ومغارة الضنية ستظل تلقي بكوابيسها الكالحة إلى آخر الدهر، ودفع الجرود ضريبة دموية، قلَّ نظيرها في التاريخ. ورغم هذا كله لم نيأس من طلوع فجر ولو على رماد احتراقنا، واحتراق بيوتنا.

أجهش بالبكاء، شرق بالدمع، مات صوته في صدره، خيمت سكينة، أغلق كل منهم باب كهفه، زمزمت نحلة برية ضائعة عن سربها، تأرجت حرشة نبع الصفا بعبق أخضر، امتزجت به أنسام بيض، وبرودة منعشة، وكان لا زورد السماء منمنماً بمصابيح النجوم، وهسهسات النسغ في الطبيعة يتحرك في عمق الأشياء، إيذاناً بقدوم ربيع الفصول، أزاح الدكتور الأخضر العربي نظارتيه عن عينيه، وسرح وراء الليل المتحرك في العالم الخارجي، وهتف في حزن مقهور:

– لم تكونوا وحدكم في الحصار والحرائق. كنا نتمزق للويلات التي نزلت بكم، وبالانقسامات التي حاقت بحزبنا الثوري، الغربة، والنفي، والقلق الغريب، عششت في عروقنا، وقضمت معاني حياتنا، البراكين والزلازل، وتفتت الدول، والتحولات التي حدثت في الجانب الإنساني، خلاف ما كنا نتصور، والحروب الطائفية وذبح الناس على الهوية، وسقوط المعسكر الاشتراكي، كلها شكلت منعطفات حادة وصدوعاً غائرة يصعب رتقها ويظهر أن القوانين الموضوعية، ومحاولة ضبطها مسار الإنسان، غير علمية، وغير صحيحة إذا لم تضع في حسبانها تأثيرات الشروط الذاتية وتقلباتها، وهينمات الأفراد ودورهم الفعال في رسم

حركة التاريخ. ما جئنا لنبكي على ما فات، ولكن لنخط المستقبل بروح جديدة، ونرسخ الوحدة الوطنية بين فئات الشعب. وبقايا المتعصبين يريدون أن يهدموا جسر الكفري إلى الأبد كآخر رموز تلاحمنا، وتعايشنا المشترك. وذلك بعيد منتصف ليل السابع عشر من نيسان، المصادف لذكرى جلاء المستعمرين عن أرضنا فما رأيكم في ذلك؟!

تشظت الصور من مراقدها في مخيلة غيلان الجعفي وتناثرت كدخان الحرائق الذي عمَّ قرى الجرود وقصور آل الصوان وأبنية آل الغشيم وبرقروق ومنزول بدر الجعفي.. وتكايا آل الخصيب، والحريق الذي أتى على جزء من بيته، والأشجار التي قطعت، والقبور التي تحطت شواهدها المرمرية، وقبة الشيخ نجم الريحان، التي تصدع جانب منها، وغربلها الرصاص.. وقبة الجد جعفر الخصيب التي تقوضت بعض زواياها، وطار شاهد هلالها الحجري، وبقيت العثمانية وقصور آل مبارك، محافظة على سلامتها، عصية على التهديم والتحريق، لأن منطق الغالبية والكثرة والبطش، هو الذي يسودُ تاريخَ الإنسان. فتح طبقته المعهودة المكبوسة بتبغ حواكيره، وانتزع منها لفائف، ووزعها على رفاقه، وأشعلها بقداحته، ونفث نفثات دائرية، وتسلق بعينيه مرتسمات رفاق الأمس، ورفع ومضات قداحته في وجه صهره نبيل السواحلي يتقراه وهو بجواره، وقد مضتْ عهود شديدة التقلب ولم يره، فطالعه وجه من الرمل المتحجر، حفرته الأيام، ينز بتعابير النفي، والتشرد، لوحته الصحراء الكبرى، والتنقل بين واحاتها ومدنها، وانحسر شعره الأشيب إلى الخلف، وتكهفت عيناه في مؤقيهما، وظل شعاع أنيس يخبُ وسطهما. أومأ غيلان الجعفي بيديه الراعشتين، إلى الحاضرين، وقال:

– تقشر جلدي من أهوال المعاناة؛ في السجون، والسراديب الانفرادية، والحصار، ونفذ إلى مسام نفسي الاعتصار والخوف من الخوف، والقهقهات من خلفي، وتخلى عني أحبتي ورميت في مهمه الموت البطيء، ولكنني لم أكفر بقيم حركتنا الثورية، والوفاء لنظرتها، وشحذت جسدي على مسن مرهف، حتى أضحى رمحاً مصقولاً، وطلقة جاهزة في بندقيتها غير أني أريد أن أتعرف إلى بعض الوجوه الحاضرة، التي قد أموت معها في معركة واحدة.

دوّم الدكتور الأخضر العربي أبخرة سيجارته في الفضاء الليلي، وتراءت شباك عنكبوت وراء سبحاتها، وحكَّ أرنبة أنفه، وكان متكئاً على مرجة العشب، فاستوى جالساً وأجاب:

– يظهر أني لم أحفظ دروس المجاملات، رغم أني أفنيت عمري في أوروبا

وجلَّ من لاعيبَ فيه. ولك كل الحق أن تتعرف إلى رفاق المصير الواحد، وهؤلاء بالترتيب هم عمر الخالدي، أبو بكر الراوندي، وحسام حاتم وأنت تعرفه من قرى العثمانية. وهذان اللذان بقرب شجرة الشوح هما جورج نعوم، وإيليا منصور من المناضلين القدامى.

تنحنح نبيل السواحلي. حرّك يديه في انفعال، قطف أقحوانة من نبتة صغيرة، راح ينزع عنها وريقاتها، كما كان يفعل في ماضيات أيامه ككشف للحظ، حتى أنهى آخر وريقة من الوردة، وتكشف عن حسن الطالع، وأردف قائلاً:

– هذه الوردة بمسار تويجاتها، أجابت بنعم لهذا اللقاء. أمضيت سنين نفسية متطاولة كالقرون الرتيبة على سيف الصحارى الكبرى، وعلى سواحل ليبيا وقفارها الممتدة، فلم أتنصت إلى هسهسات نبع يجري من قلب الأرض الرملية، ولا إلى ريحانة تضوع بأرج قدسي، حتى خمدت أحاسيسي كذرات الرمل. وفي هذه الليلة أشعر بأني أولدُ من جديد مع لدونة هذا اللقاء. وقدوم هذا الربيع، فنرصَّ صفوفنا، وننتزع أشواك الطائفية والفئوية من أذهاننا، ولنطهرْ حواسنا، من مفرزات عصور الانحدار، ولنعد أنشودة الوحدة الوطنية، ونهتف بكليتنا: الدين لله والوطن للجميع.

مرق شهاب لامع في مطاوي سماء مغرقة بالزرقة، ومرَّ فوق الرؤوس وأضاء فسحة من المكان، وسقط كما يخيل إلى الرائي، بجانب قبة الشيخ نجم الريحان. واستدرك الدكتور الأخضر العربي معبراً:

– هذا الشهاب احترق ليضيء، ورسم دائرة من النور بمروره في سماء هذا العالم، ونحن، ينبغي أن نتشبه به، نحترق لنضيء، نموت لتورق من دمائنا شجرات يانعة وثمارنا ضجة، قد لا نقطفها، نحن، بل الأجيال الآتية بعدنا، هذا هو طريق أصحاب الرسالات، طريق أنبياء العصور، والمصلحين الاجتماعيين، وروّاد الثورات، الوقت قد أدركنا، وأخشى العيون المتلصصة. وهذه هي الخطة التي رسمناها للدفاع عن جسر الكفري والتترس بين ضفتي النهر، والمواقع التي يتربص كل منافيها، والأسلحة، ستصلكم في حينها. وإلى اللقاء في ليل السابع عشر من نيسان، ولننفض كذوب الملح في الماء دون أن يلتقط تحركنا أحدٌ.

أمسك بحقيبته الخضراء الصغيرة، فتح سحَّابها اللامع، تناول رزمة من الورق، ووزعها على كل واحد من رفاقه، وتصافحوا جميعاً على الوفاء بالعهد، وتناثروا في الشعاب، وغابت أشباحهم، وراء غبشة الفجر، بين الرعوش والسناسل ومساقط نهرالسبع، فأخفتهم معاصي الشعرا. أهدودر أيوب السارح وغيلان الجعفي، ومعهما نبيل السواحلي إلى عين الغار. وكانت ديكة آل سويلم الدرويش

تصيح بصوتها المعدني كوكو. ري. كو والفجر خطوط حمار وحشي، ترتجف في المراقي الشرقية، شبّابات رعيان يروحون بقطعانهم صوب الأدوية والرامات التي يتجمع فيها الماء. والقمر الناحل في المحاق ثمرة زعرور صفراء قضم الزنابير بعض أجزائها. وأشذاء أزاهير، مخملية الرؤى، تثير الحلم القصي إلى جزر القمر التي تتضح بالعطور. ونداء المؤذن: الله أكبر، في الجامع الوحيد الذي أشاده آل الخصيب يتهادى كصوت نبوي من خلف العصور، يدعو إلى الوحدانية، والتآخي، والمحبة.

❐❐❐

الفصل الأخير

الاستشهاد

أيام نفسية بطول الدهور، تجرجرت ساعاتها ودقائقها، ترقباً وترصداً، وتبدت بوصلة الزمن فيها، باردة، بطيئةً كسلحفاة، في المرتقى الصخري. وقد أوفى الدكتور الأخضر العربي بنذره وعهده، وأرسل الأسلحة في حينها مع حمولة سيارة بيكآب من الذخيرة والرشاشات، والقنابل اليدوية، والبندقيات الروسية، مصحوبة ببيان ناري العبارات، يدعو إلى المقاومة والدفاع حتى الموت عن الجسر الكفري وأن يترّس الرفاق الجرود في الجانب الجنوبي منه، والرفاق من العثمانية وقراها في الجانب الشمالي منه، ومنع نسفه مهما كلف من تضحيات: وتجمع الرفاق الجرود ومن معهم، في ضامة أيوب السارح ووزعوا الأسلحة على أنصارهم، واستدل كل منهم على موقعه، ومرافقه. وتفرق الجميع ليلاً بسرية كاملة، على أن يكون اللقاء غداً في منتصف الليل القادم على الضفة الجنوبية من الجسر. عصفت بغيلان الجعفي مشاعر مبهمة، لم يحسَّ من قبل بوتيرتها الحادة، بهذا الشكل وبرهافة هذا المذاق المتفرد. شوق أخضر إلى احتضان الوجود بلون البروق الشديدة اللمعان، ميل كاسح إلى لثم شواخص القبور التي يعرف أصحابها، تواجد غريب أشبه بتواجد الصوفيين الذين يستشفون برازخ التقاطع بين الأزل والزمان، بين اللامتناهي والمتناهي، انسياب حلو كرفات الطيوف ترقرق في مخيلته، نبع بلا ماء مرئي، غنَّى وراء الأشياء، نسغ خفي، أصاخ بكليته إلى هسهساته في الجذور. العالم كله تغيرت وتيرة مذاقه، وانكشفت أشياء وراء عتبة الحواس. تذكر قول معلمه فجر الشريف إن المشرفين على الرحيل عن الحياة، تُرهف أحاسيسهم، وتتفخم رؤاهم، يتذكرون كل نأمة أو حركة مرت بهم. وتصير حواسهم، نسراً يحلق في الأعالي، ويتسامى فوق الرؤى الدودية، فيطلون على كوى أشد اتساعاً وتحليقاً، مما كانوا عليه في حياتهم العادية".

لم يقدر على أن يتحمل مشاعر هذه المناخات الغريبة التي لم يلامسها من قبل بهذه الشدة، فدخل إلى بيته خائفاً، مرتعشاً كرسول في العهد القديم فاجأه

الوحي وهو في ذروة تأملاته وعزلته. كان نبيل السواحلي متيقظاً يطرق بؤبؤ عينيه بمطرقة جفنيه الرَّافين. وقد أسند رأسه إلى ذقنه، محدقاً باللاشيء، شارداً وراء أفكاره فاقترب منه غيلان الجعفي، وربتَ على كتفه هامساً:

– مالي أراك ساهماً؟! أتخاف أن تموت؟ بماذا توغل في التفكير؟ ألم تقل لي بأن أولادك الأربعة قد كبروا، وحوشتَ لهم ما يكفيهم من الدنانير، وأودعت مالك باسمك وباسمهم في المصارف. ونهاية كل شيء إلى الموت والفناء.

فكَّ ذقنه من كماشة يده، رفع رأسه في فتور. التقطت عيناه الصدع الذي أصاب سطح البيت، أثناء الغارة العثمانية في الصيف المنصرم. وأجاب في أسى:

– بقيتُ أمنّي أختك وأولادي بالعودة إلى هذه المرابع، كنا نقتات وسط الرمال بأحلام العودة إلى المشرق، وأن نشيد بيتاً أنيقاً بعد هذه الغربة، بجانب هذا المزار، وأن نجمع الشمل بعد هذا الفراق النائي. يظهر كما تقول حكمة متأملة أحفظها: (إن الأرواح لا تتصل ببعضها إلا في الماضي. والأجساد تعيش في الحاضر، والمستقبل تسكنه الأحلام ورفيف الأماني المستحيلة التحقيق، ميلنا المدنف إلى الطفولة، يختزن في ذاكرتنا المتع الحلوة في ماضينا. عمياء هي العين التي إذا أغلقت أجفانها، لا تلمح خلف بؤبؤها صورة عزيزة على قلبها، صماء تلك الأذن التي لا تسكنها تراتيل الليل وأغنيات النهار، مُرة هي الشفة التي لا تسترد ثمار الحقول الشديدة الحلاوة. ولكني غداً قد تموت أحلام زوجتي وأولادي التي تركتهم في سبها الصحراوية وحيدين، ينتظرون عودتي، ونقلهم إلى هذا المشرق الساحر. سمعت بفاجعة مغارة الضنية فجئت أتبيّن حقيقة الأخبار، والتقيت بالدكتور على متن الطائرة الآيبة إلى المشرق العربي.

انتابت غيلان الجعفي شفقة رحيمة على صهره. سحق أسنانه ببعضها بعضاً، فرقع أصابعه كصوت الملح في النار، زفر زفرات حارقة، وتمتم قائلاً:

– إذن لن تموت غداً وتترس خلف شير الغابة فلن ينال منك الرصاص. ومن كان مثلك، وعنده هذا المخزون من أحلام العودة، وحمل قارورة أحلام زوجته وأولاده، ينبغي أن لا يريقها بهذه البساطة، وأن يبقي على هذا المخزون حتى يرتطم بقساوة الواقع، وينفد من تلقاء ذاته. أما أنا فالماضي قهقهات من خلفي، وصدوع تهددني دوماً بالانفصام، والحاضر حصار الماضي وكوابيسه، بقي لي خيار واحد، أن أطلع المستقبل، وتتفتح ألف زهرة، من الوحدة الوطنية، ولو على رماد جسدي وموتي.

نهض إلى زاوية البيت، كسر القشرة الخارجية التي تكسوها. أخرج ألفية عرق

مخزون منذ زمن، قبل وفاة أمه، سحب السدادة الفلينية عنها، فتش في النملية عن الأكواب الخشبية التي نحتها والده من لباب الشجر، منذ أيام غويران الوطا. انتشرت رائحة الكروم، عبقت الأرض بمذاق أواخر الصيف، صبَّ العرق المتخمر، كرع ثلاث كؤوس صرفاً صرخ كأنه في فلاة منقطعة:

– تعال، يا صهري الحالم، تعال يا ابني ناصر. اليوم خمر وغداً أمر. إذا لم تنهضا سأكسر هذه الألفية على رأسيكما. فلنتناول قربان الرحيل قبل مجيئه، لا عاش، من مات صاحياً الليلة.

التمعت نجمة في عينيه، كما تلتمع نجمة الصبح بشخوصها المذهبة قدام الفجر. والتهبت مخيلته ببروق تمر فوق الغابة. وأمر ابنه أن يأتيه بشبابته القديمة، لينفخ فيها، فالليل له رائحة متفردة لا تنام، وأن يعزف هو على أوتار ربابة جده الجعفي، تناغمت الإيقاعات الحزينة، واسترقت الشهب أسماعها في سماء ربيعية مغرقة بالصفاء، وتهافتت فوق قبة الشيخ نجم الريحان لتذوب انطفاءً وترمداً في حنين الربابة، والتهاب القصب وتراجيعه، التي أيقظت أشباح الموتى الذين رحلوا وأبقوا رفاتهم الحلوة في المخيلات. وظلت التراديد تشنّفُ مسامع الليل، وشماريخ الجبال، والقبة البيضاء، وتحمل في ذاتها طعم الرحيل والوداع والحسرة حتى غطَّ الثلاثة في نوم عميق، وسكرة لا حدود لأبعادها، يتصالب فيها الماضي بكل نأماته وتوجعه، والحاضر بكل ترقبه ووحشته، والمستقبل بكل حدوسه وتنبؤاته المتبرعمة في أحشاء الغيب.

***

أومضت أول إشارة في مغارة بني سويلم الدرويش أطلقها أيوب السارح، إيذاناً بالنزول إلى الجسر الكفري والتترس وراء الصخور المشرفة عليه، اهدودر حماة الديار من أبناء الحزب الثوري، في منتصف ذلك الليل المفصلي، الذي تتصالب فيه مصائر وحدة وطنية، ونهاية مجموعة سكنتها روح أمتها، كعقارب ساعة منتصف الليل. أخذ كل منهم موقعه المحدد له، وجهز سلاحه وأمنَّ ذخيرته. تترس أيوب السارح في مكان مرتفع يطل على الحارة التحتانية، ليقتنص كل من تسول له نفسه بالهجوم على الجسر، وكأنه استعاد شبابه الأول، وقدرته على استخدام السلاح، وكان من حسن الرماية وإتقانها بأنه يصيب الإبرة المعلقة في شجرة وعلى عشرات الخطوات، ويصطاد الطير في قبة السماء، ويقتنص بصبوص الليل وهو يؤوب في الدجى. كما كان أترابه يتحدثون عن براعته. وأنزل ابنه سامر معه، ليملأ له البندقيات بالذخائر، ويعاونه إذا ازدحم القتال. واتخذ

غيلان الجعفي وابنه ناصر، وحميدان الدرويش موقعاً على الدرب المؤدي إلى الجسر مباشرة، وتوزع الرفاق الآتون من العثمانية وقراها على المواقع في الجبهة الشمالية من الجسر. كان البدر تماً مكتملاً، كدارة نورانية، تسبح في فضاء اللانهاية، ونقيق ضفادع معدني، وصوت قرقرير يصدى بهما الليل، وبرودة ناعمة تتغلغل في العروق، وضبابة خفيفة، كلهاث طفل غرير فوق زجاج شفاف، تتصاعد من مساقط نهر السبع وشجيرات الدلب والحور تتمايل كأشباح مترنحة أمام هبات أنسام الضفاف. وكواكب السماء تلمع كالنيران الجن والعفاريت في حكايا (ألف ليلة وليلة كان غيلان الجعفي في ذروة صحوته وإشراقه، كأنه عريس ترقب انصراف المدعوين، ليختلي بعروسه، ويدخل إلى مخدع الزوجية. وكان يروي لنبيل السواحلي. وابنه ناصر، وابن سويلم الدرويش، ومجموعة من رفاقه الحارسين، لقنطرة الجسر، رؤياه العجيبة، وحلمه في منامه البارحة، قائلاً:

– أعجب ما رأيت في حياتي، ويكاد لا يصدق، إلا للذين شفَّتْ حواسهم، وصفتْ أرواحهم، كما كان يقول خالي عمران ووالدي. وذلك أني رأيت في منامي البارحة وبعيد الفجر، حلماً غريباً. الشيخ نجم الريحان بذاته، تجلى لي بصورة شخصية، بقامته المديدة، ولحيته الثلجية الموازية لصدره، وجبته الخضراء، وبإشراقة عينيه اللامعتين. كتلك النجمة التي فوقنا، وهمس في أذني، (سأقاتل معكم غداً، وأحمل بروق الصواعق بدعائي لكم، وألقي في قلوب دعاة التفرقة والتمزيق، الرعب والهلع، والله مع الجماعة والوحدة. وسأخرج من قبري اليوم). اقشعرَّ جلد الحاضرين، قفَّ شعرهم توزعت رعشات الحلم بين المدافعين عن الجسر، وغلت مراجل الحماسة في صدورهم، وآمنوا أنَّ النصر قادم، وتلك الموقعة مستلهمة من روح موقعة بدر الكبرى.

استرد غيلان الجعفي أنفاسه، وحملق في السماء المليئة بتلك الصوامت الأزلية، المعلقة في أذن الجوزاء، كأقراط من الضياء اللامع، وتابع حديثه:

– وأغرب من ذلك، أني استيقظت من نومي، وقبضت على كمشة من البخور، لأحرقها قرباناً في الغضارة، على مشهد الشيخ نجم الريحان وفوق قبره، فوجئت ويا للغرابة، أن قبر الشيخ متصدع وأن شخصاً ما خرج من لحده.

انبهر الجميع، سادت غيمة أثيرية ذات امتدادات عجائبية في صميم المدافعين، خيمت سكينة متأملة. مزقتها زحوف من الشمال والجنوب. دوّى الرصاص في الأودية، انهمر كزخات البرد الشتوي، تطايرت شظايا، حول الضفتين، أبدى المدافعون مقاومة ملحمية عن الجسر، كان أيوب السارح يطلق

رصاصه الصائب على كل من يتحرك، ويخمده. مضت ساعات لا يمكن قياسها بالزمن العبودي المؤلف من دقائق وثوانٍ، دامت الرشقات تئز فوق رؤوس المدافعين حتى بان أول خيط أبيض من الفجر، واخترقت رصاصتان رئة غيلان الجعفي، وثلاثة رأس حميدان الدرويش فخر صريعاً. وسحب ناصر والده المصاب إلى ظل الصخرة ليقيه زخات الرصاص. أظهر المدافعون صموداً حير المهاجمين الذين أغاروا ثانية من الجبهتين لحصار الجسر ونسفه، وانهالوا على مترس أيوب السارح الذي كان رصاصة يقنصهم، ويسيل دماءهم، وزحموه بوابل من الرصاص، فأصابوا مقتلاً من ابنه سامر وهو يقدم الذخيرة لوالده فأردوه قتيلاً. انفجر غضب الأب كحمم البركان، وازداد تحفزاً وثأراً، وانبرى يلاحق فلولهم المنهزمة حتى غابوا وراء الغبشة، وتفرقوا في شعاب عين الغار الجنوبية، في حين أبدى ثوار الضفة الشمالية من الجسر مقاومة شرسة، وتشبثوا بمواقعهم، مزَّقوا المهاجمين من قرية العثمانية شرَّ ممزق، وأثخنوهم بالجراح، وجعلوهم يفرون مذعورين من هول المعركة. وعلى الضفة الشمالية من النهر، سقط أربعة قتلى من الحزب الثوري هم: حسام حاتم، عمر الخالدي، وأبو بكر الرواندي، وجورج نعوم. وكان الفجر قد بزغ، واندلقت حمرة شفقية فوق قمم الشعرا. وكان غيلان الجعفي يحتضر تحت الصخرة المحاذية، ويحتضنه ابنه ناصر. ويحملق في الصوت الخفي الذي أتاه هذه المرة من أمامه بدلاً من خلفه، وكان يبتسم، ابتسامة عذبة بدلاً من قهقهاته، ويهمس في أذنه: "آن لنا أن نفترق ياصنوي وأغيِّبَ قهقهاتي الخلفية من ورائك إلى الأبد. لقد تجاوزتني رمزاً خالداً وفكرة انعتقت من كل الصدوع والانهيارات، وأمسيت منارة دائمة الإشراق في ذاكراة الأحياء والآتين، وربيعاً إنسانياً لا يعرف التمزق والموت، وتجاوزت الطاحونة الوثنية وخرائب الأزمنة وكلاليبها، وممارسات الأوغاد". واختفى وراء أمواه النهر السيلي. احتضن غيلان الجعفي ابنه ناصر في حنو الراحلين، وأمره بأن يرفع له رأسه، ليلقي آخر نظرة على الدنيا. كان الجمع من الرفاق الأحياء، قد تجمعوا حوله، وحاولوا وقف النبع الدموي الذي يتدفق من صدره. وحنا عليه الدكتور الأخضر وأيوب السارح ونبيل السواحلي، يسعفوه، ولكن بلا جدوى. همس في صوت خافت كأنه أنين ناي بعيد:

– حياتي انتهت. طلع هذا الفجر من هذه الينابيع الدموية الشهيدة. بقي الجسر الرمز، أقبرونا، تحت هذا الجسر شهداء الشمال في شماله، وشهداء الجنوب في جنوبه، واحفروا لي قبري في ظل هذه الجفنة من الغار الدائم الاخضرار. أوصيكم بشيئين غاليين، أولهما رسالتي، أن تتابعوا الدرب النضالي، وثانيهما أن ترعوا ابني الوحيد ناصر– ابتسم ابتسامة فوق الموت، وهوى بجسده

إلى مهاوي الخمود، والفناء، وانطفأت الشعلة التي أغدقتْ، على العالم كلَّ عطائها، ومخزونها من الضياء ونبل المواقف وترمدتْ كالفينكس الأسطوري معاناة واحتراقاً لتولد من ترمدها حياةٌ أشد سطوعاً وإنسانية.

***

مكث الجسر الكفري شاخصاً في وجه الدهر، تتكسر على قنطرته ودعائمه أنواء الحَدَثان والسنين، دون أن تنال من بقائه ورسوخه. وظلت مواكب الإنسان في قرى العثمانية والجرود، تمرُّ فوقه في قداسة، تتملى سبعة قبور؛ أربعة في الشمال، وثلاثة في الجنوب، ترف كمنارات لامعة في دياجير المحن، والجزر التاريخي، أنقذت مركب الوحدة الوطنية من التحطم على شاطىء صخور مدببة كالخناجر، وسط أعتى الرياح الهوج. وفي كل جمعة، عند الغروب، يتلامح سكان الحارة التحتانية من عين الغار، شبح امرأة مسربلة بلون الحداد، توقف سيارتها السوداء، وتنزل تحت الجسر، توقد ناراً، ترمي بخوراً في غضارة حائلة، تركع في خشوع أمام قبر غيلان الجعفي وتقرأ الفاتحة، وتسرِّحُ بناظريها الخضراوين إلى شمس المغيب، وتهيم وراء دنيا من التأملات والغور في الماضي، وتتناغم أشعة دموعها المنسكبة فوق مدافن الزمن الذي لا يعود مع نوافير الشمس الغاربة، والتماعاتِ أمواه النهر المنسابة تحت الجسر الكفري الماثل كما رد جبار من صميم التاريخ، يستقبل الشروقَ المتوهجَ، ويودّع الغروب الآفل، في ملحمة الديمومة، والبقاء.

❐❐❐

المحتوى

الفصل الأول **5**

الفصل الثاني **10**

الفصل الثالث **22**

الفصل الرابع **31**

عي الرابع من نيسان الشرقي *31*

الفصل الخامس **49**

العرس المأساوي *49*

الفصل السادس **56**

الرحيل *56*

الفصل السابع **62**

المقر في عين الغار *62*

الفصل الثامن **70**

قرية العثمانية *70*

الفصل التاسع **84**

ضامة المغارة *84*

الفصل العاشر **92**

الاعتقال والسجون *92*

الفصل الحادي عشر **98**

تحت ظلال الخابور *98*

الفصل الثاني عشر **104**

رفات حب جديد *104*

الفصل الثالث عشر **110**

مخاضات جديدة *110*

الفصل الرابع عشر **120**

الفراق *120*

الفصل الخامس عشر **130**

التخاطر *130*

الفصل السادس عشر **138**

عيد رأس السنة الشرقية *138*

الفصل السابع عشر **150**

الرسو على سفح قاسيون *150*

وصلة تاريخية: *155*

الفصل الثامن عشر **158**

الخروج من السجن *158*

الفصل التاسع عشر **164**

انشطار الأسرة وتمزقها *164*

الفصل العشرون **173**

التمركز في عين الغار *173*

الفصل الواحد والعشرون **186**

الحوار مع الأرض *186*

حاشية تاريخية ثانية- التحولات- *193*

الفصل الثاني والعشرون **196**

انعكاسات التحولات **196**

الاستشهاد **202**

❐❐❐

رقم الايداع في مكتبة الأسد ـ الوطنية

خرائب الأزمنة :.رواية / سليمان كامل– دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1998 – 218 ص ؛ 24 سم .

1– 813.03 ك ا م خ 2– 813.009561 ك ا م خ

3– العنوان 4 –كامل

ع –98/5/900 **مكتبة الأسد**

❐

هذا الكتاب

رواية ترصد حياة حافلة بذكريات الماضي البعيد والوسيط والراهن، يجسدها بطل الرواية المدعو غيلان الجعفي من خلال ظروف القهر أيام العثمانيين، والفرنسيين وعهد ما بعد الوحدة.

رواية تؤرخ لمراحل مهمة من حياتنا، وتستحق الوقوف عندها والتأمل في منعكساتها.